في ظلال القرآن

بقلم

سيد قطب

الجزء الخامس

دار العربية
للطباعة والنشر والتوزيع
بيروت - لبنان

ص.ب ٦٠٨٩

في ظلال القرآن

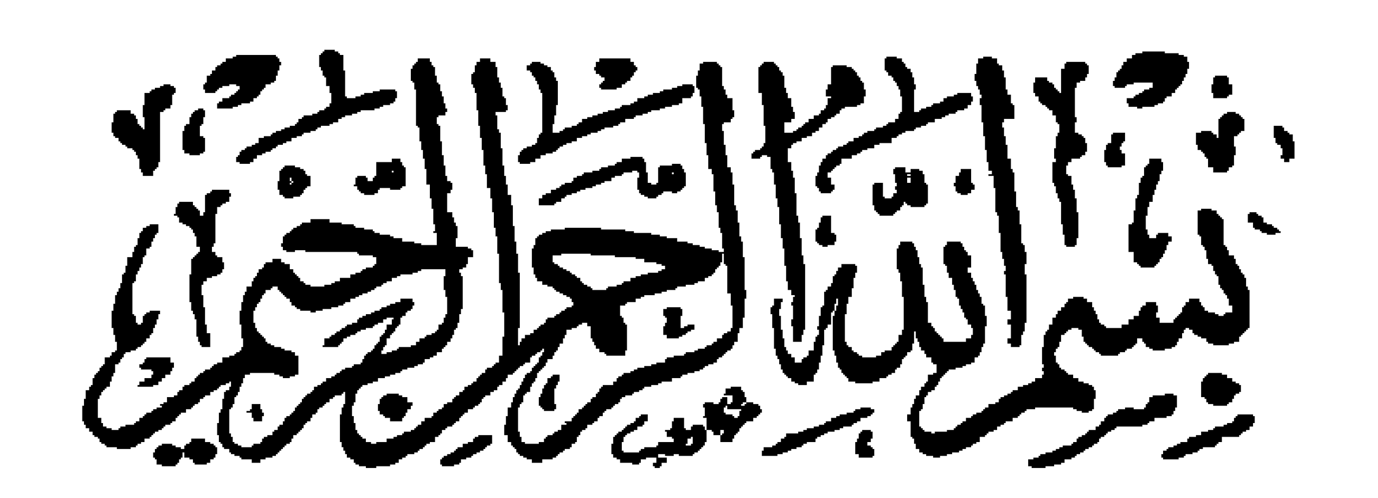
بقلم

سيد قطب

الجزء الخامس

الطبعة الرابعة

دار العربية
للطباعة والنشر والتوزيع
بيروت - لبنان


بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

نمضي مع سورة النساء في هذا الجزء ، الذي يتضمن معظم اهداف السورة وموضوعاتها ، التي اجملنا الإشارة إليها في مطالعها في الجزء الرابع [1].

ونجد في هذا الجزء من الأهداف الأساسية للسورة والموضوعات الرئيسية عناصر كثيرة :

نجد في الدرس الأول بقية من تنظيم شؤون الأسرة ؛ وإقامتها على اساس ثابت من موحيات الفطرة؛ وحمايتها من تأثير الملابسات العارضة في جو الحياة الزوجية؛وحمايتها كذلك وحماية المجتمع معها من انتشار الفاحشة ، والاستهتار بالحرمات ، ووهن الروابط العائلية .

كذلك نجد بقية من التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية . تتناول العلاقات المالية والتجارية، كما تتناول بعض احكام الميراث ، وحقوق الملكية للجنسين في المجتمع ..

وهذه التنظيمات وتلك تستهدف — كما قلنا في مطالع السورة — نقل المجتمع المسلم من النظام الجاهلي إلى النظام الإسلامي للحياة ؛ ومحو الملامح الجاهلية المترسبة ، وتثبيت الملامح الإسلامية الجديدة ، والارتفاع بالجماعة المسلمة — التي التقطها المنهج الرباني من سفح الجاهلية — والمضي بها صعدا في المرتقى الصاعد ، إلى القمة السامقة .

ثم نجد في الدرس الثاني عودة إلى تقرير اصول التصور الإسلامي ؛ تبين حد الإيمان وشرط الإسلام.. ليقوم هذا التقرير المستأنف قاعدة لبعض تنظيمات اخرى للتكافل الاجتماعي في الجماعة . التكافل الذي يبدأ من اضيق الحدود في الأسرة ، ثم يمتد ليشمل المحتاجين والضعاف في الجماعة كلها . ومع الأمر بالبذل والتكافل نجد تقبيح البخل بالمال ، والاختيال بالثراء ، وكتمان النعمة والرياء في الانفاق .

كما نجد في هذا الدرس جانباً من التربية النفسية بالعبادة التي بدأ بها ، والتطهير لأدائها ، واعتبار الخمر دنساً لا يتفق مع حال العبادة .. وذلك كخطوة في طريق تحريمها .. وفق المنهج التربوي الحكيم .

---

(١) من ص ٢٠١ الى ص ٢٢٩ من الجزء الرابع من هذه الطبعة المنقحة .

وفي الدرس الثالث نجد من موضوعات السورة الأساسية موقفاً مع اهل الكتاب يتضمن كشفاً لأهدافهم الخبيثة ونياتهم الماكرة بالجماعة المسلمة ، وبياناً لطبيعة كيدهم ومكرهم ، وتعجيبا من امرهم واعتبارهم عدواً للمسلمين . وتهديدهم بسوء المصير والعذاب الأليم .

اما الدرس الرابع فيستهدف بيان معنى الدين ، وشرط الإيمان ، وحد الإسلام . بياناً حاسما جازما . يكشف عن طبيعة النظام الإسلامي ، ومنهج المسلمين في الطاعة والاتباع والتلقي من الله وحده ، والتحاكم إلى منهج الله وحده ، واتباع حكم رسوله وطاعته .. كما يكشف عن تكاليف المسلمين في الأرض في اداء الأمانات الى اهلها ، والحكم بين الناس بالعدل ، واقامة منهج الله في حياة الناس — باعتبار هذا كله شرطاً لتحقق الإيمان — مع التعجيب من امر الذين يدعون الإيمان ، ثم لا يحققون شرطه الأول من التحاكم الى الله ورسوله ، مع الرضى والتسليم المطلق .. والتوكيد بعد التوكيد على انه لا ايمان — مهما ادعاه المدعون — الا بتحقق هذا الشرط الواضح الصريح .

ومن ثم نجد في الدرس الخامس توجيه الجماعة المسلمة لحماية هذا المنهج الواضح بالقتال دونه ، والتنديد بالمعوقين والمنافقين الذين يبطئون عن الجهاد . واستجاشة الضمائر المؤمنة ، ببيان اهداف القتال ، لاستنقاذ الضعاف من المؤمنين من دار الكفر الى دار الإسلام ، وتمتيعهم بالحياة في ظل ذلك المنهج الرفيع الكريم ، وبيان حقيقة الأجل والقدر ، لتطهير القلوب من الخوف والفزع .. وينتهي الدرس بأمر للنبي — صلى الله عليه وسلم — ان يمضي الى الجهاد ، ولو لم يجد الا نفسه ! فلا مناص من المضي فيه للتمكين لهذا الدين ، وللمنهج الإلهي القويم .

وبمناسبة القتال نجد في الدرس السادس بياناً للكثير من قواعد المعاملات الدولية ، بين المعسكر الاسلامي وشتى المعسكرات المناوئة له والمهادنة ، والمعاهدة ، فليس الأمر امر قوة وبطش وغلب ، ولكنه امر مواجهة للواقع مع اقامة الحدود المنظمة للعلاقات الإنسانية ، في المعسكرات المختلفة الاتجاه ..

وفي الدرس السابع نجد الحديث عن الجهاد بالأموال والأنفس ، في صدد التنديد بالقاعدين عن الهجرة في دار الكفر ، حيث يفتنون عن دينهم ، بينما دار الإسلام قائمة ، وراية الدين فيها عزيزة كريمة . . وينتهي هذا الدرس أيضاً بالتحضيض للمؤمنين على القتال ، ومتابعة أعدائهم ، وعدم الوهن في طلبهم . وبيان حقيقة موقف المؤمنين وموقف أعدائهم ، واختلاف وجهتهم ومصائرهم وجزائهم .

وفي الدرس الثامن نستشرف تلك القمة السامقة في العدل الاسلامي ، في قصة اليهودي

الذي اتهم ظلماً ، وقامت الشهادات الملفقة ضده ، فنزل القرآن من الملأ الأعلى يبرىء هذا اليهودي .. مع كل ما كانت تكيده يهود للاسلام والمسلمين . ولكن العدل الاسلامي الإلهي هو العدل الذي لا يتأثر بالمودة أو الشنئان . وهو القمة السامقة التي لم تبلغ اليها البشرية قط إلا في ظلال هذا المنهج الرفيع الفريد [1] .

والدرس التاسع جولة مع الشرك والمشركين،وخرافات الشرك وآثاره في إنشاء الشعائر الضالة ، والتصورات السخيفة ! مع تصحيح الأوهام والأماني الزائفة عن عدل الله . وتقرير الجزاء على أساس العمل لا الأماني والأوهام . وتوكيد أن الإسلام هو وحده الدين ، وهو ملة ابراهيم .

ويعود الدرس العاشر إلى النساء ؛ وحقوقهن — وبخاصة اليتامى منهن — وحقوق المستضعفين من الولدان — وهو الموضوع الذي بدأت به السورة — وإلى الاجراءات التي يعالج بها موقف النشوز والإعراض من جانب الزوج . مع بيان حدود العدل المطلوب في معاشرة الزوجات ، والذي لا تستقيم العشرة بدونه ، ويكون خيراً منها الفرقة ، عندما يتعذر الاصلاح ..

والتعقيب على هذه الأحكام المتعلقة بالأسرة ، والعدل في المعاشرة يربط هذه الأحكام والتوجيهات بالله ، وملكيته للسماوات والأرض ؛ وقدرته على الذهاب بالناس واستبدال غيرهم بهم — فيدل على ضخامة الأمر ، وعلاقته بحقيقة الألوهية الهائلة .. ومن ثم يستجيش تقوى الله في الضمائر ؛ ويستطرد إلى دعوة الذين آمنوا إلى العدل المطلق في معاملاتهم كلها، وفي احكامهم جميعها .. على طريقة القرآن في الاستطراد من القطاع الضيق الخاص ، إلى المحيط الشامل العام .

ثم يجيء الدرس الأخير في هذا الجزء . وهو يكاد يكون مقصوراً على التنديد بالنفاق والمنافقين ؛ ودعوة المؤمنين إلى الإيمان الجاد الواضح المستقيم ؛ وتحذيرهم من الولاء لغير الجماعة المسلمة وقيادتها الخاصة ، ومن التهاون والتراخي في دينهم مجاملة او مراعاة للعلاقات الاجتماعية أو المصلحية مع المنافقين وأعداء هذا الدين .فهذه سمة من سمات النفاق ، والمنافقون في الدرك الأسفل من النار والمنافقون هم الذين يتولون الكافرين .

ويختم الدرس ويختم الجزء معه بتقرير حقيقة مؤثرة عن صفة الله سبحانه ، وعلاقته

---

(١) يرجع الى قصة ذلك اليهودي في التمهيد للسورة في الجزء الرابع ص ٢٢٨

بعباده ، والحكمة في عقابه للمنحرفين والضالين . وهو — سبحانه — لا حاجة به الى عقاب خالِقه لو آمنوا وشكروا : « ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم ؟ وكان الله شاكراً عليما » . .

وهو تعبير عجيب يوحي للقلب برحمة الله ، واستغنائه — سبحانه — عن تعذيب الناس ، لو استقاموا على منهجه ، وشكروا فضله في هذا المنهج ومنته .. ولكنهم هم الذين يشترون العذاب لأنفسهم بالكفر والجحود ، وما ينشئه الكفر والجحود من فساد في الأرض ، وفساد في النفس ، وفساد في الحياة .

* * *

وهكذا يضم الجزء جناحيه على هذا الحشد من الأهداف والموضوعات ، وعلى هذا المدى من الأشواط والأبعاد .. فنكتفي في التقديم له بهذه الإشارات الخاطفة ، ريثما نستعرض النصوص فيما يلي بتوفيق الله ...

...«وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ - إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ - كِتَابَ اللهِ عَلَيْكُمْ - وَأُحِلَّ لَكُمْ - مَا وَرَاءَ ذَٰلِكُمْ - أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ . فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً ، وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ ، إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً (٢٤) وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ — وَاللهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ ، بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ — فَانْكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ ، وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ ، وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ . فَإِذَا أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ ، فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى

ٱلْمُحْصَنَاتِ مِنَ ٱلْعَذَابِ . ذٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ ٱلْعَنَتَ مِنْكُمْ ، وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَكُمْ وَٱللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٢٥) يُرِيدُ ٱللهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ ، وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ ، وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ، وَٱللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٢٦) وَٱللهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ ، وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيماً (٢٧) يُرِيدُ ٱللهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ ، وَخُلِقَ ٱلْإِنسَانُ ضَعِيفاً » (٢٨)

« يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ — إلا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ — وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ، إِنَّ ٱللهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيماً (٢٩) وَمَن يَفْعَلْ ذٰلِكَ عُدْوَاناً وَظُلْماً فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَاراً ، وَكَانَ ذٰلِكَ عَلَى ٱللهِ يَسِيراً (٣٠) إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيماً (٣١) وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ ٱللهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ ، لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا ٱكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا ٱكْتَسَبْنَ ، وَٱسْأَلُوا ٱللهَ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ ٱللهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً (٣٢) وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ ٱلْوَالِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ ، وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ ، إِنَّ ٱللهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيداً (٣٣) .

« الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى ٱلنِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ ، وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ . فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللهُ ، وَٱللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ ، وَٱهْجُرُوهُنَّ فِي ٱلْمَضَاجِعِ ، وَٱضْرِبُوهُنَّ ، فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا ، إِنَّ ٱللهَ كَانَ عَلِيًّا

كَبِيراً (٣٤) وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُوا حَكَماً مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَماً مِنْ أَهْلِهَا ، إِنْ يُرِيدا إِصْلاحاً يُوَفِّقِ ٱللهُ بَيْنَهُمَا ، إِنَّ ٱللهَ كَانَ عَلِيماً خَبِيراً » (٣٥) ...

هذا الدرس تكملة لما جاء في هذه السورة عن تنظيم الأسرة ، على قواعد الفطرة ، ولا يعود السياق بعد ذلك إلا في موضعين لبيان بعض الأحكام التكميلية في هذا الموضوع الأساسي الهام ، الذي يترتب على تنظيمه جريان الحياة الإنسانية في مجراها الفطري الهادىء الصالح ، كما يترتب على انحرافها عنه فساد في الأرض كبير .

وهذا الدرس يتضمن تكلة لبيان المحرمات من النساء . ثم يحدد الطريقة التي يحب الله أن يجتمع عليها الرجال والنساء في مؤسسة الأسرة النظيفة . ويكشف عما في هذه الطريقة من تيسير على الناس وتخفيف ، إلى جانب نظافتها وطهارتها . ويقرر القواعد التنظيمية التي تقوم عليها تلك المؤسسة الأساسية ، والحقوق والواجبات الملقاة على عاتق الطرفين المتعاقدين فيها .

وإلى جانب هذا التنظيم في الاسرة يتطرق إلى شيء من التنظيم لبعض علاقات المجتمع المسلم في الأموال؛ فيبين حقوق الرجال والنساء ، في المال المكتسب ، والمال الموروث . وما يتبع كذلك في تصفية ما كان من عقود التوارث بالولاء بين غير الاقارب .

ومما يلاحظ — بوجه عام — أن السياق يربط ربطاً دقيقاً بين هذه التنظيمات والأحكام وبين الأصل الأول الكبير للايمان : وهو أن هذه التنظيمات والأحكام صادرة من الله . وهي مقتضى ألوهيته . فأخص خصائص الألوهية — كما كررنا ذلك في مطلع السورة — هو الحاكمية ، والتشريع للبشر ، ووضع الأسس التي تقوم عليها حياتهم وارتباطاتهم .

والسياق ما ينى يكرر هذا الارتباط الدقيق ؛ وينبه إلى هذه الخاصية من خصائص الألوهية . ويكرر كذلك الإشارة إلى صدور هذه التنظيمات عن العليم الحكيم .. وهي إشارة ذات مغزى . فالأمر في هذا المنهج الإلهي كله هو قبل كل شيء أمر العلم الشامل الكامل ، والحكمة المدركة البصيرة .. هذه الخصائص الإلهية التي يفقدها الإنسان ، فلا

يصلح بعدها أبداً لوضع المنهج الأساسي لحياة الإنسان ! ومن هنا شقوة الإنسان في الأرض كلما حاد عن منهج العليم الحكيم ، وراح يخبط في التيه بـلا دليل ، ويزعم أنه قادر ، بجهله وطيشه وهواه ، أن يختار لنفسه ولحياته خيراً مما يختاره الله !!!

والأمر الآخر الذي يؤكده سياق الدرس ويكرره : هو أن منهج الله هذا أيسر على الإنسان وأخف وأقرب إلى الفطرة ، من المناهج التي يريدها البشر ويهوونها ، وأنه من رحمة الله بضعف الإنسان أن يشرع له هذا المنهج ، الذي تكلفه الحيدة عنه عنتا ومشقة ، فوق ما تكلفه من هبوط وارتكاس [1] .

وسنرى — عند استعراض النصوص بالتفصيل — مصداق هـذه الحقيقة في واقع البشر التاريخي وهي حقيقة واضحة في هذا الواقع ، لولا أن الهوى يطمس القلوب ، ويعمي العيون، عندما ترين الجاهلية على القلوب والعيون !

* * *

« والمحصنات من النساء — إلا ما ملكت أيمانكم — كتاب الله عليكم — وأحل لكم — ما وراء ذلكم — أن تبتغوا بأموالكم محصنين غير مسافحين . فما استمتعتم به منهن فآتوهن أجورهن فريضة ، ولا جناح عليكم فيما تراضيتم به من بعد الفريضة . إن الله كان عليما حكيما . ومن لم يستطع منكم طولا أن ينكح المحصنات المؤمنات فمما ملكت أيمانكم من فتياتكم المؤمنات — والله اعلم بإيمانكم بعضكم من بعض — فانكحوهن بإذن أهلهن ، وآتوهن أجورهن بالمعروف ، محصنات غير مسافحات ولا متخذات أخدان . فإذا أحصن ، فإن أتين بفاحشة ، فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب — ذلك لمن خشي العنت منكم — وأن تصبروا خير لكم ، والله غفور رحيم . يريد الله ليبين لكم ، ويهديكم سنن الذين من قبلكم ، ويتوب عليكم ، والله عليم حكيم . والله يريد أن يتوب عليكم ، ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلا عظيما . يريد الله أن يخفف عنكم ، وخلق الإنسان ضعيفا » .

* * *

---

(١) يراجع بتوسع فصل : « الربانية » في كتاب : « خصائص التصور الاسلامي ومقوماته » وفصل « تخبط واضطراب » في كتاب : « الاسلام ومشكلات الحضارة » .

لقد سبق في نهاية الجزء الرابع بيان المحرمات من النساء حرمة ذاتية . وذلك في قوله تعالى : « ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء – إلا ما قد سلف – إنه كان فاحشة ومقتا وساء سبيلا . حرمت عليكم أمهاتكم ، وبناتكم ، وأخواتكم ، وعماتكم ، وخالاتكم ، وبنات الأخ ، وبنات الأخت ، وأمهاتكم اللاتي أرضعنكم ، وأخواتكم من الرضاعة ، وأمهات نسائكم ، وربائبكم اللاتي في حجوركم من نسائكم اللاتي دخلتم بهن – فإن لم تكونوا دخلتم بهن فلا جناح عليكم – وحلائل أبنائكم – الذين من أصلابكم – وأن تجمعوا بين الأختين – إلا ما قد سلف – إن الله كان غفوراً رحيما » .

أما هذه التكملة :

« والمحصنات من النساء ... »

فتتعلق بالمحرمات لأنهن في عصمة رجال آخرين . محصنات بالزواج منهم : فهن محرمات على غير أزواجهن ، لا يحل نكاحهن ... وذلك تحقيقا للقاعدة الأولى في نظام المجتمع الإسلامي ، من قيامه على قاعدة الأسرة ، وجعلها وحدة المجتمع ، وصيانة هذه الأسرة من كل شائبة ، ومن كل اختلاط في الأنساب ، ينشأ من « شيوعية » الاتصال الجنسي ، أو ينشأ من انتشار الفاحشة ، وتلوث المجتمع بها .

والأسرة القائمة على الزواج العلني ، الذي تتخصص فيه امرأة بعينها لرجل بعينه ، ويتم به الإحصان – وهو الحفظ والصيانة – هي أكمل نظام يتفق مع فطرة « الإنسان » وحاجاته الحقيقية ، الناشئة من كونه إنساناً ، لحياته غاية أكبر من غاية الحياة الحيوانية – وإن كانت تتضمن هذه الغاية في ثنايها – ويحقق أهداف المجتمع الإنساني ، كما يضمن لهذا المجتمع السلم المطمئنة : سلم الضمير . وسلم البيت . وسلم المجتمع في نهاية المطاف [1] .

والملاحظ بصفة ظاهرة ، أن الطفل الإنساني يحتاج إلى فترة رعاية أطول من الفترة التي يحتاج إليها طفل أي حيوان آخر . كما أن التربية التي يحتاج اليها ليصبح قادراً على ادراك مقتضيات الحياة الإنسانية الاجتماعية المترقية – التي يتميز بها الإنسان – تمتد إلى فترة طويلة أخرى .

وإذا كانت غاية الميل الجنسي في الحيوان تنتهي عند تحقيق الاتصال الجنسي والتناسل

---

(١) تراجع بتوسع فصول : « سلام الضمير » و « سلام البيت » و « سلام المجتمع » من كتاب « السلام العالمي والاسلام » .

والاكثار ، فإنها في الانسان لا تنتهي عند تحقيق هذا الهدف ، إنما هي تمتد إلى هدف أبعد هو الارتباط الدائم بين الذكر والانثى — بين الرجل والمرأة — ليتم إعداد الطفل الانساني لحماية نفسه وحفظ حياته ، وجلب طعامه وضرورياته ، كما يتم — وهـــذا هو الاهم بالنسبة لمقتضيات الحياة الانسانية — تربية هذا الطفل وتزويده برصيد من التجارب الانسانية والمعرفة الإنسانية يؤهله للمساهمة في حياة المجتمع الإنساني ، والمشاركة في حمل تبعته من اطراد الترقي الانساني عن طريق الأجيال المتتابعة .

ومن ثم لم تعد اللذة الجنسية هي المقوم الأول في حياة الجنسين في عالم الإنسان ؛ إنما هي مجرد وسيلة ركبتها الفطرة فيهما ليتم الالتقاء بينهما ويطول بعد الاتصال الجنسي للقيام بواجب المشاركة في اطراد نمو النوع . ولم يعد « الهوى » الشخصي هو الحكم في بقـــاء الارتباط بين الذكر والأنثى . إنما الحكم هو « الواجب » ... واجب النسل الضعيف الذي يجيء ثمرة للالتقاء بينهما ، وواجب المجتمع الإنساني الذي يحتم عليهما تربية هذا النسل إلى الحد الذي يصبح معه قادراً على النهوض بالتبعة الإنسانية ، وتحقيق غاية الوجود الإنساني .

وكل هذه الاعتبارات تجعل الارتباط بين الجنسين على قاعدة الأسرة ، هو النظام الوحيد الصحيح . كما تجعل تخصيص امرأة لرجل هو الوضع الصحيح الذي تستمر معه هذه العلاقة . والذي يجعل « الواجب » لا مجرد اللذة ولا مجرد الهوى ، هو الحكم في قيامهـــا ، ثم في استمرارها ، ثم في معالجة كل مشكلة تقع في أثنائهـــا ، ثم عند فصم عقدتها عنـــد الضرورة القصوى .

وأي تهوين من شأن روابط الأسرة ، وأي توهين للأساس الذي تقوم عليه — وهو « الواجب » لإحلال « الهوى » المتقلب ، و « النزوة » العارضة ، و « الشهوة » الجامحـــة محله ، هي محاولة آثمة ،لا لأنها تشيع الفوضى والفاحشة والانحلال في المجتمع الإنساني فحسب بل كذلك لأنها تحطم هذا المجتمع ؛ وتهدم الأساس الذي يقوم عليه .

ومن هنا ندرك مدى الجريمة التي تزاولها الأقلام والأجهـــزة الدنسة ، المسخرة لتوهين روابط الأسرة ، والتصغير من شأن الرباط الزوجي ، وتشويهه وتحقيره ، للاعلاء من شأن الارتباطات القائمة على مجرد الهوى المتقلب ، والعاطفة المائجة ، والنزوة الجامحة . وتمجيد هذه الارتباطات ، بقدر الحط من الرباط الزوجي !

كما ندرك مدى الحكمة والعمق في قول عمر ابن الخطاب — رضي الله عنه — لرجل أراد أن يطلق زوجته ، معللاً ذلك بأنه لم يعد يحبها : « ويحك ! ألم تبن البيوت إلا على الحب؟ فأين

الرعاية؟ وأين التذمم؟ » . مستمداً قولته هـذه من توجيه الله سبحانه وتربية القرآن الكريم لتلك الصفوة المختارة من عباده : « وعاشروهن بالمعروف فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً » .. وذلك للامساك بالبيوت — ما أمكن — ومقاومة نزوات القلوب ، وعلاجها حتى تفيء ، وعدم بت هذه الصلة إلا حين تفلس المحاولات كلها ، رعاية للجيل الناشيء في هذه البيوت ؛ وصيانة لها من هزات العاطفة المتقلبة ، والنزوة الجامحة ، والهوى الذاهب مع الريح !

وفي ظل هذه النظرة السامية العميقة ، تتبدى التفاهة والسطحية فيما ينعق به اليوم أولئك المائعون ، وهم يمجدون كل ارتباط إلا الارتباط الذي يحكم الواجب ، والذي يرعى أمانة الجنس البشري كله ، وهي تنشئه أجيال تنهض بمقتضيات الحياة الانسانية المترقية ، وتحكيم مصلحة هذه الاجيال ، لا مصلحة العواطف الوقتية الزائلة !

إن أقلاماً دنسة رخيصة وأجهزة خبيثة لئيمة توحي لكل زوجة ينحرف قلبها قليلا عن زوجها أن تسارع إلى خدين ؛ ويسمون ارتباطها بخدينها هذا « رباطاً مقدساً » ! بينما يسمون ارتباطها بذلك الزوج « عقد بيع للجسد » !

والله سبحانه يقول : في بيان المحرمات من النساء : « والمحصنات من النساء » .. فيجعلهن « محرمات » .

هذا قول الله . وذلك قول المائعين المسخرين لتحطيم هذا المجتمع ونشر الفاحشة فيه ... « والله يقول الحق وهو يهدى السبيل » .

إن جهوداً منظمة موجهة تبـذل لإنشاء موازين وقيم وتصورات للمجتمع غير تلك التي يريدها الله . ولإقامـة أسس للحياة والارتباطات غير تلك التي أقامها الله . ولتوجيه الناس والحياة وجهة غير التي قررها الله .. والموجهون لهذه الجهود يحسبون أنهم ينتهون إلى تحطيم قواعد المجتمع الإسلامي ، وتدمير حياة المسلمين في الأوطان الإسلامية ، حتى لا تبقى أمامهم حواجز تصد أطماعهم القديمة في هذه الأوطان ، بعد أن تنهار عقائدها ، وتنهار أخلاقهـا ، وتنهار مجتمعاتها ولكن الكارثة أبعد من هذا مدى .. إنها تحطيم قواعد المجتمع الإنساني كله — لا المجتمع الإسلامي وحده — تحطيم قواعد الفطرة التي تقوم عليها حياة الإنسان . وحرمان المجتمع البشري من العناصر التي تحمل أمانته الكبرى . أمانة الحياة الإنسانية المترقية . وذلك بحرمانه من الأطفال المؤهلين — في جو الأسرة الهـادىء ، المطمئن ، الآمن من عواصف الشهوات الجامحة ، والنزوات المتقلبة والهوى الذاهب مع الريح — للنهوض بأمانـة الجنس

البشري كله . وهي شيء آخر غير مجرد التناسل الحيواني ! وغير مجرد الالتقاء الشهواني على أساس « العواطف » وحدها ، وتنحية « الواجب » المطمئن الثابت الهادىء !

وهكذا تحق اللعنة على الجنس البشري كله ، إذ يحطم نفسه بنفسه ؛ ويدمر الجيل الحاضر منه مستقبل الأجيال القادمة . لتحقيق لذاته هو ، وشهواته هو ، وعلى الأجيال القادمة اللعنة . وتحق كلمة الله على الخارجين على كلمته وفطرته وتوجيهه . ويذوق الجنس البشري كله وبال أمره . إلا أن يرحمه الله بالعصبة المؤمنة التي تقر كلمة الله ومنهجه في الأرض ، وتأخذ بيد الناس إليها ؛ وتعصمهم من الشر الماحق الذي يهيئونه لأنفسهم بأيديهم . وهم يحسبون أنهم فقط إنما يحطمون الأوطان الإسلامية ، لتنهار حواجزها بتلك الجهود الموجهة الخبيثة ! التي تتولاها أقلام وأجهزة من داخل هذه الأوطان ذاتها .

* * *

« والمحصنات من النساء — إلا ما ملكت أيمانكم .. » .

وهذا الاستثناء يتعلق بالسبايا اللواتي كن يؤخذن أسيرات في حروب الجهاد الإسلامي وهن متزوجات في دار الكفر والحرب . حيث تتقطع علاقاتهن بأزواجهن الكفار ، بانقطاع الدار . ويصبحن غير محصنات . فلا أزواج لهن في دار الإسلام . ومن ثم يكفي استبراء أرحامهن بحيضة واحدة ؛ يظهر منها خلو أرحامهن من الحمل . ويصبح بعدها نكاحهن حلالاً — إن دخلن في الإسلام — أو أن يباشرهن من غير عقد نكاح من يقعن في سهمه ، باعتبارهن ملك يمين . سواء أسلمن أم لم يسلمن .

ولقد سبق لنا في الجزء الثاني من هذه الظلال ، بيان موقف الإسلام من مسألة الرق بجملتها [1] .. كذلك ورد بيان آخر عند تفسير قوله تعالى : « فإذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق ؛ فإما منا بعد وإما فداء ؛ حتى تضع الحرب أوزارها » .. في سورة « محمد » في الجزء السادس والعشرين [2] فيرجع إليها في مواضعها .

ونكتفي هنا بالقول : بأن المعسكر الإسلامي كان يعامل أعداءه في مسألة استرقاق الاسرى في الحرب كما يعاملونه من حيث مبدأ الرق ، ويفضلهم في نوع معاملته للرقيق وفي

(١) ص ١٧٠ من الطبعة الثانية المنقحة .
(٢) ص ٤٨ – ص ٥٤ من الطبعة الأولى .

اعتبار إنسانيته فضلا كبيراً . ولم يكن له بد من ذلك . حيث كان استرقاق الاسرى نظاماً عالمياً لا يملك الإسلام إبطاله من جانب واحد . وإلا كان الاسرى من المسلمين يصبحون رقيقاً ؛ بينما الاسرى من الكفار يصبحون أحراراً . فترجح كفة المعسكرات الكافرة على المعسكر الإسلامي ، وتطمع هذه المعسكرات في مهاجمته وهي آمنـــة مطمئنة من عواقب الهجوم ، بل وهي رابحة غانمة !

ومن ثم لم يكن بد من أن تكون هناك سبايا كوافر في المجتمع المسلم . فكيف يصنع بهن ؟ إن الفطرة لا تكتفي بأن يأكلن ويشربن . فهناك حاجة فطرية أخرى لا بـد لهن من إشباعها وإلا التمسنها في الفاحشة التي تفسد المجتمع كلـه وتدنسه ! ولا يجوز للمسلمين أن ينكحوهن وهن مشركات . لتحريم الارتباط الزوجي بين مسلم ومشركة [1] . فلا يبقى إلا طريق واحد هو إحلال وطئهن بلا نكاح ما دمن مشركات ــ بعد استبراء أرحام المتزوجات منهن ، وانقطاع صلتهن بأزواجهن في دار الكفر والحرب .

* * *

وقبل أن يمضي السياق القرآني في تقرير ما يحل بعد تلك المحرمات ، يربط بين أصـــل التحريم والتحليل ومصدر التحريم والتحليل . المصدر الذي ليس لغيره أن يحرم أو يحلل ؛ أو يشرع للناس شيئاً في أمور حياتهم جميعاً :

« كتاب الله عليكم » . .

هذا عهد الله عليكم وميثاقه وكتابه . . فليست المسألة هوى يتبـع ، أو عرفاً يطاع ، أو موروثات بيئة تتحكم . . إنما هو كتاب الله وعهده وميثاقه . . فهذا هو المصدر الذي تتلقون منه الحل والحرمة ؛ وترعون ما يفرضه عليكم وما يكتبه ، وتطالبون بما كتب عليكم وما عهد إليكم كذلك .

ومما يلاحظ أن معظم المحرمات التي حرمها القرآن في الآيات السابقة ، كانت محرمـة في الجاهلية ولم يكن يباح منها في عرف الجاهلية إلا ما نكح الآباء ، والجمع بين الاختين ــ على كره من العرف الجاهلي ذاته لنكاح زوجات الآباء . وقد كان يسمى عندهم « مقيتا » نسبة إلى المقت ! ولكن لما جاء القرآن يقرر حرمة هذه المحرمات ، لم يرجع في تحريمها إلى عرف

(١) لا يتحتم النكاح لإحلال السبية اذا دخلت في الإسلام . ولكنه فقط يصير جائزاً .

الجاهلية هذا ، إنما قال الله سبحانه : « كتاب الله عليكم » ..

هذه لمسة تقتضي الوقوف أمامها لبيان حقيقة الاصل الاعتقادي في الإسلام ، وحقيقة الأصل الفقهي . فهذا البيان يفيدنا في أمور كثيرة في حياتنا الواقعية :

إن الإسلام يعتبر أن الأصل الوحيد الذي يقوم عليه التشريع للناس هو أمر الله وإذنه . باعتبار أنه هو مصدر السلطان الأول والأخير . فكل ما لم يقم ابتداء على هذا الأصل فهو باطل بطلانا أصليا ، غير قابل للتصحيح المستأنف . فالجاهلية بكل ما فيها — والجاهلية هي كل وضع لا يستمد وجوده من ذلك الأصل الوحيد الصحيح — باطلة بطلاناً أصلياً . باطلة بكل تصوراتها وقيمها وموازينها وعرفها وتقاليدها وشرائعها وقوانينها . والإسلام حين يسيطر على الحياة ويصرفها ، يأخذ الحياة جملة ، ويأخذ الأمر جملة ؛ فيسقط ابتداء كل أوضاع الجاهلية وكل قيمها ، وكل عرفها ، وكل شرائعها ؛ لأنها باطلة بطلاناً أصلياً غير قابل للتصحيح المستأنف .. فاذا أقر عرفاً كان سائداً في الجاهلية ، فهو لا يقره بأصله الجاهلي ؛ مستنداً إلى هذا الأصل . إنما هو يقرره ابتداء بسلطانه المستمد من أمر الله وإذنه . أما ذلك الذي كان في الجاهلية فقد سقط ولم يعد له وجود من الناحية الشرعية .

كذلك حين يحيل الفقه الإسلامي على « العرف » في بعض المسائل فهو يمنح العرف ابتداء سلطاناً من عنده هو — بأمر الله — فتصبح للعرف — في هذه المسائل — قوة الشريعة ، استمداد من سلطان الشارع — وهو الله — لا استمداداً من الناس ومن البيئة التي تواضعت على هذا العرف من قبل . فليس تواضع البيئة على هذا العرف هو الذي يمنحه السلطان .. كلا .. إنما الذي يمنحه السلطان هو اعتبار الشارع إياه مصدراً في بعض المسائل . وإلا بقي على بطلانه الأصلي ، لأنه لم يستمد من أمر الله . وهو وحده مصدر السلطان . وهو يقول عما كانت الجاهلية تشرعه مما لم يأذن به الله : « أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله ؟ » فيشير إلى أن الله وحده هو الذي يشرع . فهل لهم آلهة شرعت لهم ما لم يأذن به الله ؟

هذا الأصل الكبير ، الذي تشير إليه هذه اللمسة : « كتاب الله عليكم » تقررهوتؤكده النصوص القرآنية في كل مناسبات التشريع ؛ فما من مرة ذكر القرآن تشريعاً إلا أشار الى المصدر الذي يجعل لهذا التشريع سلطاناً . أما حين يشير إلى شرائع الجاهلية وعرفها وتصوراتها فهو يردفها غالباً بقوله : « ما أنزل الله بها من سلطان » لتجريدها من السلطان ابتداء ، وبيان علة بطلانها ، وهي كونها لم تصدر من ذلك المصدر الوحيد الصحيح .

وهذا الأصل الذي تقرره هنا هو شيء آخر غير الاصل المعروف في التشريع الإسلامي .

من أن الاصل في الاشياء الحل ، ما لم يرد بتحريمها نص . فكون الاصل في الاشياء الحل ، إنما هو كذلك بأمر الله وإذنه . فهو راجع إلى الاصل الذي قررناه ذاته . إنما نحن نتحدث عما تشرعه الجاهلية لنفسها دون رجوع إلى ما شرعه الله . وهذا الاصل فيه البطلان جملة وكلية ، حتى يقرر شرع الله ما يرى تقريره منه من جديد ، فيكتسب منذ أن يرد في شرع الله المشروعية والسلطان .

★★★

فإذا انتهى السياق من بيان المحرمات ، وربطها بأمر الله وعهده ، أخذ في بيان المجال الذي يملك فيه الناس أن يلبوا دوافع فطرتهم في التزاوج، والطريقة التي يحب الله أن يلتقي بها أفراد الجنسين لتكوين البيوت ، وإقامة مؤسسات الاسرة ، والمتاع بهذا الالتقاء في نظافة وطهر وجد تليق بهذا الامر العظيم :

« وأحل لكم — ما وراء ذلكم — أن تبتغوا بأموالكم . . محصنين غير مسافحين . . فما استمتعتم به منهن فآتوهن أجورهن — فريضة — ولا جناح عليكم فيما تراضيتم به من بعد الفريضة . إن الله كان عليما حكيما » .

ففيما وراء هذه المحرمات المذكورة فالنكاح حلال ، والراغبين أن فيه يبتغوا النساء ، بأموالهم ـ أي لاداء صداقهن ـ لا لشراء أعراضهن بالاموال من غير نكاح ! ومن ثم قال :

« محصنين غير مسافحين » ..

وجعلها قيداً وشرطاً للابتغاء بالاموال ، قبل أن يتم الجملة ، وقبل أن يمضي في الحديث . ولم يكتف بتقرير هذا القيد في صورته الإيجابية المثبتة : « محصنين » بل أردفها بنفي الصورة الاخرى : « غير مسافحين » زيادة في التوكيد والايضاح ، في معرض التشريع والتقنين.. ثم لكي يرسم صورة لطبيعة العلاقة الاولى التي يحبها ويريدها .. علاقة النكاح . . وصورة لطبيعة العلاقة الاخرى التي يكرهها وينفيها .. علاقة المخادنة أو البغاء .. وقد كانت هذه وتلك معروفة في مجتمع الجاهلية ، ومعترفاً بها كذلك من المجتمع !

جاء في حديث عائشة ـ رضي الله عنها ـ :

« إن النكاح في الجاهية كان على أربعة أنحاء : فنكاح منها نكاح الناس اليوم . يخطب الرجل الى الرجل وليته أو بنته ، فيصدقها ثم ينكحها .. والنكاح الآخر كان الرجل يقول

لامرأته – إذا طهرت من طمثها – أرسلي إلى فلان فاستبضعي منه ، ويعتزلها زوجهـا ولا يمسها أبداً حتى يتبين حملها من ذلك الرجل الذي تستبضع منه . فإذا تبين حملها أصابها زوجها إذا أحب . وإنما يفعل ذلك رغبة في نجابة الولد ! فكان هـذا النكاح نكاح الاستبضاع .. ونكاح آخر . يجتمع الرهط ما دون العشرة فيدخلون على المرأة ، كلهم يصيبها ، فإذا حملت ووضعت ، ومر عليها ليال ، بعد أن تضع حملها ، أرسلت إليهم ، فلم يستطع رجل منهم أن يمتنع ، حتى يجتمعوا عندها ، تقول لهم : قد عرفتم الذي كان من أمركم ، وقد ولدت ، فهو ابنك يا فلان . تسمي من أحبت باسمه فيلحق به ولدها ، ولا يستطيع أن يمتنع به الرجل . ونكاح الرابع يجتمع الناس الكثير فيدخلون على المرأة لا تمتنع ممن جاءها وهن البغايا كن ينصبن على أبوابهن رايات تكون علما ، فمن ارادهن دخل عليهن ، فإذا حملت إحداهن ووضعت حملها ، جمعوا لها ودعوا لهم القافة ، ثم ألحقوا ولدها بالذي يرون ، فالتاطه ، ودعي ابنه لا يمتنع من ذلك »[1] .

فالنوعان الثالث والرابع هما السفاح الذي ينص على نفيه – سواء منه المخادنة والبغاء – والأول هو الإحصان الذي ينص على طلبه .. أما الثاني فما ندري كيف نسميه !!!

والقرآن يصور طبيعة النوع الذي يريده الله .. فهو إحصان .. هو حفظ وصيانة . . هو حماية ووقاية .. هو إحصان للرجل وإحصان للمرأة ففي هذه القراءة « محصِنين » بصيغة اسم الفاعل ، وفي قراءة أخرى : « محصَنين » بصيغة اسم المفعول . وكلا المعنيين يتحقق في هذه الصورة النظيفة القوية العفيفة . وهو إحصان للبيت والأسرة والأطفال . إحصان لهذه المؤسسة التي تقوم على هذا الأساس ثابتة راسخة وطيدة .

والآخر : سفاح .. مفاعلة من السفح ، وهو إراقة الماء في المنحدر الواطيء ! مسافحة يشترك فيها الرجل والمرأة ، فيريقان ماء الحياة ، الذي جعله الله لامتداد النوع ، ورقيه ، عن طريق اشتراك الرجل والمرأة في إنجاب الذرية وتربيتها وحضانتها وصيانتها.فإذاهما يريقانه للذة العابرة ، والنزوة العارضة . يريقانه في السفح الواطيء ! فلا يحصنها مـن الدنس،ولا يحصن الذرية من التلف ، ولا يحصن البيت من البوار !

وهكذا يرسم التعبير القرآني صورتين كاملتين لنوعين من الحياة ؛ في كلمتين اثنتين .ويبلغ غايته من تحسين الصورة التي يرتضيها ، وتبشيع الصورة التي لا يرتضيها ، بينما هو يقرر حقيقة

(۱) اخرجه البخاري في كتاب النكاح .

كل من الصورتين في واقع الحياة . وذلك من بدائع التعبير في القرآن [1] .

فإذا انتهى من هذا القيد للابتغاء بالأموال ، عاد ليقرر كيف يُبتغى بالأموال :

« فما استمتعتم به منهن فآتوهن أجورهن فريضة » .

فهو يجعل صداق المرأة فريضة لها مقابل الاستمتاع بها . فمن أراد أن يستمتع بامرأة من الحلائل — وهن ما وراء ذلكم من المحرمات — فالطريق هو ابتغاؤها للاحصان — أي عن طريق النكاح (الزواج) لا عن أي طريق آخر — وعليه أن يؤدي لهـا صداقها حتماً مفروضاً ، لا نافلة ، ولا تطوعاً منه ، ولا إحساناً ، فهو حق لها عليه مفروض . وليس له أن يرثها وراثة بلا مقابل — كما كان يقع في بعض الأحوال في الجاهلية — وليس له أن يقايض عليها مقايضة كما كان يقع في زواج الشغار في الجاهلية . وهو أن يتزوج الرجل امرأة في مقابل أن يدفع لوليها امرأة من عنده ! كأنها بهيمتان ! أو شيئان !

وبعد تقرير هذا الحق للمرأة وفرضيته ، يدع الباب مفتوحاً لما يتراضى عليه الزوجان بينهم وفق مقتضيات حياتها المشتركة ، ووفق مشاعرهما وعواطفهما أحدهما تجاه الآخر :

« ولا جناح عليكم فيما تراضيتم به من بعد الفريضة » .

فلا حرج عليهما في أن تتنازل الزوجة عن مهرها — كله أو بعضه — بعد بيانه وتحديده . وبعد ان أصبح حقاً لها خالصاً تتصرف فيه كما تتصرف في سائر أموالهـا بحرية — ولا جناح عليهما في أن يزيدها الزوج على المهر ، أو يزيدها فيه . فهذا شأنه الخاص . وهذا شأنهما معـاً يتراضيان عليه في حرية وسماحة .

ثم يجيء التعقيب . يربط هذه الأحكام بمصدرها ؛ ويكشف عما وراءها من العلم الكاشف ، والحكمة البصيرة :

« إن الله كان عليماً حكيماً » ..

فهو الذي شرع هذه الأحكام . وهو الذي شرعها عن علم وعن حكمة .. فيعرف ضمير المسلم من أين يتلقى الأحكام في كل شأن من شئون حياته — وأخصها هذا الذي بينه وبين زوجه — ويطمئن إلى مايتلقاه من هذه الأحكام ، الصادرة عن العلم وعن الحكمة « إن الله كان عليماً حكيماً » ...

***

---

(١) يراجع كتاب : « التصوير الفني في القرآن » فصل : « التناسق » وفصـل « طريقة القرآن » ...

فإذا كانت ظروف المسلم تحول بينه وبين الزواج من حرة تحصنها الحرية وتصونها ، فقد رخص له في الزواج من غير الحرة ، إذا هو لم يصبر حتى يستطيع الزواج من حرة ، وخشي المشقة ؛ أو خشي الفتنة :

« ومن لم يستطع منكم طولا ان ينكح المحصنات من النساء ، فمن ما ملكت أيمانكم من فتياتكم المؤمنات – والله أعلم بإيمانكم بعضكم من بعض – فانكحوهن بإذن أهلهن ؛ وآتوهن أجورهن بالمعروف – محصنات غير مسافحات ولا متخذات أخدان – فإذا أحصن . فإن أتين بفاحشة فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب . ذلك لمن خشي العنت منكم . وأن تصبروا خير لكم . والله غفور رحيم » .

إن هذا الدين يتعامل مع « الإنسان » في حدود فطرته ، وفي حدود طاقته . وفي حدود واقعه ، وفي حدود حاجاته الحقيقية .. وحين يأخذ بيده ليرتفع به من حضيض الحياة الجاهلية إلى مرتقى الحياة الإسلامية لا يغفل فطرته وطاقته وواقعه وحاجاته الحقيقية ، بل يلبيها كلها وهو في طريقه إلى المرتقى الصاعد .. إنه فقط لا يعتبر واقع الجاهلية هو الواقع الذي لا فكاك منه.فواقع الجاهلية هابط ، وقد جاء الإسلام ليرفع البشرية من وهدة هذا الواقع !إنما هو يعتبر واقع « الإنسان » في فطرته وحقيقته .. واقتدار الإنسان على الترقي واقع من هذا الواقع.. فليس الواقع فقط هو مجرد تلبطه في وحل الجاهلية .. أية جاهلية..فمن الواقع كذلك مقدرته – بما ركب في فطرته – على الصعود والتسامي عن ذلك الوحل أيضاً !والله – سبحانه – هو الذي يعلم « واقع الانسان » كله ، لأنه يعلم « حقيقة الانسان » كلها . هو الذي خلقه ويعلم ما توسوس به نفسه .. « ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير » ؟

وقد كان في المجتمع المسلم الأول رقيق يتخلف من الحروب ؛ ريثما يتم تدبير أمره . . إما بإطلاق سراحه امتناناً عليه بلا مقابل . وإما فداء مقابل إطلاق سراح أسارى المسلمين ، أو مقابل مال – حسب الملابسات والظروف المنوعة فيما بين المسلمين وأعدائهم المحاربين – وقد عالج الإسلام هذا الواقع بإباحة مباشرة ملك اليمين – كما جاء في الآية السابقة – لمن هن ملك يمينه. لمواجهة واقع فطرتهن كما أسلفنا. مباشرتهن إما بزواج منهن – إن كن مؤمنات– أو بغير زواج ، بعد استبراء أرحام المتزوجات منهن في دار الحرب،بحيضة واحدة .. ولكنه لم يبح لغير سادتهن مباشرتهن إلا أن يكون ذلك عن طريق الزواج . لم يبح لهن أن يبعن أعراضهن في المجتمع لقاء أجر ؛ ولا أن يسرحهن سادتهن في المجتمع يزاولن هذه الفاحشة لحسابهم كذلك !

وفي هذه الآية ينظم طريقة نكاحهن والظروف المبيحة لهذا النكاح :

« ومن لم يستطع منكم طولا أن ينكح المحصنات المؤمنات ، فمما ملكت أيمانكم من فتياتكم المؤمنات » ..

إن الاسلام يؤثر الزواج من حرة في حالة الطول – أي القدرة على نكاح الحرة – ذلك أن الحرة تحصنها الحرية ؛ وتعلمها كيف تحفظ عرضها ، وكيف تصون حرمة زوجها . فهن « محصنات » هنا – لا بمعنى متزوجات ، فقد سبق تحريم نكاح المتزوجات – ولكن بمعنى حرائر ، محصنات بالحرية ؛ وما تسبغه على الضمير من كرامة ، وما توفره للحياة من ضمانات . فالحرة ذات أسرة وبيت وسمعة ولها من يكفيها ، وهي تخشى العار ، وفي نفسها أنفة وفي ضميرها عزة ، فهي تأبى السفاح والانحدار . ولا شيء من هذا كله لغير الحرة . ومن ثم فهي ليست محصنة ، وحتى إذا تزوجت ، فإن رواسب من عهد الرق تبقى في نفسها ، فلا يكون لها الصون والعفة والعزة التي للحرة . فضلا على أنه ليس لها شرف عائلي تخشى تلويثه . . مضافا إلى هذا كله أن نسلها من زوجها كان المجتمع ينظر إليهم نظرة أدنى من أولاد الحرائر . فتعلق بهم هجنة الرق في صورة من الصور .. وكل هذه الاعتبارات كانت قائمة في المجتمع الذي تشرع له هذه الآية ..

لهذه الاعتبارات كلها آثر الاسلام للمسلمين الأحرار ألا يتزوجوا من غير الحرائر ، إذا هم استطاعوا الزواج من الحرائر . وجعل الزواج من غير الحرة رخصة في حالة عدم الطول . مع المشقة في الانتظار .

ولكن إذا وجدت المشقة ، وخاف الرجال العنت . عنت المشقة أو عنت الفتنة . فإن الدين لا يقف أمامهم يذودهم عن اليسر والراحة والطمأنينة . فهو يحل – إذن – الزواج من المؤمنات غير الحرائر اللواتي في ملك الآخرين .

ويعين الصورة الوحيدة التي يرضاها للعلاقة بين الرجال الأحرار وغير الحرائر ، وهي ذاتها الصورة التي رضيها من قبل في زواج الحرائر :

فأولا يجب أن يكن مؤمنات :

« فمما ملكت أيمانكم من فتياتكم المؤمنات » ..

وثانياً : يجب أن يعطين أجورهن فريضة لهن لا لسادتهن . فهذا حقهن الخالص .

« فآتوهن أجورهن » .

وثالثاً : يجب أن تكون هذه الأجور في صورة صداق : وأن يكون الاستمتاع بهن

في صورة نكاح . لا مخادنة ولا سفاح : والمخادنة أن تكون لواحد . والسفاح أن تكون لكل من أراد .

« محصنين غير مسافحين ولا متخذي أخدان » .

وقد كان المجتمع إذ ذاك يعرف هذه الأنواع من الاتصال الجنسي بين الحرائر كما سلف من حديث عائشة — رضي الله عنها — كما كان يعرف كذلك بين غير الحرائر أنواعاً من البغاء . وقد كان سادة من أشراف القوم يرسلون رقيقاتهم يكسبن بأجسامهن في هذا السبيل القذر ، لحساب سادتهن . وكان لعبدالله بن أبي بن سلول — رأس المنافقين في المدينة وهو من سادة قومه — أربع جوار يكسبن له من هذا السبيل ! وكانت هذه بقايا أوحال الجاهلية ، التي جاء الاسلام ليرفع العرب منها ، ويطهرهم ويزكيهم ، كما يرفع منها سائر البشرية كذلك !

وكذلك جعل الإسلام طريقاً واحدة للمعاشرة بين الرجال الأحرار وهؤلاء « الفتيات » ، هي طريق النكاح ، الذي تختص فيه امرأة لرجل ، لتكوين بيت وأسرة ، لا الذي تنطلق فيه الشهوات انطلاق البهائم . وجعل الأموال في أيدي الرجال لتؤدي صداقاً مفروضاً ، لا لتكون اجراً في مخادنة أو سفاح .. وكذلك طهر الإسلام هذه العلاقات حتى في دنيا الرقيق من وحل الجاهلية ، الذي تتلبط فيه البشرية كلما ارتكست في الجاهلية ! والذي تتلبط فيه اليوم في كل مكان ، لأن رايات الجاهلية هي التي ترتفع في كل مكان ، لا راية الإسلام !

ولكن — قبل ان نتجاوز هذا الموضع من الآية — ينبغي أن نقف أمام تعبير القرآن عن حقيقة العلاقات الإنسانية التي تقوم بين الأحرار والرقيق في المجتمع الإسلامي ، وعن نظرة هذا الدين إلى هذا الأمر عندما واجه المجتمع الإسلامي . إنه لا يسمي الرقيقات : رقيقات . ولا جواري . ولا إماء . إنما يسميهن « فتيات » .

« فمما ملكت أيمانكم من فتياتكم المؤمنات » ..

وهو لا يفرق بين الأحرار وغير الأحرار تفرقة عنصرية تتناول الأصل الإنساني — كما كانت الاعتقادات والاعتبارات السائدة في الأرض كلها يومذاك — إنما يذكر بالأصل الواحد . ويجعل الآصرة الانسانية والآصرة الايمانية هما محور الارتباط :

« والله أعلم بإيمانكم ، بعضكم من بعض » ..

وهو لا يسمي من هن ملك لهم سادة . إنما يسميهم « أهلاً » :

« فانكحوهن بإذن أهلهن » .

وهو لا يجعل مهر الفتاة لسيدها . فمهرها إنما هو حق لها . لذلك يخرج من قاعدة أن كسبها

كله له . فهذا ليس كسباً ، إنما هو حق ارتباطها برجل :

« فآتوهن أجورهن » ..

وهو يكرمهن عن ان يكن بائعات أعراض بثمن من المال ، إنما هو النكاح والاحصان :

« محصنين غير مسافحين ولا متخذي أخدان » ..

وكلها لمسات واعتبارات تحمل طابع التكريم لانسانية هؤلاء الفتيات ، حتى وهن في هذا الوضع ، الذي اقتضته ملابسات وقتية ، لا تطعن في أصل الكرامة الانسانية .

وحين يقاس هذا التكريم إلى ما كان سائداً في جاهلية الأرض كلها يومذاك من النظرة الى الرقيق ، وحرمانه حق الانتساب الى « إنسانية » السادة ! وسائر الحقوق التي تترتب على هذه « الانسانية » .. يبدو مدى النقلة التي نقل الاسلام اليها كرامة « الانسان » وهو يرعاها في جميع الأحوال ، بغض النظر عن الملابسات الطارئة التي تحد من أوضاع بعض الأناسي ، كوضع الاسترقاق .

ويبدو مدى النقلة البعيدة حين يقاس صنيع الاسلام هذا ، وتنظيمه لأوضاع هذه الحالة الطارئة بما تصنعه الجيوش الفاتحة في هذه الجاهلية الحديثة بنساء وفتيات البلاد المفتوحة . وكلنا يعرف حكاية « الترفيه » او قصة الوحل الذي تلغ فيه جيوش الجاهلية الفاتحة في كل مكان ! وتخلفه وراءها للمجتمع حين ترحل يعاني منه السنوات الطوال !

ثم يقرر الاسلام عقوبة مخففة على من ترتكب الفاحشة من هؤلاء الفتيات بعد احصانها بالزواج ، واضعاً في حسابه واقعها وظروفها التي تجعلها أقرب الى السقوط في الفاحشة ، وأضعف في مقاومة الاغراء من الحرة ، مقدراً أن الرق يقلل من الحصانة النفسية ، لأنه يغض من الشعور بالكرامة، والشعور بشرف العائلة — وكلاهما شعور يثير الاباء في نفس الحرة — كما يقدر الحالة الاجتماعية والاقتصادية ، واختلافها بين الحرة والأمة ، وأثرها في جعل هذه أكثر تسامحاً في عرضها ، وأقل مقاومة لاغراء المال وإغراء النسب ممن يراودها عن نفسها ! يقدر الاسلام هذا كله فيجعل حد الأمة — بعد إحصانها — نصف حد الحرة المحصنة بالحرية قبل زواجها .

« فإذا أحصن . فإن أتين بفاحشة ، فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب »

ومفهوم ان النصف يكون من العقوبة التي تحتمل القسمة . وهي عقوبة الجلد . ولا يكون في عقوبة الرجم . إذ لا يمكن قسمتها ! فإذا زنت الجارية المؤمنة المتزوجة عوقبت بنصف ما تعاقب به الحرة البكر . أما عقوبة الجارية البكر فمختلف عليها بين الفقهاء . هل

تكون هذا الحد نفسه — وهو نصف ما على الحرة البكر — ويتولاه الامام ؟ أم تكون تأديباً يتولاه سيدها ودون النصف من الحد ؟ وهو خلاف يطلب في كتب الفقه .

أما نحن — في ظلال القرآن — فنقف أمام مراعاة هذا الدين لواقع الناس وظروفهم ، في الوقت الذي يأخذ بأيديهم في المرتقى الصاعد النظيف .

إن هذا الدين يأخذ في اعتباره — كما قلنا — واقع الناس ، دون أن يدعهم يتلبطون في الوحل باسم هذا الواقع !

وقد علم الله ما يحيط بحياة الرقيق من مؤثرات تجعل الواحدة — ولو كانت متزوجة — أضعف من مقاومة الاغراء والوقوع في الخطيئة . فلم يغفل هذا الواقع ويقرر لها عقوبة كعقوبة الحرة . ولكن كذلك لم يجعل لهذا الواقع كل السلطات، فيعفيها نهائياً من العقوبة. قوام وسط . يلحظ كل المؤثرات وكل الملابسات .

كذلك لم يجعل من انحطاط درجة الرقيق سبباً في مضاعفة العقوبة ، كما كانت قوانين الجاهلية السائدة في الأرض كلها تصنع مع الطبقات المنحطة والطبقات الراقية ؛ أو مع الوضعاء والأشراف تخفف عن الأشراف ، وتقسو على الضعفاء .

كان المعمول به في القانون الروماني الشهير أن تشدد العقوبة كلما انحطت الطبقة . فكان يقول : « ومن يستهو أرملة مستقيمة أو عذراء ، فعقوبته — إن كان من بيئة كريمة — مصادرة نصف ماله . وإن كان من بيئة ذميمة فعقوبته الجلد والنفي من الأرض » [١]

وكان المعمول به في القانون الهندي الذي وضعه « منو » وهو القانون المعروف باسم « منوشاستر » أن البرهمي إن استحق القتل ، فلا يجوز للحاكم إلا أن يحلق رأسه . أما غيره فيقتل ! وإذا مد أحد المنبوذين إلى برهمي يداً أو عصا ليبطش به قطعت يده ... الخ [٢] .

وكان اليهود إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الوضيع أقاموا عليه الحد[٣]

وجاء الاسلام ليضع الحق في نصابه ؛ وليأخذ الجاني بالعقوبة ، مراعياً جميع اعتبارات « الواقع » . وليجعل حد الأمة — بعد الاحصان — نصف حد الحرة قبل الاحصان . فلا يترخص فيعفيها من العقوبة ، ويجعل إرادتها ملغاة كلية من ارتكاب الفعل تحت وطأة

---

(١) مدونة جوستنيان ترجمة عبد العزيز فهمي
(٢) كتاب : ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين لابي الحسن الندوي
(٣) رواه الخمسة

الظروف . فهذا خلاف الواقع . ولا يغفل واقعها كذلك فيعاقبها عقاب الحرة — وواقعها يختلف عن واقع الحرة . ولا يتشدد تشدد الجاهلية مع الضعاف دون الأشراف !!!

وما تزال الجاهلية الحديثة في أمريكا وفي جنوب أفريقية وفي غيرها تزاول هذه التفرقة العنصرية ، وتغفر للأشراف « البيض » ما لا تغفره للضعاف « الملونين » والجاهلية هي الجاهلية حيث كانت . والاسلام هو الاسلام .. حيث كان ..

ثم تنتهي الآية ببيان أن الزواج من الاماء رخصة لمن يخشى المشقة أو الفتنة. فمن استطاع الصبر — في غير مشقة ولا فتنة — فهو خير . لما أسلفناه من الملابسات التي تحيط بالزواج من الاماء :

« ذلك لمن خشي العنت منكم . وأن تصبروا خير لكم . والله غفور رحيم » ..

إن الله لا يريد أن يعنت عباده ، ولا أن يشق عليهم ، ولا أن يوقعهم في الفتنة. وإذا كان دينه الذي اختاره لهم يريد منهم الاستعلاء والارتقاع والتسامي ، فهو يريد منهم هذا كله في حدود فطرتهم الانسانية ، وفي حدود طاقتهم الكامنة، وفي حدود حاجاتهم الحقيقية كذلك.. ومن ثم فهو منهج ميسر ، يلحظ الفترة ، ويعرف الحاجة ، ويقدر الضرورة . كل ما هنالك أنه لا يهتف للهابطين بالهبوط ، ولا يقف أمامهم — وهم غارقون في الوحل — يبارك هبوطهم، ويمجد سقوطهم . أو يعفيهم من الجهد في محاولة التسامي، أو من التبعة في قلة مقاومة الاغراء!

وهو هنا يهيب بالصبر حتى تتهيأ القدرة على نكاح الحرائر ؛ فهن أولى ان تصان نفوسهن بالزواج ، وان تقوم عليهن البيوت، وأن ينجبن كرام الأبناء، وأن يحسن الاشراف على الجيل الناشيء ، وأن يحفظن فراش الأزواج .. فأما إذا خشي العنت : عنت المشقة عند الصبر ، وعنت الفتنة التي لا تقاوم ، فهناك الرخصة ، والمحاولة لرفع مستوى الاماء ، بذلك التكريم الذي يضفيه عليهن . فهن « فتياتكم » وهم « أهلهن » . والجميع بعضهم من بعض يربطهم الايمان . والله أعلم بالايمان . ولهن مهورهن فريضة . وهو نكاح لا مخادنة ولا سفاح .. وهن مسؤولات إن وقعن في الخطيئة .. ولكن مع الرفق والتخفيف ومراعاة الظروف :

« والله غفور رحيم » ..

يعقب بها على الاضطرار لنكاح غير الحرائر . ويعقب بها على تخفيف عقوبة الاماء .. وهي في موضعها المناسب عقب هذه وتلك . فمغفرة الله ورحمته وراء كل خطيئة ، ووراء كل اضطرار .



ثم يجيء التعقيب الشامل على تلك الأحكام ؛ وعلى تلك التنظيمات التي شرعها الله للأسرة في المنهج الاسلامي ، ليرفع بها المجتمع المسلم من وهدة الحياة الجاهلية ؛ وليرفع بها مستواه النفسي والخلقي والاجتماعي الى القمة السامقة النظيفة الوضيئة التي رفعه اليها . يجيء التعقيب ليكشف للجماعة المسلمة عن حقيقة ما يريده الله لها بهذا المنهج وبتلك الأحكام والتشريعات والتنظيمات ؛ وعن حقيقة ما يريده بها الذين يتبعون الشهوات ويحيدون عن منهج الله :

« يريد الله ليبين لكم ، ويهديكم سنن الذين من قبلكم ، ويتوب عليكم ، والله عليم حكيم . والله يريد ان يتوب عليكم ، ويريد الذين يتبعون الشهوات ان تميلوا ميلاً عظيماً . يريد الله ان يخفف عنكم ، وخلق الانسان ضعيفاً » ..

إن الله – سبحانه – يتلطف مع عباده ؛ فيبين لهم حكمة تشريعاته لهم ، ويطلعهم على ما في المنهج الذي يريده لحياتهم من خير ويسر . إنه يكرمهم – سبحانه – وهو يرفعهم إلى هذا الأفق . الأفق الذي يحدثهم فيه ، ليبين لهم حكمة ما يشرعه لهم ؛ وليقول لهم : إنه يريد : أن يبين لهم ..

« يريد الله ليبين لكم » ..

يريد الله ليكشف لكم عن حكمته ؛ ويريد لكم أن تروا هذه الحكمة ، وان تتدبروها ، وأن تقبلوا عليها مفتوحي الأعين والعقول والقلوب ؛ فهي ليست معميات ولا ألغازاً ؛ وهي ليست تحكماً لا علة له ولا غاية ؛ وأنتم أهل لادراك حكمتها ، وأهل لبيان هذه الحكمة لكم .. وهو تكريم للانسان ، يدرك مداه من يحسون حقيقة الألوهية وحقيقة العبودية ، فيدركون مدى هذا التلطف الكريم .

« ويهديكم سنن الذين من قبلكم » ..

فهذا المنهج هو منهج الله سنه للمؤمنين جميعاً . وهو منهج ثابت في أصوله ، موحد في مبادئه ، مطرد في غاياته وأهدافه .. هو منهج العصبة المؤمنة من قبل ومن بعد . ومنهج الأمة الواحدة التي يجمعها موكب الايمان على مدار القرون .

بذلك يجمع القرآن بين المهتدين الى الله في كل زمان ومكان ؛ ويكشف عن وحدة منهج الله في كل زمان ومكان ؛ ويربط بين الجماعة المسلمة والموكب الايماني الموصول ، في الطريق اللاحب الطويل . وهي لفتة تشعر المسلم بحقيقة أصله وأمته ومنهجه وطريقه .. إنه من هذه الأمة المؤمنة بالله ، تجمعها آصرة المنهج الآلهي ، على اختلاف الزمان والمكان ، واختلاف الأوطان والألوان ؛ وتربطها سنة الله المرسومة للمؤمنين في كل جيل ، ومن كل قبيل .

« ويتوب عليكم » ...

فهو – سبحانه – يبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم ، ليرحمكم ... ليأخذ بيدكم الى التوبة من الزلل ، والتوبة من المعصية . ليمهد لكم الطريق ، ويعينكم على السير فيه ...

« والله عليم حكيم » ...

فعن العلم والحكمة تصدر هذه التشريعات . ومن العلم والحكمة تجيء هذهالتوجيهات . العلم بنفوسكم وأحوالكم . والعلم بما يصلح لكم وما يصلحكم . والحكمة في طبيعة المنهج وفي تطبيقاته على السواء ...

***

« والله يريد أن يتوب عليكم ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلاً عظيما » ..

وتكشف الآية الواحدة القصيرة عن حقيقة ما يريده الله للناس بمنهجه وطريقته ، وحقيقة ما يريده بهم الذين يتبعون الشهوات ، ويحيدون عن منهج الله – وكل من يحيد عن منهج الله إنما يتبع الشهوات – فليس هنالك إلا منهج واحد هو الجد والاستقامة والالتزام ، وكل ما عداه إن هو إلا هوى يتبع ، وشهوة تطاع ، وانحراف وفسوق وضلال .

فماذا يريد الله بالناس ، حين يبين لهم منهجه ، ويشرع لهم سنته ؟ إنه يريد أن يتوب عليهم . يريد أن يهديهم . يريد أن يجنبهم المزالق . يريد أن يعينهم على التسامي في المرتقى الصاعد إلى القمة السامقة .

وماذا يريد الذين يتبعون الشهوات ، ويزينون للناس منابع ومذاهب لم يأذن بها الله ، ولم يشرعها لعباده ؟ إنهم يريدون لهم أن يميلوا ميلاً عظيماً عن المنهج الراشد ، والمرتقى الصاعد والطريق المستقيم .

وفي هذا الميدان الخاص الذي تواجهه الآيات السابقة : ميدان تنظيم الأسرة ؛ وتطهير المجتمع ؛ وتحديد الصورة النظيفة الوحيدة ، التي يحب الله أن يلتقي عليها الرجال والنساء ؛ وتحريم ما عداها من الصور ، وتبشيعها وتقبيحها في القلوب والعيون .. في هذا الميدان الخاص ما الذي يريده الله وما الذي يريده الذين يتبعون الشهوات ؟

فأما ما يريده الله فقد بينته الآيات السابقة في السورة . وفيها إرادة التنظيم ، وإرادة التطهير ، وإرادة التيسير ، وإرادة الخير بالجماعة المسلمة على كل حال .

وأما ما يريده الذين يتبعون الشهوات فهو أن يطلقوا الغرائز من كل عقال : ديني ، أو أخلاقي ، أو اجتماعي .. يريدون أن ينطلق السعار الجنسي المحموم بلا حاجز ولا كابح من أي لون كان . السعار المحموم الذي لا يقر معه قلب ، ولا يسكن معه عصب ، ولا يطمئن معه بيت ، ولا يسلم معه عرض ، ولا تقوم معه أسرة . يريدون أن يعود الآدميون قطعاناً من البهائم ، ينزو فيها الذكر على الإناث بلا ضابط إلا ضابط القوة أو الحيلة أو مطلق الوسيلة ! كل هذا الدمار ، وكل هذا الفساد ، وكل هذا الشر باسم الحرية ، وهي — في هذا الوضع — ليست سوى اسم آخر للشهوة والنزوة !

وهذا هو الميل العظيم الذي يحذر الله المؤمنين إياه ، وهو يحذرهم ما يريده لهم الذين يتبعون الشهوات . وقد كانوا يبذلون جهدهم لرد المجتمع المسلم إلى الجاهلية في هذا المجال الأخلاقي ، الذي تفوقوا فيه وتفردوا بفعل المنهج الإلهي القويم النظيف . وهو ذاته ما تريده اليوم الأقلام الهابطة والأجهزة الموجهة لتحطيم ما بقي من الحواجز في المجتمع دون الانطلاق البهيمي ، الذي لا عاصم منه ، إلا منهج الله ، حين تقره العصبة المؤمنة في الارض إن شاء الله .

***

واللمسة الأخيرة في التعقيب تتولى بيان رحمة الله بضعف الإنسان ، فيما يشرعه له من منهج وأحكام . والتخفيف عنه بمن يعلم ضعفه ، ومراعاة اليسر فيما يشرع له ، ونفى الحرج والمشقة والضرر والضرار .

« يريد الله أن يخفف عنكم ، وخلق الإنسان ضعيفاً » ..

فأما في هذا المجال الذي تستهدفه الآيات السابقة ، وما فيها من تشريعات وأحكام وتوجيهات ، فإرادة التخفيف واضحة ؛ تتمثل في الاعتراف بدوافع الفطرة ، وتنظيم الاستجابة لها وتصريف طاقتها في المجال الطيب المأمون المثمر ، وفي الجو الطاهر النظيف الرفيع ؛ دون أن يكلف الله عباده عنتاً في كبتها حتى المشقة والفتنة ؛ ودون أن يطلقهم كذلك ينحدرون في الاستجابة لها بغير حد ولا قيد .

وأما في المجال العام الذي يمثله المنهج الإلهي لحياة البشر كلها فإرادة التخفيف تبدو كذلك واضحة ؛ بمراعاة فطرة الإنسان ، وطاقته ، وحاجاته الحقيقية ؛ وإطلاق كل طاقاته البانية . ووضع السياج الذي يقيها التبدد وسوء الاستعمال !

وكثيرون يحسبون أن التقيد بمنهج الله ـ وبخاصة في علاقات الجنسين ـ شاق مجهد . والانطلاق مع الذين يتبعون الشهوات ميسر مريح ! وهذا وهم كبير ... فإطلاق الشهوات من كل قيد ؛ وتحري اللذة ـ واللذة وحدها ـ في كل تصرف ؛ وإقصاء « الواجب » الذي لا مكان له إذا كانت اللذة وحدها هي الحكم الأول والأخير ؛ وقصر الغاية من التقاء الجنسين في عالم الإنسان على ما يطلب من مثل هذا الالتقاء في عالم البهائم ؛ والتجرد في علاقات الجنسين من كل قيد أخلاقي ، ومن كل التزام اجتماعي .. إن هذه كلها تبدو يسراً وراحة وانطلاقاً . ولكنها في حقيقتها مشقة وجهد وثقلة . وعقابيلها في حياة المجتمع ـ بل في حياة كل فرد ـ عقابيل مؤذية مدمرة ماحقة ..

والنظر إلى الواقع في حياة المجتمعات التي « تحررت ! » من قيود الدين والأخلاق والحياء في هذه العلاقة ، يكفي لإلقاء الرعب في القلوب . لو كانت هناك قلوب !

لقد كانت فوضى العلاقات الجنسية هي المعول الأول الذي حطم الحضارات القديمة . حطم الحضارة الإغريقية وحطم الحضارة الرومانية وحطم الحضارة الفارسية . وهذه الفوضى ذاتها هي التي أخذت تحطم الحضارة الغربية الراهنة ؛ وقد ظهرت آثار التحطيم شبه كاملة في انهيارات فرنسا التي سبقت في هذه الفوضى ؛ وبدأت هذه الآثار تظهر في امريكا والسويد وانجلترا ، وغيرها من دول الحضارة الحديثة .

وقد ظهرت آثار هذه الفوضى في فرنسا مبكرة ، مما جعلها تركع على أقدامها في كل حرب خاضتها منذ سنة ١٨٧٠ إلى اليوم ، وهي في طريقها إلى الانهيار التام ، كما تدل جميع الشواهد . وهذه بعض الأمارات التي أخذت تبدو واضحة من بعد الحرب العالمية الاولى

« أن أول ما قد جر على الفرنسيين تمكن الشهوات منهم : اضمحلال قواهم الجسدية ، وتدرجها إلى الضعف يوماً فيوماً . فإن الهياج الدائم قد أوهن أعصابهم ؛ وتعبد الشهوات يكاد يأتي على قوة صبرهم وجلدهم ؛ وطغيان الأمراض السرية قد أجحف بصحتهم . فمن أوائل القرن العشرين لا يزال حكام الجيش الفرنسي يخفضون من مستوى القوة والصحة البدنية المطلوب في المتطوعة للجند الفرنسي ، على فترة كل بضع سنين . لأن عدد الشبان الوافين بالمستوى السابق من القوة والصحة لا يزال يقل ويندر في الأمة على مسير الأيام .. وهذا مقياس أمين ، يدلنا كدلالة مقياس الحرارة ـ في الصحة والتدقيق ـ على كيفية اضمحلال

القوى الجسدية في الأمة الفرنسية [1] . ومن أهم عوامل هذا الاضمحلال : الأمراض السرية الفتاكة. يدل على ذلك أن كان عدد الجنود الذين اضطرت الحكومة إلى أن تعفيهم من العمل ، وتبعث بهم إلى المستشفيات ، في السنتين الأوليين من سني الحرب العالمية الأولى ، لكونهم مصابين بمرض الزهري ، خمسة وسبعين ألفاً . وابتلى بهذا المرض وحده ٢٤٢ جندياً في آن واحد في ثكنة متوسطة . وتصور - بالله - حال هذه الأمة البائسة في الوقت الذي كانت فيه - بجانب - في المضيق الحرج بين الحياة والموت ، فكانت أحوج ما تكون إلى مجاهدة كل واحد من أبنائها المحاربين ، لسلامتها وبقائها . وكان كل فرنك من ثروتها مما يضن به ويوفر ؛ وكانت الحال تدعو إلى بذل أكثر ما يمكن من القوة والوقت وسائر الأدوات والوسائل في سبيل الدفاع. وكان - بجانب آخر أبناؤها الشباب الذين تعطل آلاف منهم عن أعمال الدفاع، من جراء انغماسهم في اللذات ؛ وما كفى أمتهم ذلك خسرانا ، بل ضيعوا جانباً من ثروة الأمة ووسائلها في علاجهم ، في تلك الأوضاع الحرجة .

« يقول طبيب فرنسي نظامي يدعى الدكتور ليريه : إنه يموت في فرنسا ثلاثون ألف نسمة بالزهري ، وما يتبعه من الأمراض الكثيرة في كل سنة . وهـذا المرض هو أفتك الأمراض بالأمة الفرنسية بعد حمى « الدق ». وهذه جريرة مرض واحد من الأمراض السرية التي فيها عدا هذا أمراض كثيرة أخرى » [2] .

والأمة الفرنسية يتناقص تعدادها بشكل خطير : ذلك أن سهولة تلبية الميل الجنسي ، وفوضى العلاقات الجنسية والتخلص من الأجنة والمواليد ، لا تدع مجالاً لتكوين الأسرة ، ولا لاستقرارها ولا لاحتمال تبعة الأطفال الذين يولدون من الالتقاء الجنسي العابر . ومن ثم يقل الزواج ، ويقل التناسل ، وتتدحرج فرنسا منحدرة إلى الهاوية .

« سبعة أو ثمانية في الألف هو معدل الرجال والنساء الذين يتزوجون في فرنسا اليوم . ولك أن تقدر من هذا المعدل المنخفض كثرة النفوس التي لا تتزوج من أهاليها . ثم هذا النزر القليل من الذين يعقدون الزواج ، قل فيهم من ينوون به التحصن والتزام المعيشة البرة الصالحة بل هم يقصدون به كل غرض سوى هذا الغرض. حتى إنه كثيراً ما يكون من مقاصد زواجهم أن يحللوا به الولد النغل الذي قد ولدته أمه قبل النكاح ! ويتخذوه ولداً شرعياً ! فقد كتب « بول بيورو » : من العادة الجارية في طبقة العاملين في فرنسا أن المرأة منهم تأخذ من خدنها

(١) مثل ذلك يقع الآن في أمريكا حيث لا يصلح للجندية ستة من كل سبعة ممن هم في سن التجنيد . وسنة الله لا تتخلف.

(٢) كتاب الحجاب للسيد أبي الأعلى المودودي أمير الجماعة الاسلامية بباكستان ص ١١٣ — ١١٤ .

ميثاقاً قبل أن يعقد بينها النكاح ، أن الرجل سيتخذ ولدها الذي ولدته قبـــل النكاح ولداً شرعياً له . وجاءت امرأة في محكمة الحقوق بمدينة سين (Siene) فصرحت : إنني كنت قد آذنت بعلي عن النكاح بأني لا أقصد بالزواج إلا استحلال الأولاد الذين ولدتهم نتيجة اتصالي به قبل النكاح . وأما أن أعاشره وأعيش معه كزوجة ، فما كان في نيتي عند ذاك ، ولا هو في نيتي الآن . ولذلك اعتزلت زوجي في أصيل اليوم الذي تم فيه زواجنا ، ولم ألتق به إلى هذا اليوم ، لأني كنت لا أنوي قط أن أعاشره معاشرة زوجية .

« قال عميد كلية شهيرة في باريس لبول بيورد : إن عامة الشباب يريدون بعقد النكاح استخدام بغي في بيتهم أيضاً.ذلك أنهم يظلون مدة عشر سنين أو أكثر يهيمون في أودية الفجور أحراراً طلقاء. ثم يأتي عليهم حين من دهرهم يملون تلك الحياة الشريدة المتقلقلة ، فيتزوجون بامرأة بعينها ، حتى يجمعوا بين هدوء البيت وسكينته ، ولذة المخادنة الحرة خـــارج البيت ! »[1] .

وهكذا تدهورت فرنسا . وهكذا هزمت في كل حرب خاضتها ، وهكذا تتوارى عن مسرح الحضارة ثم عن مسرح الوجود يوماً بعد يوم . حتى تحق سنة الله التي لا تتخلف ؛ وإن بدت بطيئة الدوران في بعض الأحيان ! بالقياس إلى تعجل الإنسان .

أما في الدول التي لا تزال تبدو فتية ، أو لم تظهر فيها آثار الدمار واضحة بعـد ، فهذه نماذج مما يجري فيها :

يقول صحفي ممن زاروا السويد حديثاً .. بعد أن يتحدث عن « حرية الحب في السويد » وعن الرخاء المادي ، والضمانات الاجتماعية في مجتمعها الاشتراكي النموذجي :

« إذا كانت أقصى أحلامنا أن نحقق للشعب هذا المستوى الاقتصادي الممتاز ؛ وأن نزيل الفوارق بين الطبقات بهذا الاتجاه الاشتراكي الناجح؛ وأن نؤمن المواطن ضد كل ما يستطيع أي عقل أن يتصوره من أنواع العقبات في الحياة..إذا وصلنا إلى هذا الحلم البهيج الذي نسعى بكل قوانا وإمكانياتنا إلى تحقيقه في مصر .. فهل نرضى نتائجه الأخرى ؟ هل نقبل الجانب الأسود من هذا المجتمع المثالي ؟ هل نقبل«حرية الحب » وآثارها الخطيرة على كيان الأسرة ؟

« دعونا نتحدث بالأرقام ...

« مع وجود كل هذه المشجعات على الاستقرار في الحياة ، وتكوين أسرة ، فإن الخط

---

(١) المصدر السابق : ١١٥ — ١١٧

البياني لعدد سكان السويد يميل إلى الانقراض !.. مع وجود الدولة التي تكفل للفتاة إعانة زواج ؛ ثم تكفل لطفلها الحياة المجانية حتى يتخرج في الجامعة ، فإن الأسرة السويدية في الطريق إلى عدم إنجاب أطفال على الإطلاق . »

« يقابل هذا انخفاض مستمر في نسبة المتزوجين . وارتفاع مستمر في نسبة عدد المواليد غير الشرعيين. مع ملاحظة أن عشرين في المائة من البالغين الأولاد والبنات لا يتزوجون أبداً. »

« لقد بدأ عهد التصنيع. وبدأ معه المجتمع الاشتراكي في السويد عام ١٨٧٠. كانت نسبة الأمهات ـ غير المتزوجات ـ في ذلك العام ٧ في المئة ، وارتفعت هذه النسبة في عام ١٩٢٠ إلى ١٦ في المئة . والإحصاءات بعد ذلك لم أعثر عليها. ولكنها ولا شك مستمرة في الزيادة! »

« وقد أجرت المعاهد العلمية عدة استفسارات عن « الحب الحر » في السويد ، فتبين منها أن الرجل تبدأ علاقاته الجنسية بدون زواج في سن الثامنة عشرة . والفتاة في سن الخامسة عشرة . وأن ٩٥ في المئة من الشبان في سن ٢١ سنة لهم علاقات جنسية ! »

« وإذا أردنا تفصيلات تقنع المطالبين بحرية الحب ، فإننا نقول : إن ٧ في المئة من هذه العلاقات الجنسية مع خطيبات ، و ٣٥ في المئة منها مع حبيبات ! و ٥٨ في المئة منها مع صديقات عابرات ! »

« وإذا سجلنا النسب عن علاقة المرأة الجنسية بالرجل قبل سن العشرين . وجدنا أن ٣ في المئة من هذه العلاقات مع أزواج . و ٢٧ في المئة منها مع خطيب ! و ٦٤ في المئة منها مع صديق عابر ! »

« وتقول الأبحاث العلمية : إن ٨٠ في المئة من نساء السويد مارسن علاقات جنسية كاملة قبل الزواج و ٢٠ في المئة بقين بلا زواج ! »

« وأدت حرية الحب بطبيعة الحال إلى الزواج المتأخر ، وإلى الخطبة الطويلة الأجل. مع زيادة عدد الأطفال غير الشرعيين كما قلت . »

« والنتيجة الطبيعية بعد ذلك أن يزيد تفكك الأسرة .. إن أهل السويد يدافعون عن « حرية الحب » بقولهم : إن المجتمع السويدي ينظر نظرة إحتقار إلى الخيانة بعد الزواج ، كأي مجتمع متمدن اخر ! وهذا صحيح لا ننكره ! ولكنهم لا يستطيعون الدفاع عن الاتجاه إلى انقراض النسل . ثم الزيادة المروعة في نسبة الطلاق . »

« إن نسبة الطلاق في السويد هي أكبر نسبة في العالم . إن طلاقاً واحداً يحدث بين كل ست أو سبع زيجات ، طبقاً للاحصاءات التي أعدتها وزارة الشؤون الاجتماعية بالسويد.

والنسبة بدأت صغيرة ، وهي مستمرة في الزيادة .. في عام ١٩٢٥ كان يحدث ٢٦ طلاقاً بين كل ١٠٠ ألف من السكان ـ ارتفع هذا الرقم إلى ١٠٤ في عام ١٩٥٢ ، ثم ارتفع إلى ١١٤ في عام ١٩٥٤ .

« وسبب ذلك أن ٣٠ في المئة من الزيجات تتم اضطراراً تحت ضغط الظروف ، بعد أن تحمل الفتاة . والزواج بحكم « الضرورة » لا يدوم بطبيعة الحال كالزواج العادي . ويشجع على الطلاق أن القانون السويدي لا يضع أية عقبة أمام الطلاق إذا قرر الزوجان أنهما يريدان الطلاق فالأمر سهل جداً ، وإذا طلب أحدهما الطلاق . فإن أي سبب بسيط يقدمه ، يمكن أن يتم به الطلاق !

« وإذا كانت حرية الحب مكفولة في السويد .. فهناك حرية أخرى يتمتع بها غالبية أهل السويد .. إنها حرية عدم الإيمان بالله ! لقد انتشرت في السويد الحركات التحررية من سلطان الكنيسة على الإطلاق . وهذه الظاهرة تسود النرويج والدنمرك أيضاً . المدرسون في المدارس والمعاهد يدافعون عن هذه الحرية ويبثونها في عقول النشء والشباب » .

« والجيل الجديد ينحرف .. وهذه ظاهرة جديدة تهدد الجيل الجديد في السويد وباقي دول اسكندنافيا . إن افتقادهم للايمان يجرفهم إلى الانحراف ، والإدمان على المخدرات والخمور .. وقد قدر عدد أطفال العائلات التي لها أب مدمن بحوالي ١٧٥ ألفاً . أي ما يوازي ١٠ في المئة من مجموع أطفال العائلات كلها . وإقبال المراهقين على إدمان الخمور يتضاعف..إن من يقبض عليهم البوليس السويدي في حالة سكر شديد من المراهقين بين سن ١٥ و ١٧ يوازي ثلاثة أمثال عدد المقبوض عليهم بنفس السبب منذ ١٥ عاماً . وعادة الشرب بين المراهقين والمراهقات تسير من سيء إلى أسوأ .. ويتبع ذلك حقيقة رهيبة » .

« إن عشر الذين يصلون إلى سن البلوغ في السويد يتعرضون لاضطرابات عقلية ! ويقول أطباء السويد : إن ٥٠ في المئة من مرضاهم يعانون من اضطرابات عقلية تلازم أمراضهم الجسدية . ولا شك أن التمادي في التمتع بحرية عدم الإيمان سيضاعف هذه الانحرافات النفسية، ويزيد من دواعي تفكك الأسرة . ويقربهم إلى هوة انقراض النسل ... »

والحال في أمريكا لا تقل عن هذه الحال : ونذر السوء تتوالى . والأمة الأمريكية في عنفوانها لا تتلفت للنذر . ولكن عوامل التدمير تعمل في كيانها ، على الرغم من هذا الرواء الظاهري ؛ وتعمل بسرعة ، مما يشي بسرعة الدمار الداخلي على الرغم من كل الظواهر الخارجية !!

لقد وجد الذين يبيعون أسرار أمريكا وبريطانيا العسكرية لأعدائهم ، لا لأنهم في حاجة إلى المـــال . ولكن لأن بهم شذوذاً جنسياً ، ناشئاً من آثار الفوضى الجنسية السائدة في المجتمع .

وقبل سنوات وضع البوليس الأمريكي يده على عصابة ضخمة ذات فروع في مدن شتى . مؤلفة من المحامين والأطباء — أي من قمة الطبقة المثقفة — مهمتها مساعدة الأزواج والزوجات على الطلاق بإيجاد الزوج أو الزوجة في حالة تلبس بالزنا ، وذلك لأن بعض الولايات لا تزال تشترط هذا الشرط لقبول توقيع الطلاق ! ومن ثم يستطيع الطرف الكاره أن يرفع دعوى على شريكه بعد ضبطه عن طريق هذه العصابة متلبساً ، وهي التي أوقعته في حبائلها !

كذلك من المعروف أن هناك مكاتب مهمتها البحث عن الزوجات الهاربات والبحث عن الأزواج الهاربين ! وذلك في مجتمع لا يدري فيـــه الزوج إن كان سيعود فيجد زوجته في الدار أم يجدها قـد طارت مع عشيق ! ولا تدري الزوجة إن كان زوجها الذي خرج في الصباح سيعود إليها أم ستخطفه أخرى أجمل منها أو أشد جاذبية ! مجتمع تعيش البيوت فيه في مثل هذا القلق الذي لا يدع عصباً يستريـح !!

وأخيراً يعلن رئيس الولايات المتحدة أن ستة من كل سبعة من شباب أمريكا لم يعودوا يصلحون للجندية بسبب الانحلال الخلقي الذى يعيشون فيه .

« عوامل شيطانية ثلاثة يحيط ثالوثها بدنيانا اليوم . وهي جميعها في تسعير سعير لأهـــل الأرض ، أولها : الأدب الفاحش الخليـع الذي لا يفتأ يزداد في وقاحة ورواجه بعـد الحرب العالمية (الأولى) بسرعة عجيبة. والثاني الأفلام السينمائية التي لا تذكي في الناس عواطف الحب الشهواني فحسب ، بل تلقنهم دروساً عملية في بابه . والثالث انحطاط المستوى الخلقي في عامة النساء ، الذي يظهر في ملابسهن ، بل في عريهن ، وفي إكثارهن من التدخين ، واختلاطهن بالرجال بلا قيد ولا التزام .. هذه المفاسد الثلاثة فينـا إلى الزيادة والانتشار بتوالي الأيام.ولا بد أن يكون مآلها زوال الحضارة والاجتماع النصرانيين وفناؤهما آخر الأمر . فإن نحن لم نحد من طغيانها ، فلا جرم أن يأتي تاريخنا مشابها لتاريخ الرومان . ومن تبعهم من سائر الأمم ، الذين قد أوردهم هذا الاتباع للأهواء والشهوات موارد الهلكة والفناء ، مع ما كانوا فيه من خمر ونساء ، أو مشاغل رقص ولهو وغناء »[1]

(١) نقلا عن كتاب الحجاب للمودودي ص ١٢٩ ، ١٣٠

والذي حدث أن أمريكا لم تحد من طغيان هذه العوامل الثلاثة ، بل استسلمت لها تماماً وهي تمضي في الطريق الذي سار فيه الرومان !

ويكتب صحفي آخر عن موجة انحراف الشباب في أمريكا وبريطانيا وفرنسا، ليهون من انحلال شبابنا يقول :

« انتشرت موجة الإجرام بين المراهقين والمراهقات من شباب أمريكا . وأعلن حاكم ولاية نيويورك ، أنه سوف يجعل علاج هذا الانحراف على رأس برنامج الإصلاح الذي يقوم به في الولاية » .

« وعهد الحاكم إلى إنشاء المزارع و « والإصلاحيات » التهذيبية والأندية الرياضية.. الخ»

« ولكنه أعلن أن علاج الإدمان على المخدرات ـ التي انتشرت بصفة خاصة بين طلبة وطالبات الجامعات ومنها الحشيش والكوكايين ! ـ لا يدخل في برنامجه وأنه يترك أمره للسلطات الصحية ! »

« وأما في انجلترا فقد كثرت في العامين الاخيرين جرائم الاعتداء على النساء وعلى الفتيات الصغيرات في طرق الريف . وفي معظم الحالات كان المعتدي أو المجرم غلاماً مراهقاً . وفي بعضها كان المجرم يعمد إلى خنق الفتاة أو الطفلة ، وتركها جثة هامدة ، حتى لا تفشي سره ، أو تتعرف عليه ، إذا عرضه عليها رجال البوليس . »

« ومنذ شهرين اثنين كان شيخ عجوز في طريقه إلى القرية ، عنـــدما أبصر على جانب الطريق ـ وتحت شجرة ـ غلاماً يضاجع فتاة .. »

« واقترب الشيخ منها ، ووكز الغلام بعصاه وزجره ووبخه ، وقال له : إن ما يفعله لا يجوز ارتكابه في الطريق العام ! »

« ونهض الفتى ، وركل الشيخ بكل قوته في بطنه ... ووقع الشيخ . »

« وهنا ركله الفتى في رأسه بحذائه ... واستمر يركله بقسوة حتى تهشم الرأس ! »

« وكان الغلام في الخامسة عشرة ، والفتاة في الثالثة عشرة من عمرها ! »

وقد قررت لجنة الأربعة عشر الامريكية التي تعنى بمراقبة حالة البلاد الخلقية أن ٩٠ في المئة من الشعب الامريكي مصابون بالامراض السرية الفتاكة (وذلك قبل وجود المركبات الحديثة من مضادات الحيويات كالبنسلين والاستربيتومايسين !) .

وكتب القاضي لندسي بمدينة « دنفر » أنه من كل حالتي زواج تعرض قضية طلاق !

وكتب الطبيب العالم العالمي ألكسيس كاريل في كتابه : « الإنسان ذلك المجهول » :

« بالرغم من اننا في سبيل القضاء على إسهال الاطفال والسل والدفتريا والحمى التيفودية .. الخ فقد حلت محلها أمراض الفساد والانحلال . فهناك عدد كبير من أمراض الجهاز العصبي والقوى العقلية ... ففي بعض ولايات أمريكا يزيد عدد المجانين الذين يوجدون في المصحات على عدد المرضى الموجودين في جميع المستشفيات الاخرى . وكالجنون ، فإن الاضطرابات العصبية وضعف القوى العقلية آخذ في الازدياد . وهي أكثر العناصر نشاطاً في جلب التعاسة للأفراد ، وتحطيم الاسر .. إن الفساد العقلي أكثر خطورة على الحضارة من الامراض المعدية ، التي قصر علماء الصحة والاطباء اهتمامهم عليها حتى الآن ! » ...

***

هذا طرف مما تتكلفه البشرية الضالة ، في جاهليتها الحديثة،من جراء طاعتها للذين يتبعون الشهوات ، ولا يريدون أن يفيئوا إلى منهج الله للحياة . المنهج الملحوظ فيه اليسر والتخفيف على الإنسان الضعيف ؛ وصيانته من نزواته ، وحمايته من شهواته،وهدايته إلى الطريق الآمن ، والوصول به إلى التوبة والصلاح والطهارة :

« والله يريد أن يتوب عليكم ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلاً عظيماً . يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الإنسان ضعيفاً » .

***

والفقرة الثانية في هذا الدرس ، تتناول جانباً من العلاقات المالية في المجتمع المسلم ، لتنظيم طرق التعامل في هذا الجانب ؛ لضمان طهارة التعامل بين الأفراد عامة ؛ ثم لتقرير حق النساء كالرجال في الملك والكسب — كل حسب نصيبه — وأخيراً لتنظيم التعامل في عقود الولاء التي كانت سارية في الجاهلية وفي القسم الأول من صدر الإسلام ، لتصفية هذا النظام ، وتخصيص الميراث بالأقارب ؛ ومنع عقود الولاء الجديدة :

« يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل — إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم — ولا تقتلوا أنفسكم ، إن الله كان بكم رحيما . ومن يفعل ذلك عدواناً وظلماً فسوف نصليه ناراً . وكان ذلك على الله يسيراً . إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم ؛ وندخلكم مدخلاً كريماً . ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض ، للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن ، وأسألوا الله من فضله ، إن الله كان بكل

شيء عليما . ولكل جعلنا موالي مما ترك الوالدان والأقربون ؛ والذين عقدت أيمانكم فآتوهم نصيبهم إن الله كان على كل شيء شهيداً » ..

إنها حلقة في سلسلة التربية ، وحلقة في سلسلة التشريع .. والتربية والتشريع في المنهج الإسلامي متلازمان ؛ أو متداخلان ؛ أو متكاملان .. فالتشريع منظور فيه إلى التربية ، كما هو منظور فيه إلى تنظيم شؤون الحياة الواقعية ؛ والتوجيهات المصاحبة للتشريع منظور فيها إلى تربية الضمائر ؛ كما أنه منظور فيها إلى حسن تنفيذ التشريع ، وانبعاث التنفيذ عن شعور بجدية هذا التشريع ، وتحقق المصلحة فيه . والتشريع والتوجيه المصاحب منظور فيهما ـ معاً ـ إلى ربط القلب بالله ، وإشعاره بمصدر هذا المنهج المتكامل من التشريع والتوجيه .. وهذه هي خاصية المنهج الرباني للحياة البشرية .. هذا التكامل الذي يصلح الحياة الواقعية، ويصلح الضمير البشري في ذات الأوان ..

وهنا في هذه الفقرة نجد النهي للذين آمنوا عن أكل أموالهم بينهم بالباطل — وبيان الوجه الحلال للربح في تداول الأموال — وهو التجارة — ونجـد إلى جانبه تصوير أكل الأموال بالباطل بأنه قتل للأنفس ؛ وهلكة وبوار . ونجد إلى جانبه كذلك التحـذير من عذاب الآخرة ، ومس النار ! .. وفي الوقت ذاته نجد التيسير والوعد بالمغفرة والتكفير ، والعون على الضعف والعفو عن التقصير .. كذلك نجد تربية النفوس على عدم التطلع إلى ما أنعم الله على البعض ، والتوجه إلى الله — صاحب العطاء — وسؤال من بيده الفضل والعطاء . وذلك التوجيه مصاحب لتقرير حق الرجـال ونصيبهم فيما اكتسبوا ، وحق النساء ونصيبهن فيما اكتسبن ، وهذا وذلك مصحوب بأن الله كان بكل شيء عليما .. كما أن بيان التصرف في عقود الولاء ، والأمر بالوفاء بها نجده مصحوباً بأن الله كان على كل شيء شهيداً .. وهي لمسات وجدانية مؤثرة مصاحبة للتشريع ، وتوجيهات تربوية من صنع العليم بالإنسان ، وتكوينه النفسي ، ومسالك نفسه ودروبها الكثيرة .

***

« يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل — إلا أن تكون تجـارة عن تراض منكم — ولا تقتلوا أنفسكم . إن الله كان بكم رحيما . ومن يفعل ذلك عدواناً وظلماً فسوف نصليه ناراً ، وكان ذلك على الله يسيراً » .

النداء للذين آمنوا ، والنهي لهم عن أكل أموالهم بينهم بالباطل .

« يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل » .

مما يوحي بأنها عملية تطهير لبقايا رواسب الحياة الجاهلية في المجتمع الإسلامي ؛ واستجاشة ضمائر المسلمين بهذا النداء : « يا أيها الذين آمنوا » .. واستحياء مقتضيات الإيمان . مقتضيات هذه الصفة التي يناديهم الله بها ، لينهاهم عن أكل أموالهم بينهم بالباطل .

وأكل الأموال بالباطل يشمل كل طريقة لتداول الأموال بينهم لم يأذن بها الله ، أو نهى عنها ، ومنها الغش والرشوة والقمار واحتكار الضروريات لإغلائهـا ، وجميع أنواع البيوع المحرمة — والربا في مقدمتها — ولا نستطيع أن نجزم إن كان هذا النص قد نزل بعد تحريم الربا أو قبله ؛ فإن كان قد نزل قبله ، فقد كان تمهيداً للنهي عنـه . فالربا أشد الوسائل أكلا للأموال بالباطل . وإن كان قد نزل بعده ، فهو يشمله فيما يشمل من ألوان أكل أموال الناس بالباطل .

واستثنى العمليات التجارية التي تتم عن تراض بين البائع والشاري :

« إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم » ..

وهو استثناء منقطع .. تأويله : ولكن إذا كانت تجارة عن تراض منكم فليست داخلة في النص السابق .. ولكن مجيئها هكذا في السياق القرآني ، يوحي بنوع من الملابسة بينها وبين صور التعامل الأخرى ، التي توصف بأنها أكل لأموال الناس بالباطل .. وندرك هذه الملابسة إذا استصحبنا ما ورد في آيات النهي عن الربا — في سورة البقرة — من قول المرابين في وجه تحريم الربا : « إنما البيع مثل الربا » .. ورد الله عليهم في الآية نفسها : « وأحل الله البيع وحرم الربا » .. فقد كان المرابون يغالطون ، وهم يدافعون عن نظامهم الاقتصادي الملعون . فيقولون : إن البيع — وهو التجارة — تنشأ عنها زيادة في الأموال وربح . فهو — من ثم — مثل الربا . فلا معنى لإحلال البيع وتحريم الربا !

والفرق بعيد بين طبيعة العمليات التجارية والعمليات الربوية أولا ، وبين الخدمات التي تؤديها التجارة للصناعة وللجماهير ؛ والبلاء الذي يصبه الربا على التجارة وعلى الجماهير .

فالتجارة وسيط نافع بين الصناعة والمستهلك ؛ تقوم بترويج البضاعة وتسويقها ؛ ومن ثم تحسينها وتيسير الحصول عليها معاً . وهي خدمة للطرفين ، وانتفاع عن طريق هذه الخدمة . انتفاع يعتمد كذلك على المهارة والجهد ؛ ويتعرض في الوقت ذاته للربح والخسارة ..

والربا على الضد من هذا كله . يثقل الصناعة بالفوائد الربوية التي تضاف إلى أصل التكاليف ويثقل التجارة والمستهلك بأداء هذه الفوائد التي يفرضها على الصناعة . وهـو في الوقت ذاته

- كما تجلى ذلك في النظام الرأسمالي عندما بلغ أوجه - يوجه الصناعة والاستثمار كله وجهة لا مراعاة فيها لصالح الصناعة ولا لصالح الجماهير المستهلكة ؛ وإنما الهدف الاول فيها زيادة الربح للوفاء بفوائد القروض الصناعية .ولو استهلكت الجماهير مواد الترف ولم تجد الضروريات! ولو كان الاستثمار في أحط المشروعات المثيرة للغرائز ، المحطمة للكيان الإنساني .. وفوق كل شي .. هذا الربح الدائم لرأس المال ؛ وعدم مشاركته في نوبات الخسارة - كالتجارة - وقلة اعتماده على الجهد البشري ، الذي يبذل حقيقة في التجارة .. إلى آخر قائمة الاتهام السوداء التي تحيط بعنق النظام الربوي ؛ وتقتضي الحكم عليه بالإعدام ؛ كما حكم عليه الإسلام (١) !

فهذه الملابسة بين الربا والتجارة، هي التي لعلها جعلت هذا الاستدراك - « إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم » يجيء عقب النهي عن أكل الاموال بالباطل . وإن كان استثناء منقطعاً كما يقول النحويون !

« ولا تقتلوا أنفسكم . إن الله كان بكم رحيما » ..

تعقيب يجيء بعد النهي عن أكل الاموال بالباطل ؛ فيوحي بالآثار المدمرة التي ينشئها أكل الاموال بالباطل في حياة الجماعة ؛ إنها عملية قتل .. يريد الله أن يرحم الذين آمنوا منها ، حين ينهاهم عنها !

وإنها لكذلك . فما تروج وسائل أكل الاموال بالباطل في جماعة : بالربا . والغش . والقمار والاحتكار . والتدليس . والاختلاس . والاحتيال . والرشوة . والسرقة . وبيع ما ليس يباع : كالعرض ، والذمة . والضمير . والخلق . والدين ! - مما تعج به الجاهليات القديمة والحديثة سواء - ما تروج هذه الوسائل في جماعة ، إلا وقد كتب عليها أن تقتل نفسها ، وتتردى هاوية في الدمار !

والله يريد أن يرحم الذين آمنوا من هذه المقتلة المدمرة للحياة ، المردية للنفوس ؛ وهذا طرف من إرادة التخفيف عنهم ؛ ومن تدارك ضعفهم الإنساني ، الذي يرديهم حين يتخلون عن توجيه الله ، إلى توجيه الذين يريدون لهم أن يتبعوا الشهوات !

ويلي ذلك التهديد بعذاب الآخرة ، تهديد الذين يأكلون الاموال بينهم بالباطل، معتدين ظالمين تهديدهم بعذاب الآخرة ؛ بعد تحذيرهم من مقتلة - الحياة الدنيا ودمارها - لآكل فيهم

---

(١) يراجع ما كتبناه في الظلال في الجزء الثالث ص ٧٠ - ص ٨٦ من الطبعة المنقحة ويراجع بتوسع ما كتبه الأستاذ ابو الأعلى المودودي أمير الجماعة الاسلاميه بباكستان في كتابه (الربا) .

والمأكول ؛ فالجماعة كلها متضامنة في التبعة؛ ومتى تركت الأوضاع المعتدية الظالمة ، التي تؤكل فيها الأموال بالباطل تروج فيها فقد حقت عليها كلمة الله في الدنيا والآخرة :

« ومن يفعل ذلك عدواناً وظلماً ، فسوف نصليه ناراً ، وكان ذلك على الله يسيراً » . .

وهكذا يأخذ المنهج الإسلامي على النفس أقطارها — في الدنيا والآخرة — وهو يشرع لها ويوجهها ؛ ويقيم من النفس حارساً حذراً يقظاً على تلبية التوجيه ، وتنفيذ التشريع ؛ ويقيم من الجماعة بعضها على بعض رقيباً لأنها كلها مسؤولة ؛ وكلها نصيبها المقتلة والدمار في الدنيا ، وكلها تحاسب في الآخرة على إهمالها وترك الأوضاع الباطلة تعيش فيها . . « وكان ذلك على الله يسيراً » فما يمنع منه مانع ، ولا يحول دونه حائل ، ولا يتخلف ، متى وجدت أسبابه ، عن الوقوع !

وفي مقابل اجتناب « الكبائر » — ومنها أكل الأموال بينهم بالباطل — يعدهم الله برحمته ، وغفرانه ، وتجاوزه عما عدا الكبائر ؛ مراعاة لضعفهم الذي يعلمه — سبحانه — وتيسيراً عليهم ، وتطميناً لقلوبهم ؛ وعوناً لهم على التحاجز عن النار ، باجتناب الفواحش الكبار :

« إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه، نكفر عنكم سيئاتكم ، وندخلكم مدخلاً كريماً» .

ألا ما أسمح هذا الدين ! وما أيسر منهجه ! على كل ما فيه من هتاف بالرفعة والسمو والطهر والنظافة ، والطاعة . وعلى كل ما فيه من التكاليف والحدود ، والأوامر والنواهي ، التي يراد بها إنشاء نفوس زكية طاهرة ، وإنشاء مجتمع نظيف سليم .

إن هذا الهتاف ، وهذه التكاليف ، لا تغفل — في الوقت ذاته — ضعف الإنسان وقصوره ، ولا تتجاوز به حدود طاقته وتكوينه ، ولا تتجاهل فطرته وحدودها ودوافعها ، ولا تجهل كذلك دروب نفسه ومنحنياتها الكثيرة .

ومن ثم هذا التوازن بين التكليف والطاقة . وبين الأشواق والضرورات. وبين الدوافع والكوابح . وبين الأوامر والزواجر . وبين الترغيب والترهيب . وبين التهديد الرعيب بالعذاب عند المعصية والإطماع العميق في العفو والمغفرة . .

إنه حسبُ هذا الدين من النفس البشرية أن يتم اتجاهها لله ، وأن تخلص حقاً في هذا الاتجاه ، وأن تبذل غاية الجهد في طاعته ورضاه . . فأما بعد ذلك . . فهناك رحمة الله . . هناك رحمة الله ترحم الضعف ، وتعطف على القصور ، وتقبل التوبة ، وتصفح عن التقصير ، وتكفر الذنب وتفتح الباب للعائدين ، في إيناس وفي تكريم . .

وآية بذل الطاقة اجتناب كبائر ما نهى الله عنه . أما مقارفة هذه الكبائر — وهي واضحة ضخمة بارزة ، لا ترتكبها النفس وهي جاهلة لها أو غير واعية ! فهي دليل على أن هذه النفس لم تبذل المحاولة المطلوبة ، ولم تستنفد الطاقة في المقاومة .. وحتى هذه فالتوبة منها في كل وقت مع الإخلاص مقبولة برحمة الله التي كتبها على نفسه .. وقد قال فيها : « والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم — ومن يغفر الذنوب إلا الله — ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون » .. وعدهم من « المتقين » .

إنما الذي نحن بصدده هنا هو تكفير السيئات والذنوب مباشرة من الله ، متى اجتنبت الكبائر ، وهذا هو وعد الله هنا وبشراه للمؤمنين .

أما ما هي الكبائر .. فقد وردت أحاديث تعدد أنواعاً منها — ولا تستقصيها — وذلك بدليل احتواء كل حديث على مجموعة تزيد أو تنقص ؛ مما يدل على أن هذه الأحاديث كانت تعالج حالات واقعة ؛ فتذكر من الكبائر — في كل حديث — ما يناسب الملابسة الحاضرة ، والمسلم لا يعسر عليه أن يعلم « الكبائر » من الذنوب . وإن كانت تختلف عدداً ونوعاً بين بيئة وبيئة ، وبين جيل وجيل !

ونذكر هنا قصة عن عمر بن الخطاب — رضي الله عنه — وهو المتحرج المتشدد الشديد الحساسية بالمعصية . تبين — مع ذلك كله — كيف قوم الإسلام حسه المرهف ، وكيف جعل الميزان الحساس يعتدل في يده ويستقيم ؛ وهو يعالج أمور المجتمع وأمور النفوس :

قال ابن جرير حدثني يعقوب بن ابراهيم ، حدثنا ابن علية ، عن ابن عون ؛ عن الحسن أن ناساً سألوا عبد الله بن عمرو بمصر ، فقالوا : نرى أشياء من كتاب الله — عز وجل — أمر أن يعمل بها ، لا يعمل بها ، فأردنا أن نلقى أمير المؤمنين في ذلك . فقدم وقدموا معه . فلقي عمر — رضي الله عنه — فقال : متى قدمت ؟ فقال : منذ كذا وكذا . قال : أبإذن قدمت ؟ قال : فلا أدري كيف رد عليه . فقال : أمير المؤمنين إن ناساً لقوني بمصر ، فقالوا : إنا نرى أشياء في كتاب الله ، أمر أن يعمل بها ، فلا يعمل بها فأحبوا أن يلقوك في ذلك . قال : فاجمعهم لي . قال فجمعتهم له . قال أبو عون : أظنه قال : في بهو .. فأخذ أدناهم رجلا ، فقال أنشدك الله ، وبحق الإسلام عليك ، أقرأت القرآن كله ! قال : نعم . قال : فهل أحصيته في نفسك ؟ فقال : اللهم لا — ولو قال : نعم، لخصمه ! قال : فهل أحصيته في بصرك ؟ فهل أحصيته في لفظك ؟ هل أحصيته في أثرك[1] .. ثم تتبعهم حتى أتى على آخرهم

(١) يعني هل أحصيته منفذا محققا في نفسك وفي بصرك وفي لفظك ... الخ ؟

فقال : ثكلت عمر أمه ! أتكلفونه أن يقيم الناس على كتاب الله ؟ قد علم ربنا أن ستكون لنا سيئات . قال : وتلا : « إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم »... الآية . ثم قال : هل علم أهل المدينة ؟ أو قال : هل علم أحد بما قدمتم ؟ قالوا : لا . قال : لو علموا لو عظت بكم[1] ! »

فهكذا كان عمر - المتحرج الشديد الحساسية - يسوس القلوب والمجتمع ؛ وقد قوّم القرآن حسه ؛ وأعطاه الميزان الدقيق .. « قد علم ربنا أن ستكون لنا سيئات! » ولن نكون غير ما علم ربه أن نكون ! إنما المعول عليه هو القصد والتصويب والمحاولة والرغبة في الوفاء بالالتزامات ، وبذل الجهد في هذا الوفاء .. إنه التوازن والجد واليسر والاعتدال .

★★★

وفي سياق الحديث عن الاموال ، وتداولها في الجماعة ، تجيء تكملة فيما بين الرجال والنساء من ارتباطات ومعاملات . وفيما كان من عقود الولاء وعلاقاتها بنظام التوريث العام . الذي سبق تفصيله في أوائل السورة :

« ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض .. للرجال نصيب مما اكتسبوا ، وللنساء نصيب مما اكتسبن .. واسألوا الله من فضله . إن الله كان بكل شيء عليما . ولكل جعلنا موالي مما ترك الوالدان والاقربون . والذين عقدت أيمانكم فآتوهم نصيبهم . إن الله كان على كل شيء شهيدا .. »

والنص عام في النهي عن تمني ما فضل الله بعض المؤمنين على بعض. من أي أنواع التفضيل ، في الوظيفة والمكانة ، وفي الاستعدادات والمواهب ، وفي المال والمتاع .. وفي كل ما تتفاوت فيه الانصبة في هذه الحياة .. والتوجه بالطلب إلى الله ، وسؤاله من فضله مباشرة ؛ بدلا من إضاعة النفس حسرات في التطلع إلى التفاوت ؛ وبدلا من المشاعر المصاحبة لهذا التطلع من حسد وحقد ؛ ومن حنق كذلك ونقمة ، أو من شعور بالضياع والحرمان ، والتهاوي والتهافت أمام هذا الشعور .. وما قد ينشأ عن هذا كله من سوء ظن بالله ؛ وسوء ظن بعدالة التوزيع .. حيث تكون القاصمة ، التي تذهب بطمأنينة النفس ، وتورث القلق

---

(١) رواه ابن كثير في التفسير وقال عنه : اسناد صحيح ، ومتن حسن . وان كان من رواية الحسن عن عمر - وفيها انقطاع - الا أن مثل هذا اشتهر به فتكفي شهرته .

والنكد ؛ وتستهلك الطاقة في وجدانات خبيثة ؛ وفي اتجاهات كذلك خبيثة . بينما التوجه مباشرة إلى فضل الله ، هو ابتداء التوجه إلى مصدر الإنعام والعطاء ، الذي لا ينقص ما عنده بما أعطى ، ولا يضيق بالسائلين المتزاحمين على الأبواب ! وهو بعد ذلك موئل الطمأنينة والرجاء ؛ ومبعث الإيجابية في تلمس الاسباب ، بدل بذل الجهد في التحرق والغيظ أو التهاوي والانحلال !

النص عام في هذا التوجيه العام . ولكن موضعه هنا من السياق ، وبعض الروايات عن سبب النزول ، قد تخصص من هذا المعنى الشامل تفاوتاً معيناً ، وتفضيلا معيناً ، هو الذي نزل هذا النص يعالجه .. هو التفاضل في أنصبة الرجال وأنصبة النساء .. كما هو واضح من سياق الآية في عمومها بعد ذلك .. وهذا الجانب — على أهميته الكبرى في تنظيم العلاقة بين شطري النفس البشرية وإقامتها على الرضا وعلى التكامل ؛ وإشاعة هذا الرضا — من ثم — في البيوت وفي المجتمع المسلم كله ؛ إلى جانب إيضاح الوظائف المتنوعة فيه بين الجنسين والمهام .. هذا الجانب على أهميته هذه لا ينفي عموم النص مع خصوص السبب .. ولهذا روت التفاسير المأثورة ، هذا المعنى وذاك :

قال الإمام أحمد : حدثنا سفيان ، عن أبي نجيح ، عن مجاهد ، قال : قالت أم سلمة : يا رسول الله ، تغزو الرجال ولا نغزو ، ولنا نصف الميراث .. فأنزل الله : « ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض » .

ورواه ابن أبي حاتم ، وابن جرير ، وابن مردويه ، والحاكم في مستدركه . من حديث الثوري ، عن أبي نجيح ، عن مجاهد. قال : قالت أم سلمة : يا رسول الله. لا نقاتل فنستشهد، ولا نقطع الميراث .. فنزلت الآية .. ثم أنزل الله : « أني لا أضيع عمل عامل منكم ، من ذكر أو أنثى » .. الاية .

وقال السدي في الآية : إن رجالا قالوا : إنا نريد أن يكون لنا من الأجر الضعف على أجر النساء، كما لنا في السهام سهمان !. وقالت النساء: إنا نريد أن يكون لنا أجر مثل اجر الشهداء، فإننا لا نستطيع أن نقاتل، ولو كتب علينا القتال لقاتلنا ! فأبى الله ذلك ، ولكن قال لهم : سلوني من فضلي . قال ليس بعرض الدنيا .. وروى مثل ذلك عن قتادة .. كذلك وردت روايات أخرى بإطلاق معنى الآية :

قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في الآية ، قال : « ولا يتمنى الرجل فيقول : ليت لي مال فلان وأهله . فنهى الله عن ذلك . ولكن يسأل من فضله .. وقال الحسن ومحمد ابن

سيرين وعطاء والضحاك نحو هذا ..

ونجد في الأقوال الأولى ظلالاً من رواسب الجاهلية في تصور ما بين الرجال والنساء من روابط ، كما نجد روائح للتنافس بين الرجال والنساء ، لعلها قد أثارتها تلك الحريات والحقوق الجديدة التي علمها الإسلام للمرأة ، تمشياً مع نظريته الكلية في تكريم الإنسان بجنسيه ، وفي إنصاف كل جنس فيه وكل طبقة وكل أحد .. إنصافه حتى من نفسه التي بين جنبيه ..

ولكن الإسلام إنما كان يستهدف من هذا كله تحقيق منهجه المتكامل بكل حذافيره . لا لحساب الرجال ، ولا لحساب النساء ! ولكن لحساب « الإنسان » ولحساب « المجتمع المسلم » ولحساب الخلق والصلاح والخير في إطلاقه وعمومه . وحساب العدل المطلق المتكامل الجوانب والأسباب .

إن المنهج الإسلامي يتبع الفطرة في تقسيم الوظائف ، وتقسيم الأنصبة بين الرجال والنساء . والفطرة ابتداء جعلت الرجل رجلا والمرأة امرأة ، وأودعت كلا منهما خصائصه المميزة ، لتنوط بكل منهما وظائف معينة .. لا لحسابه الخاص . ولا لحساب جنس منهما بذاته . ولكن لحساب هذه الحياة الإنسانية التي تقوم ، وتنتظم ، وتستوفي خصائصها ، وتحقق غايتها — من الخلافة في الأرض وعبادة الله بهذه الخلافة — عن طريق هذا التنوع بين الجنسين ، والتنوع في الخصائص والتنوع في الوظائف .. وعن طريق تنوع الخصائص ، وتنوع الوظائف ، ينشأ تنوع التكاليف ، وتنوع الأنصبة ، وتنوع المراكز .. لحساب تلك الشركة الكبرى والمؤسسة العظمى .. المسماة بالحياة ..

وحين يدرس المنهج الإسلامي كله ابتداء ، ثم يدرس الجانب الخاص منه بالارتباطات بين شطري النفس الواحدة ، لا يبقى مجال لمثل ذلك الجدل القديم الذي ترويه هذه الروايات ، ولا كذلك للجدل الحديث ، الذي يملأ حياة الفارغين والفارغات في هذه الأيام . ويطغى أحياناً على الجادين والجادات بحكم الضجيج العام !

إنه عبث تصوير الموقف كما لو كان معركة حادة بين الجنسين ، تسجل فيه المواقف والانتصارات .. ولا يرتفع على هذا العبث محاولة بعض الكتاب الجادين تنقص « المرأة » وثلبها ، وإلصاق كل شائبة بها .. سواء كان ذلك باسم الإسلام او باسم البحث والتحليل .. فالمسألة ليست معركة على الإطلاق ! إنما هي تنويع وتوزيع . وتكامل . وعدل بعد ذلك كامل في منهج الله .

يجوز أن تكون هناك معركة في المجتمعات الجاهلية ؛ التي تنشيء أنظمتها من تلقاء

نفسها ؛ وفق هواها ومصالحها الظاهرة القريبة . أو مصالح طبقات غالبة فيها ، أو بيوت ، أو أفراد .. ومن ثم تنتقص من حقوق المرأة لأسباب من الجهالة بالإنسان كله ، وبوظيفة الجنسين في الحياة ، أو لأسباب من المصالح الاقتصادية في حرمان المرأة العاملة من مثل أجر الرجل العامل في نفس مهنتها . أو في توزيع الميراث ، أو حقوق التصرف في المال — كما هو الحال في المجتمعات الجاهلية الحديثة !

فأما في المنهج الإسلامي فلا .. لا ظل للمعركة . ولا معنى للتنافس على أعراض الدنيا . ولا طعم للحملة على المرأة أو الحملة على الرجل ؛ ومحاولة النيل من أحدهما ، وثلبه ، وتتبع نقائصه ! .. ولا مكان كذلك للظن بأن هذا التنوع في التكوين والخصائص ، لا مقابل له من التنوع في التكليف والوظائف ، ولا آثار له في التنوع في الاختصاصات والمراكز .. فكل ذلك عبث من ناحية وسوء فهم للمنهج الإسلامي ولحقيقة وظيفة الجنسين من ناحية !

وننظر في أمر الجهاد والاستشهاد ونصيب المرأة منه ومن ثوابه .. وهو ما كان يشغل بال الصالحات من النساء في الجيل الصالح ، الذي يتجه بكليته إلى الآخرة ؛ وهو يقوم بشئون هذه الدنيا .. وفي أمر الإرث ونصيب الذكر والأنثى منه . وقد كان يشغل بعض الرجال والنساء قديماً . وما يزال هو وأمثاله يشغل رجالا ونساء في هذه الأيام ..

إن الله لم يكتب على المرأة الجهاد ولم يحرمه عليها ؛ ولم يمنعها منه — حين تكون هناك حاجة إليها ، لا يسدها الرجال — وقد شهدت المغازي الإسلامية آحاداً من النساء — مقاتلات لا مواسيات ولا حاملات أزواد — وكان ذلك على قلة وندرة بحسب الحاجة والضرورة ؛ ولم يكن هو القاعدة .. وعلى أية حال ، فإن الله لم يكتب على المرأة الجهاد كما كتبه على الرجل .

إن الجهاد لم يكتب على المرأة ، لأنها تلد الرجال الذين يجاهدون . وهي مهيأة لميلاد الرجال بكل تكوينها ، العضوي والنفسي ؛ ومهيأة لإعدادهم للجهاد وللحياة سواء . وهي — في هذا الحقل — أقدر وأنفع .. هي أقدر لأن كل خلية في تكوينها معدة من الناحية العضوية والناحية النفسية لهذا العمل ، وليست المسألة في هذا مسألة التكوين العضوي الظاهر ، بل هي — وعلى وجه التحديد — كل خلية منذ تلقيح البويضة ، وتقرير أن تكون أنثى أو ذكر من لدن الخالق — سبحانه [1] — ثم يلي ذلك تلك الظواهر العضوية ، والظواهر النفسية الكبرى .. وهي أنفع — بالنظر الواسع إلى مصلحة الأمة على المدى الطويل — فالحرب حين

---

(١) يراجع فصل : « المرأة وعلاقات الجنسين » في كتاب « الإسلام ومشكلات الحضارة » .

تحصد الرجال وتستبقي الإناث ، تدع للأمة مراكز إنتاج للذرية تعوض الفراغ . والأمر ليس كذلك حين تحصد النساء والرجال – أو حتى حين تحصد النساء وتستبقي الرجـــال ! فرجل واحد – في النظام الإسلامي – وعند الحاجة إلى استخدام كل رخصـــه وإمكانياته – يمكن أن يجعل نساء أربعا ينتجن ، ويملأن الفراغ الذي تتركه القتلة بعد فترة من الزمان . ولكن ألف رجل لا يملكون أن يجعلوا امرأة تنتج أكثر مما تنتج من رجل واحد ، لتعويض ما وقع في المجتمع من اختلال. وليس ذلك إلا باباً واحدا من أبواب الحكمة الإلهية في إعفاء المرأة من فريضة الجهاد .. ووراءه أبواب شتى في أخلاق المجتمع وطبيعة تكوينه ، واستبقاء الخصائص الأساسية لكلا الجنسين ، لا يتسع لها المجال هنا ، لأنها تحتاج إلى بحث خاص [1] .. وأما الأجر والثواب ، فقد طمأن الله الرجال والنساء عليه ، فحسب كل إنسان أن يحسن فيما وكل إليه ليبلغ مرتبة الإحسان عند الله على الإطلاق ..

والأمر في الميراث كذلك .. ففي الوهلة الأولى يبدو أن هناك إيثاراً للرجل في قاعدة : « فللذكر مثل حظ الأنثيين » .. ولكن هذه النظرة السطحية لا تفتأ أن تكشف عن وحدة متكاملة في أوضاع الرجل والمرأة وتكاليفها .. فالغنم بالغرم ، قاعدة ثابتة متكاملة في المنهج الإسلامي .. فالرجل يؤدي للمرأة صداقها ابتداء ولا تؤدي هي له صداقـــاً . والرجل ينفق عليها وعلى أولادها منه ، وهي معفاة من هذا التكليف ، ولو كان لها مال خاص – وأقل ما يصيب الرجل من هذا التكليف أن يحبس فيه إذا ماطل !! – والرجل عليه في الديات والارث (التعويض عن الجراحات) متكافلاً مع الاسرة ، والمرأة منها معفاة . والرجل عليه في النفقة على المعسرين والعاجزين والعواجز عن الكسب في الاسرة – الأقرب فالأقرب – والمرأة معفاة من فريضة التكافل العائلي العام .. حتى أجر رضاع طفلها من الرجل وحضانته عنـــد افتراقها في المعيشة ، أو عند الطلاق ، يتحملها الرجل ، ويؤديها لها كنفقتها هي سواء بسواء.. فهو نظام متكامل توزيع التبعات فيه هو الذي يحدد توزيع الميراث . ونصيب الرجل مـــن التبعات أثقل من نصيبه في الميراث . ومنظور في هذا إلى طبيعته وقدرتـــه على الكسب ؛ وإلى توفير الراحة والطمأنينة الكاملة للمرأة ؛ لتقوم على حراسة الرصيد البشري الثمين ؛ الذي لا يقوّم بمال ، ولا يعدله إنتاج أية سلعة أو أية خدمة أخرى للصالح العام !

وهكذا نجد معالم التوازن الشامل ، والتقدير الدقيق في المنهج الإسلامي الحكيم ، الذي

---

(١) يراجع بتوسع فصل : « نظام عائلي » في كتاب « نحو مجتمع اسلامي » .

شرعه الحكيم العليم ..

ونسجل هنا ما منحه الإسلام للمرأة في هذا النص من حق الملكية الفردية :

« للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن » ..

وهو الحق الذي كانت الجاهلية العربية ـ كغيرها من الجاهليات القديمة ـ تحيف عليه ؛ ولا تعترف به للمرأة ـ إلا في حالات نادرة ـ ولا تفتأ تحتال للاعتداء عليه . إذ كانت المرأة ذاتها مما يستولى عليه بالوراثة ، كالمتاع !

وهو الحق الذي ظلت الجاهلية الحديثة ـ التي تزعم انها منحت المرأة من الحقوق والاحترام ما لم يمنحه لها منهج آخر ـ تتحيفه ؛ فبعضها يجعل الميراث لأكبر وارث من الذكور. وبعضها يجعل إذن الولي ضرورياً لتوقيع أي تعاقد للمرأة بشأن المال ؛ ويجعل إذن الزوج ضرورياً لكل تصرف مالي من الزوجة في مالها الخاص! وذلك بعد ثورات المرأة وحركاتها الكثيرة ؛ وما نشأ عنها من فساد في نظام المرأة كله ، وفي نظام الأسرة ، وفي الجو الأخلاقي العام .

فأما الإسلام فقد منحها هذا الحق ابتداء ؛ وبدون طلب منها ، وبدون ثورة ، وبدون جمعيات نسوية ؛ وبدون عضوية برلمان !! منحها هذا الحق تمشياً مع نظرته العامة إلى تكريم الانسان جملة ؛ وإلى تكريم شقي النفس الواحدة ؛ وإلى إقامة نظامه الاجتماعي كله على أساس الأسرة ؛ وإلى حياطة جو الأسرة بالود والمحبة والضمانات لكل فرد فيها على السواء .

ومن هنا كانت المساواة في حق التملك وحق الكسب بين الرجال والنساء من ناحية المبدأ العام .

وقد أورد الدكتور عبد الواحد وافي في كتاب « حقوق الإنسان » لفتة دقيقة إلى وضع المرأة في الإسلام ووضعها في الدول الغربية جاء فيه :

« وقد سوى الإسلام كذلك بين الرجل والمرأة أمام القانون ، وفي جميع الحقوق المدنية. سواء في ذلك المرأة المتزوجة وغير المتزوجة . فالزواج في الإسلام يختلف عن الزواج في معظم أمم الغرب المسيحي ، في أنه لا يفقد المرأة اسمها ولا شخصيتها المدنية ، ولا أهليتها في التعاقد ولا حقها في التملك . بل تظل المرأة المسلمة بعد زواجها محتفظة باسمها واسم اسرتها ، وبكامل حقوقها المدنية ؛ وبأهليتها في تحمل الالتزامات ، وإجراء مختلف العقود ، من بيع وشراء ورهن وهبة ووصية ، وما إلى ذلك ؛ ومحتفظة بحقها في التملك تملكاً مستقلا عن غيرها . فللمرأة المتزوجة في الإسلام شخصيتها المدنية الكاملة ، وثروتها الخاصة المستقلة عن شخصية زوجها وثروته . ولا يجوز للزوج أن يأخذ شيئاً من مالها ـ قل ذلك أو كثر ـ قال تعالى « وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج ، وآتيتم إحداهن قنطاراً فلا تأخذوا منه شيئاً .

أتأخذونه بهتاناً وإثماً مبيناً ؟ وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض ، وأخذن منكم ميثاقاً غليظاً ؟ » .. وقال : « ولا يحل لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئاً » .. وإذا كان لا يجوز للزوج أن يأخذ شيئاً مما سبق أن آتاه لزوجته فلا يجوز له من باب أولى أن يأخذ شيئاً من ملكها الأصيل إلا أن يكون هذا أو ذاك برضاها ، وعن طيب نفس منها . وفي هذا يقول الله تعالى : « وآتوا النساء صدقاتهن نحلة فإن طبن لكم عن شيء منه نفساً ، فكلوه هنيئاً مريئاً ». ولا يحل للزوج كذلك أن يتصرف في شيء من أموالها ، إلا إذا أذنت له بذلك ، أو وكلته في إجراء عقد بالنيابة عنها . وفي هذه الحالة يجوز أن تلغي وكالته ، وتوكل غيره إذا شاءت .

« وهذه المنزلة من المساواة لم يصل إلى مثلها — بعد — أحدث القوانين في أرقى الأمم الديمقراطية الحديثة . فحالة المرأة في فرنسا كانت إلى عهد قريب — بل لا تزال إلى الوقت الحاضر — أشبه شيء بحالة الرق المدني . فقد نزع منها القانون صفة الأهلية في كثير من الشئون المدنية ، كما تنص على ذلك المادة السابعة عشرة بعد المئتين من القانون المدني الفرنسي . إذ تقرر أن « المرأة المتزوجة — حتى ولو كان زواجها قائماً على أساس الفصل بين ملكيتها وملكية زوجها — لا يجوز لها أن تهب ، ولا أن تنقل ملكيتها ، ولا أن ترهن ، ولا أن تملك بعوض أو بغير عوض ، بدون اشتراك زوجها في العقد ، أو موافقته عليه موافقة كتابية ! » .. وأورد نصها الفرنسي ...

« ومع ما أدخل على هذه المادة من قيود وتعديلات ، فيما بعد ، فإن كثيراً من آثارها لا يزال ملازماً لوضع المرأة الفرنسية من الناحية القانونية إلى الوقت الحاضر .. وتوكيداً لهذا الرق المفروض على المرأة الغربية تقرر قوانين الأمم الغربية ، ويقضي عرفها ، أن المرأة بمجرد زواجها تفقد اسمها واسم أسرتها ؛ فلا تعود تسمى فلانة بنت فلان ؛ بل تحمل اسم زوجها وأسرته ؛ فتدعى « مدام فلان » أو تتبع اسمها باسم زوجها وأسرته ، بدلا من أن تتبعه باسم أبيها وأسرتها .. وفقدان اسم المرأة ، وحملها لاسم زوجها ، كل ذلك يرمز إلى فقدان الشخصية المدنية للزوجة ، واندماجها في شخصية الزوج . »

« ومن الغريب أن الكثير من سيداتنا يحاولن أن يتشبهن بالغربيات — حتى في هذا النظام الجائر — ويرتضين لأنفسهن هذه المنزلة الوضيعة ؛ فتسمي الواحدة منهن نفسها باسم زوجها ؛ أو تتبع اسمها باسم زوجها وأسرته ، بدلا من أن تتبعه باسم أبيها وأسرتها ، كما هو النظام الإسلامي ، وهذا هو أقصى ما يمكن أن تصل إليه المحاكاة العمياء ! وأغرب من

هذا كله أن اللاتي يحاكين هذه المحاكاة ، هن المطالبات بحقوق النساء ، ومساواتهن بالرجال ؛ ولا يدرين أنهن بتصرفهن هذا يفرطن في أهم حق منحه الإسلام لهن ، ورفع به شأنهن ، وسواهن فيه بالرجال » (ص ٥٩ ، ٦١) .

* * *

والآن نجيء إلى النص الأخير في هذه الفقرة ، وهو ينظم التصرف في عقود الولاء التي سبقت أحكام الميراث . هذه الأحكام التي حصرت الميراث في القرابة . بينما عقود الولاء كانت تجعلها كذلك في غير القرابة على ما سيأتي بيانه :

« ولكل جعلنا موالي مما ترك الوالدان والاقربون،والذين عقدت أيمانكم فآتوهم نصيبهم. إن الله كان على كل شيء شهيداً » .

بعد أن ذكر أن للرجال نصيباً مما اكتسبوا ، وللنساء نصيباً مما اكتسبن .. وبين — فيما سلف — أنصبة الذكور والإناث في الميراث .. ذكر أن الله جعل لكل موالي من قرابته يرثونه . يرثونه مما آل إليه من الوالدين والأقربين .. فالمال يظل يتداول بهذا الإرث جيلا بعد جيل . يرث الوارثون ثم يضمون إلى ميراثهم ما يكتسبون ؛ ثم يرثهم من يلونهم من الأقربين .. وهي صورة تمثل دورة المال في النظام الإسلامي ؛ وأنها لا تقف عند جيل ؛ ولا تتركز في بيت ولا فرد .. إنما هو التوارث المستمر ، والتداول المستمر ، وحركة التوزيع الدائبة ؛ وما يتبعها من تعديل في المالكين ، وتعديل في المقادير ، بين الحين والحين ..

ثم عطف على العقود ، التي أقرتها الشريعة الإسلامية ؛ والتي تجعل الإرث يذهب أحياناً إلى غير الأقرباء .. وهي عقود الموالاة .. وقد عرف المجتمع الإسلامي أنواعاً من هذه العقود :

الأول عقد ولاء العتق ، وهو النظام الذي يصبح بمقتضاه الرقيق — بعد عتقه — بمنزلة العضو في أسرة مولاه (مولى العتق) فيدفع عنه المولى الدية ، إذا ارتكب جناية توجب الدية — كما يفعل ذلك حيال أقربائه من النسب — ويرثه إذا مات ولم يترك عصبة ..

والثاني عقد الموالاة . وهو النظام الذي يبيح لغير العربي — إذا لم يكن له وارث من أقاربه — أن يرتبط بعقد مع عربي هو (مولى الموالاة) . فيصبح بمنزلة عضو في أسرة مولاه. يدفع عنه المولى الدية — إذا ارتكب جناية توجب الدية — ويرثه إذا مات ..

والنوع الثالث ، هو الذي عقده النبي — صلى الله عليه وسلم — أول العهد بالمدينة ، بين

المهاجرين والانصار . فكان المهاجر يرث الأنصاري ، مع أهله — كواحد منهم — أو دون أهله إن كانوا مشركين فصلت بينهم وبينه العقيدة ..

والنوع الرابع .. كان في الجاهلية ، يعاقد الرجل الرجل ، ويقول : « وترثني وأرثك » ..

وقد جعل الاسلام يصفي هذه العقود ؛ وبخاصة النوعين الثالث والرابع . بتقرير أن الميراث سببه القرابة . والقرابة وحدها . ولكنه لم يبطل العقود التي سبق عقدها فأمضاها على ألا يجدد سواها . وقال الله سبحانه :

« والذين عقدت أيمانكم فآتوهم نصيبهم »

وشدد في هذا وأشهد الله على العقد وعلى التصرف فيه :

« إن الله كان على كل شيء شهيدا » ..

وقال رسول الله ﷺ

« لا حلف في الإسلام . وأيما حلف كان في الجاهلية لم يزده الإسلام إلا شدة » (رواه أحمد ومسلم) .

وقد سار الإسلام في تصفية هذه العقود سيرته في كل ما يتعلق بالأنظمة المالية ، في علاجه لها — بدون أثر رجعي — فهكذا صنع في الربا حين أبطله . أبطله منذ نزول النص ، وترك لهم ما سلف منه ؛ ولم يأمر برد الفوائد الربوية . وإن كان لم يصحح العقود السابقة على النص ، ما لم يكن قد تم قبض تلك الفوائد . فأما هنا فقد احترم تلك العقود ؛ على ألا ينشأ منها جديد لما يتعلق بها — فوق الجانب المالي — من ارتباطات أخذت طابع العضوية العائلية بتشابكاتها الكثيرة المعقدة . فترك هذه العقود القائمة تنفذ ؛ وشدد في الوفاء بها ؛ وقطع الطريق على الجديد منها ؛ قبل أن تترتب عليه أية آثار تحتاج إلى علاج !

وفي هذا التصرف يبدو التيسير ، كما يبدو العمق والإحاطة والحكمة والشمول ، في علاج الأمور في المجتمع . حيث كان الإسلام يصوغ ملامح المجتمع المسلم يوماً بعد يوم ؛ ويمحو ويلغي ملامح الجاهلية في كل توجيه وكل تشريع [1] .

* * *

---

(١) في رواية عن ابن عباس في تفسير هذا النص ، أنه منع الوراثة الا للقرابة ، واستبقى للذين عقدت أيمانهم النصرة والرفادة والنصيحة .

والموضوع الأخير في هذا الدرس ، هو تنظيم مؤسسة الأسرة ؛ وضبط الامور فيها ؛ وتوزيع الاختصاصات ، وتحديد الواجبات ؛ وبيان الإجراءات التي تتخذ لضبط أمور هذه المؤسسة ؛ والمحافظة عليها من زعازع الاهواء والخلافات؛ واتقاء عناصر التهديم فيها والتدمير ، جهد المستطاع :

« الرجال قوامون على النساء ، بما فضل الله بعضهم على بعض ، وبما أنفقوا من أموالهم ، فالصالحات قانتات ، حافظات للغيب بما حفظ الله . واللاتي تخافون نشوزهن ، فعظوهن ، واهجروهن في المضاجع ، واضربوهن . فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا . إن الله كان عليا كبيرا . وإن خفتم شقاق بينهما ، فابعثوا حكما من أهله وحكما من أهلها ، إن يريدا إصلاحا يوفق الله بينهما . إن الله كان عليما خبيراً » ..

ولا بد – قبل الدخول في تفسير هذه النصوص القرآنية ، وبيان أهدافها النفسية والاجتماعية – من بيان مجمل لنظرة الإسلام إلى مؤسسة الأسرة ، ومنهجه في بنائها والمحافظة عليها ، وأهدافه منها .. بيان مجمل بقدر الإمكان ، اذ أن التفصيل فيه يحتاج إلى بحث مطول خاص [1] :

إن الذي خلق هذا الإنسان جعل من فطرته « الزوجية » شأنه شأن كل شيء خلقه في هذا الوجود : « ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون » ..

ثم شاء أن يجعل الزوجين في الإنسان شطرين للنفس الواحدة : « يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة ، وخلق منها زوجها » ..

وأراد بالتقاء شطري النفس الواحدة – بعد ذلك – فيما أراد ، أن يكون هذا اللقاء سكناً للنفس ، وهدوءاً للعصب ، وطمأنينة للروح ، وراحة للجسد .. ثم ستراً وإحصاناً وصيانة .. ثم مزرعة للنسل وامتداد الحياة ، مع ترقيها المستمر ، في رعاية المحضن الساكن الهادىء المطمئن المستور المصون :

« ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة » ..

« هن لباس لكم وأنتم لباس لهن » ..

« نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم ، وقدموا لأنفسكم ، واتقوا الله » ..

---

(١) يراجع بتوسع فصل : « نظام عائلي » في كتاب « نحو مجتمع اسلامي » ، وكتاب الحجاب وكتاب تفسير سورة النور للاستاذ ابو الأعلى المودودي امير الجماعة الإسلامية بباكستان .

« يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً وقودها الناس والحجارة » ..

« والذين آمنوا ، واتبعتهم ذريتهم بإيمان ، ألحقنا بهم ذريتهم ، وما ألتنـــاهم[1] من عملهم من شيء» ..

ومن تساوي شطري النفس الواحدة في موقفها من الله ، ومن تكريمه للانسان ، كان ذلك التكريم للمرأة ، وتلك المساواة في حقوق الأجر والثواب عند الله ، وفي حقوق التملك والإرث ، وفي استقلال الشخصية المدنية .. التي تحدثنا عنهــا في الصفحات السابقة من هذا الدرس .

ومن أهمية التقاء شطري النفس الواحدة ، لإنشاء مؤسسة الأسرة . ومن ضخامة تبعة هذه المؤسسة أولاً : في توفير السكن والطمأنينة والستر والإحصان للنفس بشطريها ، وثانياً : في إمداد المجتمع الإنساني بعوامل الامتداد والترقي .. كانت تلك التنظيمات الدقيقة المحكمة التي تتناول كل جزئية من شئون هذه المؤسسة .. وقد احتوت هذه السورة جانباً من هذه التنظيمات هو الذي استعرضناه في الصفحات السابقة من أول هذا الجزء ؛ تكملة لما استعرضناه منها في الجزء الرابع .. واحتوت سورة البقرة جانباً آخر ، هو الذي استعرضناه في الجزء الثـــاني . واحتوت سور أخرى من القرآن ، وعلى الأخص سورة النور في الجزء الثامن عشر وسورة الأحزاب في الجزئين الحادي والعشرين والثاني والعشرين وسورة الطلاق وسورة التحريم في الجزء الثامن والعشرين .. ومواضع اخرى متفرقة في السور ، جوانب أخرى تؤلف دستوراً كاملاً شاملاً دقيقاً لنظام هذه المؤسسة الإنسانية ، وتدل بكثرتها وتنوعها ودقتها وشمولها ، على مدى الأهمية التي يعقدها المنهج الإسلامي للحياة الإنسانية على مؤسسة الأسرة الخطيرة !

ونرجو أن يكون قارىء هذه الصفحة على ذكر مما سبق في صفحات هذا الجزء نفسه ؛ عن طفولة الطفل الإنساني ، وطولها ، وحاجته في خلالها إلى بيئة تحميه أولا حتى يستطيع أن يكسب رزقه للمعاش ؛ وأهم من هذا أن تؤهله ، بالتربية ، إلى وظيفته الاجتماعية ، والنهوض بنصيبه في ترقية المجتمع الإنساني ، وتركه خيراً مما تسلمه ، حين جاء إليه ! فهذا الكلام ذو أهمية خاصة في بيان قيمة مؤسسة الأسرة ، ونظرة المنهج الإسلامي إلى وظائفها ، والغــاية منها ؛ واهتمامه بصيانتها ، وحياطتها من كل عوامل التدمير من قريب ومن بعيد ..

وفي ظل هذه الإشارات المجملة إلى طبيعة نظرة الإسلام للأسرة وأهميتها ؛ ومدى حرصه

---

(١) نقصناهم .

على توفير ضمانات البقاء والاستقرار والهدوء في جوها .. إلى جانب ما أوردناه من تكريم هذا المنهج للمرأة، ومنحها استقلال الشخصية واحترامها؛ والحقوق التي أنشأها لها إنشاء — لا محاباة لذاتها ولكن لتحقيق أهدافه الكبرى من تكريم الإنسان كله ورفع الحياة الإنسانية — نستطيع أن نتحدث عن النص الأخير في هذا الدرس، الذي قدمنا الحديث عنه بهذا الإيضاح :

إن هذا النص — في سبيل تنظيم المؤسسة الزوجية وتوضيح الاختصاصات التنظيمية فيها لمنع الاحتكاك فيها بين أفرادها، بردهم جميعاً إلى حكم الله لا حكم الهوى والانفعالات والشخصيات ! — يحدد أن القوامة في هذه المؤسسة للرجل؛ ويذكر من أسباب هذه القوامة: تفضيل الله للرجل بمقومات القوامة، وما تتطلبه من خصائص ودربة، و.. تكليف الرجل الإنفاق على المؤسسة . وبناء على إعطاء القوامة للرجل، يحدد كذلك اختصاصات هذه القوامة في صيانة المؤسسة من التفسخ؛ وحمايتها من النزوات العارضة؛ وطريقة علاج هذه النزوات — حين تعرض — في حدود مرسومة — وأخيراً يبين الإجراءات — الخارجية — التي تتخذ عندما تفشل الاجراءات الداخلية، ويلوح شبح الخطر على المؤسسة، التي لا تضم شطري النفس الواحدة فحسب، ولكن تضم الفراخ الخضر، الناشئة في المحضن، المعرضة للبوار والدمار . فلننظر فيما وراء كل إجراء من هذه الإجراءات من ضرورة، ومن حكمة، بقدر ما نستطيع :

« الرجال قوامون على النساء . بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم » ..

إن الأسرة — كما قلنا — هي المؤسسة الأولى في الحياة الإنسانية . الأولى من ناحية أنها نقطة البدء التي تؤثر في كل مراحل الطريق . والأولى من ناحية الأهمية لأنها تزاول إنشاء وتنشئة العنصر الإنساني، وهو أكرم عناصر هذا الكون، في التصور الإسلامي .

وإذا كانت المؤسسات الأخرى الأقل شأناً، والأرخص سعراً : كالمؤسسات المالية والصناعية والتجارية .. وما إليها .. لا يوكل أمرها — عادة — إلا لأكفأ المرشحين لها؛ ممن تخصصوا في هذا الفرع علمياً، ودربوا عليه عملياً، فوق ما وهبوا من استعدادات طبيعية للادارة والقوامة ..

إذا كان هذا هو الشأن في المؤسسات الأقل شأناً والأرخص سعراً .. فأولى أن تتبع هذه القاعدة في مؤسسة الأسرة، التي تنشيء أثمن عناصر الكون .. العنصر الإنساني ..

والمنهج الرباني يراعي هذا . ويراعي به الفطرة، والاستعدادات الموهوبة لشطري النفس

لأداء الوظائف المنوطة بكل منها وفق هذه الاستعدادات ، كما يراعي به العدالة في توزيع الأعباء على شطري النفس الواحدة . والعدالة في اختصاص كل منها بنوع الأعباء المهيأ لها ، المعان عليها من فطرته واستعداداته المتميزة المتفردة ..

والمسلم به ابتداء أن الرجل والمرأة كلاهما من خلق الله . وأن الله – سبحانه – لا يريد ان يظلم أحداً من خلقه ، وهو يهيئه ويعده لوظيفة خاصة ، ويمنحه الاستعدادات اللازمة لإحسان هذه الوظيفة !

وقد خلق الله الناس ذكراً وأنثى .. زوجين على أساس القاعدة الكلية في بناء الكون .. وجعل من وظائف المرأة أن تحمل وتضع وترضع وتكفل ثمرة الاتصال بينها وبين الرجل.. وهي وظائف ضخمة أولا وخطيرة ثانياً . وليست هينة ولا يسيرة ، بحيث تؤدى بدون إعداد عضوي ونفسي وعقلي عميق غائر في كيان الأنثى ! فكان عـــدلا كذلك أن ينوط بالشطر الثاني – الرجـــل – توفير الحاجات الضرورية . وتوفير الحماية كذلك للأنثى ؛ كي تتفرغ لوظيفتها الخطيرة ؛ ولا يحمل عليها أن تحمل وتضع وترضع وتكفل .. ثم تعمـــل وتكد وتسهر لحماية نفسها وطفلها في آن واحد ! وكان عدلا كذلك أن يمنح الرجل من الخصائص في تكوينه العضوي والعصبي والعقلي والنفسي ما يعينه على أداء وظائفه هذه . وأن تمنح المرأة في تكوينها العضوي والعصبي والعقلي والنفسي ما يعينها على أداء وظيفتها تلك .

وكان هذا فعلا .. ولا يظلم ربك أحداً ..

ومن ثم زودت المرأة – زودت فيما به من الخصائص – بالرقة والعطف، وسرعة الانفعال والاستجابة العاجلة لمطالب الطفولة – بغـــير وعي ولا سابق تفكير – لأن الضرورات الإنسانية العميقة كلها – حتى في الفرد الواحد – لم تترك لأرجحة الوعي والتفكير وبطئه، بل جعلت الاستجابة لها غير إرادية ! لتسهل تلبيتها فوراً وفيما يشبه أن يكون قسراً . ولكنه قسر داخلي غير مفروض من الخارج ؛ ولذيذ ومستحب في معظم الأحيان كذلك ، لتكون الاستجابة سريعة من جهة ومريحة من جهة أخرى – مهما يكن فيهـــا من المشقة والتضحية ! صنع الله الذي أتقن كل شيء .

.. وهذه الخصائص ليست سطحية . بل هي غائرة في التكوين العضوي والعصبي والعقـــلي والنفسي للمرأة .. بل يقول كبار العلماء المختصين : إنها غائرة في تكوين كل خلية . لأنهـــا عميقة في تكوين الخلية الأولى ، التي يكون من انقسامها وتكاثرها الجنين، بكل خصائصه الأساسية !

وكذلك زود الرجل – فيما زود به من الخصائص – بالخشونة والصلابة ، وبطء الانفعال والاستجابة ؛ واستخدام الوعي والتفكير قبل الحركة والاستجابة . لأن وظائفه كلها من أول الصيد الذي كان يمارسه في أول عهده بالحياة إلى القتال الذي يمارسه دائماً لحماية الزوجة والأطفال . إلى تدبير المعاش .. إلى سائر تكاليفه في الحياة .. لأن وظائفه كلها تحتاج إلى قدر من التروي قبل الإقدام ؛ وإعمال الفكر ، والبطء في الاستجابة بوجه عام ! .. وكلها عميقة في تكوينه عمق خصائص المرأة في تكوينها ..

وهذه الخصائص تجعله أقدر على القوامة ، وأفضل في مجالها .. كما أن تكليفه بالإنفاق – وهو فرع من توزيع الاختصاصات – يجعله بدوره أولى بالقوامة ، لأن تدبير المعاش للمؤسسة ومن فيها داخل في هذه القوامة ، والإشراف على تصريف المال فيها أقرب إلى طبيعة وظيفته فيها ..

وهذان هما العنصران اللذان أبرزهما النص القرآني ، وهو يقرر قوامة الرجال على النساء في المجتمع الإسلامي .

قوامة لها أسبابها من التكوين والاستعداد . ولها أسبابها من توزيع الوظائف والاختصاصات . ولها أسبابها من العدالة في التوزيع من ناحية ، وتكليف كل شطر – في هذا التوزيع – بالجانب الميسر له ، والذي هو معان عليه من الفطرة .

وأفضليته في مكانها .. في الاستعداد للقوامة والدربة عليها .. والنهوض بها بأسبابها .. لأن المؤسسة لا تسير بلا قوامة – كسائر المؤسسات الأقل شأناً والأرخص سعراً – ولأن أحد شطري النفس البشرية مهيأ لها ، معان عليها ، مكلف تكاليفها . وأحد الشطرين غير مهيأ لها ، ولا معان عليها .. ومن الظلم أن يحملها ويحمل تكاليفها إلى جانب أعبائه الاخرى .. وإذا هو هيء لها بالاستعدادات الكامنة ، ودرب عليها بالتدريب العلمي والعملي ، فسد استعداده للقيام بالوظيفة الأخرى .. وظيفة الأمومة .. لأن لها هي الأخرى مقتضياتها واستعداداتها . وفي مقدمتها سرعة الانفعال وقرب الاستجابة . فوق الاستعدادات الغائرة في التكوين العضوي والعصبي ، وآثارها في السلوك والإستجابة !

إنها مسائل خطيرة . . أخطر من أن تتحكم فيها أهواء البشر .. وأخطر من أن تترك لهم يخبطون فيها خبط عشواء .. وحين تركت لهم ولأهوائهم في الجاهليات القديمة والجاهليات الحديثة ، هددت البشرية تهديداً خطيراً في وجودها ذاته ؛ وفي بقاء الخصائص الإنسانية ، التي تقوم بها الحياة الإنسانية وتتميز .

ولعل من الدلائل التي تشير بها الفطرة إلى وجودها وتحكمها ، ووجود قوانينها المتحكمة في بني الإنسان ، حتى وهم ينكرونها ويرفضونها ويتنكرون لها ..

لعل من هذه الدلائل ما أصاب الحياة البشرية من تخبط وفساد ، ومن تدهور وانهيار ، ومن تهديد بالدمار والبوار ، في كل مرة خولفت فيها هذه القاعدة . فاهتزت سلطة القوامة في الأسرة . أو اختلطت معالمها . أو شذت عن قاعدتها الفطرية الأصيلة !

ولعل من هذه الدلائل توقان نفس المرأة ذاتها إلى قيام هذه القوامة على أصلها الفطري في الأسرة . وشعورها بالحرمان والنقص والقلق وقلة السعادة ، عندما تعيش مع رجل ، لا يزاول مهام القوامة ، وتنقصه صفاتها اللازمة ، فيكل إليها هي القوامة ! وهي حقيقة ملحوظة تسلم بها حتى المنحرفات الخابطات في الظلام !

ولعل من هذه الدلائل أن الأطفال — الذين ينشأون في مؤسسة عائلية القوامة فيها ليست للأب . إما لأنه ضعيف الشخصية ، بحيث تبرز عليه شخصية الأم وتسيطر . وإما لأنه مفقود : لوفاته — أو لعدم وجود أب شرعي ! — قلما ينشأون أسوياء . وقل ألا ينحرفوا إلى شذوذ ما ، في تكوينهم العصبي والنفسي ، وفي سلوكهم العملي والخلقي ..

فهذه كلها بعض الدلائل ، التي تشير بها الفطرة إلى وجودها وتحكمها ، ووجود قوانينها المتحكمة في بني الإنسان ، حتى وهم ينكرونها ويرفضونها ويتنكرون لها !

ولا نستطيع أن نستطرد أكثر من هذا ـ في سياق الظلال ـ عن قوامة الرجال ومقوماتها ومبرراتها ، وضرورتها وفطريتها كذلك .. ولكن ينبغي أن نقول : إن هذه القوامة ليس من شأنها إلغاء شخصية المرأة في البيت ولا في المجتمع الإنساني ، ولا إلغاء وضعها « المدني » — كما بينا ذلك من قبل — وإنما هي وظيفة — داخل كيان الأسرة — لإدارة هذه المؤسسة الخطيرة ، وصيانتها وحمايتها . ووجود القيم في مؤسسة ما ، لا يلغي وجود ولا شخصية ولا حقوق الشركاء فيها ، والعاملين في وظائفها . فقد حدد الإسلام في مواضع أخرى صفة قوامة الرجل وما يصاحبها من عطف ورعاية ، وصيانة وحماية ، وتكاليف في نفسه وماله ، وآداب في سلوكه مع زوجه وعياله[1] .

* * *

وبعد بيان واجب الرجل وحقه والتزاماته وتكاليفه في القوامة ، يجيء بيان طبيعة المرأة

---

(١) ولزيادة الايضاح في جميع المسائل التي تناولتها هذه الفقرة من الموضوع يراجع : فصل « مجتمع =

المؤمنة الصالحة وسلوكها وتصرفها الإيماني في محيط الأسرة :

« فالصالحات قانتات ، حافظات للغيب بما حفظ الله » : .

فمن طبيعة المؤمنة الصالحة ، ومن صفتها الملازمة لها ، بحكم إيمانها وصلاحها ، أن تكون.. قانتة .. مطيعة . والقنوت : الطاعة عن إرادة وتوجه ورغبة ومحبة ، لا عن قسر وإرغام وتفلت ومعاظلة ! ومن ثم قال : قانتات . ولم يقل طائعات. لأن مدلول اللفظ الأول نفسي، وظلاله رخية ندية .. وهذا هو الذي يليق بالسكن والمودة والستر والصيانة بين شطري النفس الواحدة . في المحضن الذي يرعى الناشئة ، ويطبعهم بجوه وأنفاسه وظلاله وإيقاعاته !

ومن طبيعة المؤمنة الصالحة ، ومن صفتها الملازمة لها ، بحكم إيمانها وصلاحها كذلك ، أن تكون حافظة لحرمة الرباط المقدس بينها وبين زوجها في غيبته — وبالأولى في حضوره — فلا تبيح من نفسها في نظرة أو نبرة — بله العرض والحرمة — مالا يباح إلا له هو — بحكم أنه الشطر الآخر للنفس الواحدة .

وما لا يباح ، لا تقرره هي ، ولا يقرره هو : إنما يقرره الله سبحانه :

« بما حفظ الله » ..

فليس الأمر أمر رضاء الزوج عن أن تبيح زوجته من نفسها — في غيبته أو في حضوره — مالا يغضب هو له . أو ما يمليه عليه وعليها المجتمع ! إذا انحرف المجتمع عن منهج الله .

إن هنالك حكما واحداً في حدود هذا الحفظ ؛ فعليها أن تحفظ نفسها « بما حفظ الله».. والتعبير القرآني لا يقول هذا بصيغة الأمر . بل بما هو أعمق وأشد توكيداً من الأمر . إنه يقول : إن هذا الحفظ بما حفظ الله ، وهو من طبيعة الصالحات ، ومن مقتضى صلاحهن !

وعندئذ تتهاوى كل أعذار المهزومين والمهزومات من المسلمين والمسلمات ، أمام ضغط المجتمع المنحرف . وتبرز حدود ما تحفظه الصالحات بالغيب : « بما حفظ الله » مع القنوت الطائع الراضي الودود ..

فأما غير الصالحات .. فهن الناشزات . (من الوقوف على النشز وهو المرتفع البارز من الأرض) وهي صورة حسية للتعبير عن حالة نفسية. فالناشز تبرز وتستعلي بالعصيان والتمرد.

= عائلي » في كتاب « نحو مجتمع اسلامي » وفصل : « المرأة وعلاقات الجنسين) في كتاب : (الاسلام ومشكلات الحضارة) ، وكتاب (« الحجاب)، وكتاب (« تفسير سورة النور) للأستاذ المودودي . وكتاب (الاسرة والمجتمع) ، وكتاب ، (حقوق الانسان) للدكتور علي عبد الواحد وافي . وكتاب (الانسان بين المادية والاسلام) لمحمد قطب ..

والمنهج الإسلامي لا ينتظر حتى يقع النشوز بالفعل ، وتعلن راية العصيان ، وتسقط مهابة القوامة ، وتنقسم المؤسسة إلى معسكرين .. فالعلاج حين ينتهي الامر إلى هذا الوضع قلما يجدي. ولا بد من المبادرة في علاج مبادىء النشوز قبل استفحاله. لأن مآله إلى فساد في هذه المنظمة الخطيرة ، لا يستقر معه سكن وطمأنينة ، ولا تصلح معه تربية ولا إعداد للناشئين في المحضن الخطير . ومآله بعد ذلك إلى تصدع وانهيار ودمار للمؤسسة كلها ؛ وتشرد الناشئين فيها ؛ أو تربيتهم بين عوامل هدامة مفضية إلى الأمراض النفسية والعصبية والبدنية . . . وإلى الشذوذ ..

فالأمر إذن خطير . ولا بد من المبادرة باتخاذ الإجراءات المتدرجة في علاج علامات النشوز منذ أن تلوح من بعيد . . وفي سبيل صيانة المؤسسة من الفساد ، أو من الدمار ، أبيح للمسئول الأول عنها أن يزاول بعض أنواع التأديب المصلحة في حالات كثيرة . . لا للانتقام ، ولا للاهانة ، ولا للتعذيب . . ولكن للاصلاح ورأب الصدع في هذه المرحلة المبكرة من النشوز :

« واللاتي تخافون نشوزهن ، فعظوهن . واهجروهن في المضاجع . واضربوهن . فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا . إن الله كان علياً كبيرا » ..

واستحضار ما سبق لنا بيانه من تكريم الله للانسان بشطريه . ومن حقوق للمرأة نابعة من صفتها الإنسانية . ومن احتفاظ للمرأة المسلمة بشخصيتها المدنية بكامل حقوقها .. بالإضافة إلى أن قوامة الرجل عليها لا تفقدها حقها في اختيار شريك حياتها ؛ والتصرف في أمر نفسها والتصرف في أمر مالها ... إلى آخر هذه المقومات البارزة في المنهج الإسلامي ..

استحضار هذا الذي سبق كله ؛ واستحضار ما قيل عن أهمية مؤسسة الأسرة كذلك . . يجعلنا نفهم بوضوح — حين لا تنحرف القلوب بالهوى والرؤوس بالكبر ! — لماذا شرعت هذه الإجراءات التأديبية أولا . والصورة التي يجب أن تؤدى بها ثانياً . .

إنها شرعت كإجراء وقائي — عند خوف النشوز — للمبادرة بإصلاح النفوس والأوضاع ، لا لزيادة إفساد القلوب ، وملئها بالبغض والحنق ، أو بالمذلة والرضوخ الكظيم ! .

إنها . . أبداً ... ليست معركة بين الرجل والمرأة . يراد لها بهذه الإجراءات تحطيم رأس المرأة حين تهم بالنشوز ؛ وردها إلى السلسلة كالكلب المسعور ! . . .

إن هذا قطعاً .. ليس هو الإسلام . إنما هو تقاليد بيئية في بعض الأزمان . نشأت مع هوان « الإنسان » كله . لا هوان شطر منه بعينه .. فأما حين يكون هو الإسلام ، فالأمر

مختلف جداً في الشكل والصورة . وفي الهدف والغاية ..

« واللاتي تخافون نشوزهن فعظوهن » ..

هذا هو الإجراء الأول .. الموعظة .. وهذا هو أول واجبات القيم ورب الاسرة . عمل تهذيبي . مطلوب منه في كل حالة : « يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا ، وقودها الناس والحجارة » .. ولكنه في هذه الحالة بالذات ، يتجه اتجاهاً معيناً لهدف معين . هو علاج أعراض النشوز قبل أن تستفحل وتستعلن .

ولكن العظة قد لا تنفع . لأن هناك هوى غالباً ، أو انفعالاً جامحاً، أو استعلاء بجمال . أو بمال . أو بمركز عائلي .. أو بأي قيمة من القيم . تنسى الزوجة أنها شريكة في مؤسسة ، وليست نداً في صراع أو مجال افتخار ! .. هنا يجيء الإجراء الثاني .. حركة استعلاء نفسية من الرجل على ما تدل به المرأة من جمال وجاذبية أو قيم أخرى ، ترفع بها ذاتها عن ذاته ، أو عن مكان الشريك في مؤسسة عليها قوامة .

« واهجروهن في المضاجع » ..

والمضجع موضع الإغراء والجاذبية ، التي تبلغ فيها المرأة الناشز المتعالية قمة سلطانها . فإذا استطاع الرجل أن يقهر دوافعه تجاه هذا الإغراء ، فقد أسقط من يد المرأة الناشز أمضى اسلحتها التي تعتز بها . وكانت — في الغالب — اميل إلى التراجع والملاينة ، امام هذا الصمود من رجلها ، وامام بروز خاصية قوة الإرادة والشخصية فيه ، في أحرج مواضعها !.. على أن هناك أدباً معيناً في هذا الإجراء .. إجراء الهجر في المضاجع .. وهو ألا يكون هجراً ظاهراً في غير مكان خلوة الزوجين .. لا يكون هجرا أمام الأطفال ، يورث نفوسهم شراً وفساداً.. ولا هجرا أمام الغرباء يذل الزوجة او يستثير كرامتها ، فتزداد نشوزاً . فالمقصود علاج النشوز لا إذلال الزوجة ؛ ولا إفساد الأطفال ! . . وكلا الهدفين يبدو انه مقصود من هذا الإجراء .

ولكن هذه الخطوة قد لا تفلح كذلك.. فهل تترك المؤسسة تتحطم؟إن هناك إجراء! — ولو أنه اعنف — ولكنه أهون واصغر من تحطيم المؤسسة كلها بالنشوز :

« واضربوهن » ..

واستصحاب المعاني السابقة كلها ؛ واستصحاب الهدف من هذه الإجرءات كلها يمنع أن يكون هذا الضرب تعذيباً للانتقام والتشفي . ويمنع ان يكون إهانة للاذلال والتحقير . ويمنع ان يكون ايضاً للقسر والإرغام على معيشة لا ترضاها .. ويحدد أن يكون ضرب تأديب ،

مصحوب بعاطفة المؤدب المربي ؛ كما يزاوله الاب مع أبنائه وكما يزاوله المربي مع تلميذه ..

ومعروف — بالضرورة — أن هذه الإجراءات كلها لا موضع لها في حالة الوفاق بين الشريكين في المؤسسة الخطيرة . وإنما هي لمواجهة خطر الفساد والتصدع. فهي لا تكون إلا وهناك انحراف ما . هو الذي تعالجه هذه الإجراءات ..

وحين لا تجدي الموعظة ، ولا يجدي الهجر في المضاجع.. لا بد ان يكون هذا الانحراف من نوع آخر ، ومن مستوى آخر ، لا تجدي فيه الوسائل الأخرى .. وقد تجدي فيه هذه الوسيلة !

وشواهد الواقع ، والملاحظات النفسية ، على بعض أنواع الانحراف ، تقول : إن هذه الوسيلة تكون انسب الوسائل لإشباع انحراف نفسي معين ، وإصلاح سلوك صاحبه .. وإرضائه .. في الوقت ذاته !

على أنه من غير أن يكون هناك هذا الانحراف المرضي ، الذي يعينه علم النفس التحليلي بالاسم ، إذ نحن لا نأخذ تقريرات علم النفس مسلمات « علمية » ، فهو لم يصبح بعد « علماً » بالمعنى العلمي ، كما يقول الدكتور « الكسيس كاريل » ، فربما كان من النساء من لا تحس قوة الرجل الذي تحب نفسها أن تجعله قيما وترضى به زوجاً ، إلا حين يقهرها عضلياً ! وليست هذه طبيعة كل امرأة . ولكن هذا الصنف من النساء موجود . وهو الذي قد يحتاج إلى هذه المرحلة الأخيرة .. ليستقيم . ويبقى على المؤسسة الخطيرة .. في سلم وطمأنينة !

وعلى أية حال ، فالذي يقرر هذه الإجراءات ، هو الذي خلق . وهو أعلم بمن خلق . وكل جدال بعد قول العليم الخبير مهاترة ، وكل تمرد على اختيار الخالق وعدم تسليم به ، مفض إلى الخروج من مجال الإيمان كله ..

وهو — سبحانه — يقررها ، في جو وفي ملابسات تحدد صفتها ، وتحدد النية المصاحبة لها ، وتحدد الغاية من ورائها . بحيث لا يحسب على منهج الله تلك المفهومات الخاطئة للناس في عهود الجاهلية ، حين يتحول الرجل جلاداً — بأسم الدين ! — وتتحول المرأة رقيقاً — باسم الدين ! — أو حين يتحول الرجل امرأة ، وتتحول المرأة رجلاً ، أو يتحول كلاهما إلى صنف ثالث مائع بين الرجل والمرأة — باسم التطور في فهم الدين — فهذه كلها أوضاع لا يصعب تمييزها عن الإسلام الصحيح ومقتضياته في نفوس المؤمنين !

وقد أبيحت هذه الإجراءات لمعالجة أعراض النشوز — قبل استفحالها — وأحيطت بالتحذيرات من سوء استعمالها ، فور تقريرها وإباحتها . وتولى الرسول — صلى الله عليه

وسلم ــ بسنته العملية في بيته مع أهله، وبتوجيهاته الكلامية علاج الغلو هنا وهناك ، وتصحيح المفهومات في أقوال كثيرة :

ورد في السنن والمسند : عن معاوية بن حيدة القشيري ، أنه قال : يا رسول الله ما حق امرأة أحدنا عليه ؟ قال : « ان تطعمها إذا طعمت ، وتكسوها إذا اكتسيت . ولا تضرب الوجه . ولا تقبح ، ولا تهجر إلا في البيت » ..

وروى أبو داود والنسائي وابن ماجه : قال النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ « لا تضربوا إماء الله » .. فجاء عمر ــ رضي الله عنه ــ إلى رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ فقال : ذئرت النساء على أزواجهن ! فرخص رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ في ضربهن . فأطاف بآل رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ نساء كثير يشتكين أزواجهن ! فقال رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ « لقد أطاف بآل محمد نساء كثير يشتكين من أزواجهن .. ليس أولئك بخياركم » !!

وقال ــ صلى الله عليه وسلم ــ « لا يضرب أحدكم امرأته كالعير يجلدها أول النهار . ثم يضاجعها آخره » [1] .

وقال : « خيركم خيركم لأهله . وأنا خيركم لأهلي » [2] ..

ومثل هذه النصوص والتوجيهات ؛ والملابسات التي أحاطت بها ؛ ترسم صورة لصراع الرواسب الجاهلية مع توجيهات المنهج الإسلامي ، في المجتمع المسلم ، في هذا المجال . وهي تشبه صورة الصراع بين هذه الرواسب وهذه التوجيهات في شتى مجالات الحياة الأخرى . قبل أن تستقر الأوضاع الإسلامية الجديدة ، وتعمق جذورها الشعورية في أعماق الضمير المسلم في المجتمع الإسلامي ..

وعلى أية حال فقد جعل لهذه الإجراءات حد تقف عنده ــ متى تحققت الغاية ــ عند مرحلة من مراحل هذه الإجراءات . فلا تتجاوز إلى ما وراءها :

« فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلاً » ..

فعند تحقق الغاية تقف الوسيلة . مما يدل على أن الغاية ــ غاية الطاعة ــ هي المقصودة . وهي طاعة الاستجابة لا طاعة الإرغام . فهذه ليست طاعة تصلح لقيام مؤسسة الأسرة ، قاعدة الجماعة .

---

(١) عن أبي هريرة . ذكره صاحب مصابيح السنة في الصحاح .

(٢) رواه الترمذي والطبراني .

ويشير النص إلى أن المضي في هذه الإجراءات بعد تحقق الطاعة بغي وتحكم وتجاوز .

« فلا تبغوا عليهن سبيلًا » ..

ثم يعقب على هذا النهي بالتذكير بالعلي الكبير .. كي تطامن القلوب ، وتعنو الرؤوس، وتتبخر مشاعر البغي والاستعلاء إن طافت ببعض النفوس: على طريقة القرآن في الترغيب والترهيب .

« إن الله كان عليا كبيرا » ...

* * *

ذلك حين لا يستعلن النشوز ، وإنما تتقى بوادره . فأما إذا كان قد استعلن ، فلا تتخذ تلك الإجراءات التي سلفت . إذ لا قيمة لها إذن ولا ثمرة . وإنما هي إذن صراع وحرب بين خصمين ليحطم أحدهما رأس الآخر ! وهذا ليس المقصود ، ولا المطلوب .. وكذلك إذا رئي أن استخدام هذه الاجراءات قد لا يجدي ، بل سيزيد الشقة بعداً ، والنشوز استعلانا؛ ويمزق بقية الخيوط التي لا تزال مربوطة. أو إذا أدى استخدام تلك الوسائل بالفعل إلى غير نتيجة .. في هذه الحالات كلها يشير المنهج الإسلامي الحكيم بإجراء أخير ؛ لإنقاذ المؤسسة العظيمة من الانهيار . قبل أن ينفض يديه منها ويدعها تنهار :

« وإن خفتم شقاق بينهما ، فابعثوا حكماً من أهله وحكماً من أهلها . إن يريدا إصلاحاً يوفق الله بينهما . إن الله كان عليما خبيرا » ..

وهكذا لا يدعو المنهج الإسلامي إلى الإستسلام لبوادر النشوز والكراهيـة ؛ ولا إلى المسارعة بفصم عقدة النكاح، وتحطيم مؤسسة الأسرة على رؤوس من فيها من الكبار والصغار – الذين لا ذنب لهم ولا يد ولا حيلة – فمؤسسة الأسرة عزيزة على الإسلام ؛ بقدر خطورتها في بناء المجتمع ، وفي إمداده باللبنات الجديدة ، اللازمة لنموه ورقيه وامتداده .

إنه يلجأ إلى هذه الوسيلة الأخيرة – عند خوف الشقاق – فيبادر قبل وقوع الشقاق فعلًا .. يبعث حكم من أهلها ترتضيه ، وحكم من أهله يرتضيه . يجتمعان في هـدوء . بعيدين عن الانفعالات النفسية ، والرواسب الشعورية، والملابسات المعيشية ، التي كدرت صفو العلاقات بين الزوجين . طليقين من هذه المؤثرات التي تفسد جو الحياة ، وتعقـد الأمور ، وتبدو – لقربها من نفسي الزوجين – كبيرة تغطي على كل العوامـل الطيبة الاخرى في حياتهما . حريصين على سمعة الأسرتين الأصليتين . مشفقين على الأطفال الصغار . بريئين من

الرغبة في غلبة أحدهما على الآخر - كما قد يكون الحال مع الزوجين في هذه الظروف - راغبين في خير الزوجين وأطفالهما ومؤسستهما المهددة بالدمار .. وفي الوقت ذاته هما مؤتمنان على أسرار الزوجين، لأنهما من أهلهما : لا خوف من تشهيرهما بهذه الأسرار. إذ لا مصلحة لهما في التشهير بها ، بل مصلحتهما في دفنها ومداراتها !

يجتمع الحكمان لمحاولة الإصلاح . فإن كان في نفسي الزوجين رغبة حقيقية في الإصلاح، وكان الغضب فقط هو الذي يحجب هذه الرغبة ، فإنه بمساعدة الرغبة القوية في نفس الحكمين، يقدر الله الصلاح بينهما والتوفيق :

« إن يريد إصلاحاً يوفق الله بينهما » ..

فهما يريدان الاصلاح والله يستجيب لهما ويوفق ..

وهذه هي الصلة بين قلوب الناس وسعيهم ، ومشيئة الله وقدره .. إن قدر الله هو الذي يحقق ما يقع في حياة الناس . ولكن الناس يملكون أن يتجهوا وأن يحاولوا ؛ وبقدر الله - بعد ذلك - يكون ما يكون .

ويكون عن علم بالسرائر وعن خبرة بالصوالح :

« إن الله كان عليما خبيرا » .

وهكذا نرى - في هذا الدرس - مدى الجدية والخطورة في نظرة الاسلام الى المرأة وعلاقات الجنسين ومؤسسة الأسرة ، وما يتصل بها من الروابط الاجتماعية .. ونرى مدى اهتمام المنهج الاسلامي بتنظيم هذا الجانب الخطير من الحياة الانسانية . ونطلع على نماذج من الجهد الذي بذله هذا المنهج العظيم ، وهو يأخذ بيد الجماعة المسلمة - التي التقطها من سفح الجاهلية - في المرتقى الصاعد إلى القمة السامقة على هدى الله . الذي لا هدى سواه ..

« وَٱعْبُدُوا ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً ، وَبِٱلْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً ، وَبِذِي ٱلْقُرْبَى ، وَٱلْيَتَامَى وَٱلْمَسَاكِينِ ، وَٱلْجَارِ ذِي ٱلْقُرْبَى ، وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ ، وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنْبِ ، وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ . إِنَّ ٱللَّهَ لَا

يحب من كان مختالا فخوراً (٣٧) الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ، ويكتمون ما آتاهم الله من فضله ، وأعتدنا للكافرين عذاباً مهيناً (٣٨) والذين ينفقون أموالهم رئاء الناس ولا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر . ومن يكن الشيطان له قريناً فساء قريناً ! (٣٩) وماذا عليهم لو آمنوا بالله واليوم الآخر ، وأنفقوا مما رزقهم الله ؟ وكان الله بهم عليماً (٤٠) إن الله لا يظلم مثقال ذرة ، وإن تك حسنة يضاعفها ، ويؤت من لدنه أجراً عظيماً (٤١) فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد ، وجئنا بك على هؤلاء شهيداً (٤٢) يومئذ يود الذين كفروا وعصوا الرسول لو تسوى بهم الأرض ، ولا يكتمون الله حديثاً . »

« يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة ، وأنتم سكارى ، حتى تعلموا ما تقولون ولا جنباً — إلا عابري سبيل — حتى تغتسلوا ، وإن كنتم مرضى ، أو على سفر ، أو جاء أحد منكم من الغائط ، أو لامستم النساء ، فلم تجدوا ماء — فتيمموا صعيداً طيباً ، فامسحوا بوجوهكم وأيديكم ، إن الله كان عفواً غفوراً » .

هناك أكثر من مناسبة واحدة ، تربط بين مطلع هذا الدرس ، وبين محور السورة كلها ، وموضوعاتها الأساسية من ناحية ؛ وبينه وبين موضوعات الدرس السابق في هذا الجزء من ناحية أخرى .

فهذا الدرس بدء جولة في تنظيم حيـــاة المجتمع المسلم ؛ وتخليصه من رواسب الجاهلية ؛ وتثبيت الملامح الإسلامية الجديدة ؛ والتحذير من أهل الكتاب ـ وهم اليهود بالمدينة ـ وما جبلوا عليه من شر ونكر ، وما يتلقونه في المجتمع المسلم ، وما يبذلونه من جهود لتعويق نموه وتكامله ـ وبخاصة من الناحية الأخلاقية ، وناحية التكافل والتعاون ، اللتين هما موضع القوة النامية في هذا المجتمع الجديد .

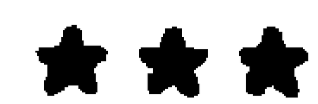
ولأن الدرس الجديد جولة جديدة ، فقد بدأ بالقاعدة الأولية التي يقوم عليها المجتمع المسلم ـ قاعدة التوحيد الخالص ـ التي تنبثق منها حياته ، وينبثق منها منهج هذه الحياة ، في كل جانب ، وفي كل اتجاه .

وقد سبق هذا الدرس أشواط منوعة في التنظيم العائلي ، والتنظيم الاجتماعي . وكان الحديث في الدرس السابق عن الاسرة وتنظيمها ووسائل صيانتها ، والروابط التي تشدهـــا وتوثق بناءها .. فجاء هذا الدرس يتناول علاقات إنسانية ـ في المجتمع المسلم ـ أوسع مدى من علاقات الأسرة ، ومتصلة بها كذلك . متصلة بها بالحديث عن الوالدين . ومتصـــلة بها في توسعها بعد علاقة الوالدين ، لتشمل علاقات أخرى ، ينبع الشعور بهـــا من المشاعر الودود الطيبة التي تنشأ في جو الأسرة المتحابة ، حتى تفيض على جوانب الانسانية الاخرى، ويتعلمها الانسان ـ أول ما يتعلمها ـ في جو الاسرة الحاني وحضنها الرفيق . ومن هناك يتوسع في علاقاته بأسرة الإنسانية كلها ، بعد ما بذرت بذورها في حسه أسرته الخاصة القريبة .

ولأن في الدرس الجديد توجيهات الى رعاية الأسرة القريبة ـ العائلة ـ والأسرة الكبيرة ـ الانسانية ـ وإقامة قيم وموازين في هذا الحقل ، للباذلين وللباخلين .. فقد ابتدأ الدرس بالقاعدة الأساسية التي تنبثق منها كل القيم والموازين ـ كما ينبثق منها منهج الحياة كله في المجتمع المسلم ـ وهي قاعدة التوحيد .. وربط كل حركة وكل نشاط، وكل خالجة وكل انفعال بمعنى العبادة لله . التي هي غاية كل نشاط إنساني ، في ضمير المسلم وفي حياته ..

وبسبب من الحديث عن عبادة الله وحده ـ في محيطها الشامل ـ جاءت الفقرة الثانية في الدرس ، تبين بعض أحكام الصلاة والطهارة ، وتتخذ خطوة في طريق تحريم الخمر ـ ولم تكن قد حرمت بعد ـ باعتبار هذه الخطوة جزءاً من برنامج التربية الاسلامية العامة الدائبة الخطى في المجتمع الوليد . وباعتبار علاقتها بالعبادة والصلاة والتوحيد ..

حلقات متماسكة بعضها مع بعض . ومع الدرس السابق . ومع محور السورة كذلك .



« واعبدوا الله ولا تشركوا بـه شيئاً . وبالوالدين إحسانا ، وبذي القربى واليتامى والمساكين ، والجار ذي القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب ، وابن السبيل ، وماملكت أيمانكم .. إن الله لا يحب من كان مختالا فخورا ، الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ، ويكتمون ما آتاهم الله من فضله . وأعتدنا للكافرين عذاباً مهيناً ، والذين ينفقون أموالهم رئاء الناس ، ولا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر . ومن يكن الشيطان له قرينا فساء قرينا ! وماذا عليهم لو آمنوا بالله واليوم الآخر وأنفقوا مما رزقهم الله،وكان الله بهم عليما.إن الله لا يظلم مثقال ذرة ، وإن تك حسنة يضاعفها ، ويؤت من لدنه أجراً عظيماً . فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد ، وجئنا بك على هولاء شهيداً ؟ يومئذ يود الذين كفروا وعصوا الرسول لو تسوى بهم الأرض ، ولا يكتمون الله حديثاً » ..

هذه الفقرة تبدأ بالأمر بعبادة الله وحـده ؛ والنهي عن إشراك شيء به .. تبدأ بحرف عطف يربط بين هذا الأمر ، وهذا النهي ، والأوامر السابقة الخاصة بتنظيم الأسرة في أواخر الدرس الماضي . فيدل هذا الربط بين الموضوعين على الوحدة الكلية الشاملة المتكاملة في هـذا الدين . فليس هو مجرد عقيدة تستكن في الضمير ، ولا مجرد شعائر تقام وعبادات ، ولا مجرد تنظيم دنيوي منقطع الصلة بالعقيدة وبالشعائر التعبدية .. إنما هو منهج يشمل هذا النشاط كله ، ويربط بـين جوانبه ، ويشدها جميعاً إلى الأصل الأصيل . وهو توحيد الله . والتلقي منـه وحده – في هذا النشاط كله – دون سواه . توحيده إلهاً معبوداً . وتوحيده مصدراً للتوجيه والتشريع لكل النشاط الإنساني أيضاً . لا ينفك هذا التوحيد عن ذاك – في الإسلام – وفي دين الله الصحيح على الإطلاق .

ويلي الأمر بالتوحيد والنهي عن الشرك ، الأمر بالإحسان إلى تلك المجموعـات من الأسرة الخاصة ، والأسرة الإنسانية ، وتقبيح البخل والخيلاء والفخر وأمر الناس بالبخل ، وكتمان فضل الله – من أي نوع سواء كان من المال أم من العلم والدين – والتحذير من اتباع الشيطان ، والتلويح بعذاب الآخرة،وما فيه من خزي وافتضاح .. لربط هذا كله بالتوحيد، وتحديد المصدر الذي يتلقى منه من يعبد الله ولا يشرك به شيئاً . وهو مصدر كذلك واحد لا يتعدد ولا يشاركه أحد في التوجيه والتشريع ، كما لا يشاركه أحد في الألوهية وعبادة الناس له بلا شريك .

« واعبدوا الله ولا تشركوا بـه شيئاً . وبالوالدين إحساناً . وبذي القربى واليتامى والمساكين ، والجار ذي القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب . وابن السبيل ، وما ملكت

أيمانكم ...».

إن التشريعات والتوجيهات – في منهج الله – إنما تنبثق كلها من أصل واحد، وترتكز على ركيزة واحدة. إنها تنبثق من العقيدة في الله، وترتكز على التوحيد المطلق سمة هذه العقيدة.. ومن ثم يتصل بعضها ببعض، ويتناسق بعضها مع بعض، ويصعب فصل جزئية منها عن جزئية، وتصبح دراسة أي منها ناقصة بدون الرجوع إلى اصلها الكبير الذي تلتقي عنده، ويصبح العمل ببعضها دون البعض الآخر غير واف بتحقيق صفة الاسلام، كما أنه غير واف بتحقيق ثمار المنهج الاسلامي في الحياة.

من العقيدة في الله تنبع كل التصورات الأساسية للعلاقات الكونية والحيوية والانسانية. تلك التصورات التي تقوم عليها المناهج الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والأخلاقية والعالمية. والتي تؤثر في علاقات الناس بعضهم ببعض، في كل مجالي النشاط الانساني في الأرض؛ والتي تكيف ضمير الفرد وواقع المجتمع؛ والتي تجعل المعاملات عبادات – بما فيها من أتباع لمنهج الله ومراقبة الله – والعبادات قاعدة للمعاملات – بما فيهما من تطهير للضمير والسلوك – والتي تحيل الحياة في النهاية وحدة متماسكة تنبثق من المنهج الرباني، وتتلقى منه وحده دون سواه، وتجعل مردها في الدنيا والآخرة إلى الله.

هذه السمة الأساسية في العقيدة الإسلامية، وفي المنهج الإسلامي، وفي دين الله الصحيح كله، تبرز هنا في تصدير آية الإحسان إلى الوالدين والأقربين، وغيرهم من طوائف الناس. بعبادة الله وتوحيده – كما أسلفنا – ثم في الجمع بين قرابة الوالدين، وقرابة هذه الطوائف من الناس، متصلة هذه وتلك بعبادة الله وتوحيده – كذلك – وذلك بعد أن جعل هذه العبادة وهذا التوحيد واسطة ما بين دستور الاسرة القريبة في نهاية الدرس الماضي، ودستور العلاقات الإنسانية الواسعة في هذا الدرس على النحو الذي بينا من قبل – ليصلها جميعا بتلك الآصرة التي تضم الأواصر جميعاً؛ وليوحد المصدر الذي يشرع ويوجه في شأن هذه الاواصر جميعاً..

«واعبدوا الله.. ولا تشركوا به شيئاً»..

الأمر الأول بعبادة الله.. والنهي الثاني لتحريم عبادة أحد – معه – سواه. نهياً باتا شاملا، لكل أنواع المعبودات التي عرفتها البشرية: «ولا تشركوا به شيئاً».. شيئاً كائنا ما كان، من مادة أو حيوان أو إنسان أو ملك أو شيطان.. فكلها مما يدخل في مدلول كلمة شيء، عند إطلاق التعبير على هذا المنوال..

ثم ينطلق إلى الامر بالإحسان إلى الوالدين - على التخصيص - ولذوي القربى - على التعميم - ومعظم الأوامر تتجه إلى توصية الذرية بالوالدين - وإن كانت لم تغفل توجيه الوالدين إلى الذرية ؛ فقد كان الله أرحم بالذراري من آبائهم وأمهاتهم في كل حال. والذرية بصفة خاصة أحوج إلى توجيها للبر بالوالدين . بالجيل المدبر المولى . إذ الأولاد - في الغالب - يتجهون بكينونتهم كلها ، وبعواطفهم ومشاعرهم واهتماماتهم إلى الجيل الذي يخلفهم ؛ لا الجيل الذي خلفهم ! وبينما هم مدفوعون في تيار الحياة إلى الأمام ، غافلون عن التلفت إلى الوراء ، تجيئهم هذه التوجيهات من الرحمن الرحيم ، الذي لا يترك والداً ولا مولوداً ، والذي لا ينسى ذرية ولا والدين ؛ والذي يعلم عباده الرحمة بعضهم ببعض ، ولو كانوا ذرية أو والدين !

كذلك يلحظ في هذه الآية - وفي كثير غيرها - أن التوجيه إلى البر يبدأ بذوي القربى - قرابة خاصة أو عامة - ثم يمتد منها ويتسع نطاقه من محورها ، إلى بقية المحتاجين إلى الرعاية من الأسرة الإنسانية الكبيرة . وهذا المنهج يتفق - أولا - مع الفطرة ويسايرها . فعاطفة الرحمة ، ووجدان المشاركة ، يبدآن أولا في البيت . في الأسرة الصغيرة . وقلما ينبثقان في نفس لم تذق طعم هذه العاطفة ولم تجد مسّ هذا الوجدان في المحضن الأول . والنفس كذلك أميل إلى البدء بالأقربين - فطرة وطبعاً - ولا بأس من ذلك ولا ضير ؛ ما دامت توجه دائماً إلى التوسع في الدائرة من هذه النقطة ومن هذا المحور . . ثم يتفق المنهج - ثانياً - مع طريقة التنظيم الاجتماعي الإسلامية : من جعل التكافل يبدأ في محيط الأسرة ؛ ثم ينساح في محيط الجماعة . كي لا يركز عمليات التكافل في يد الأجهزة الحكومية الضخمة - إلا عندما تعجز الأجهزة الصغيرة المباشرة - فالوحدات المحلية الصغيرة أقدر على تحقيق هذا التكافل : في وقته المناسب وفي سهولة ويسر . وفي تراحم وود يجعل جو الحياة لائقاً ببني الإنسان !

وهنا يبدأ بالإحسان إلى الوالدين . ويتوسع منها إلى ذوي القربى . ومنهم إلى اليتامى والمساكين - ولو أنهم قد يكونون أبعد مكاناً من الجار . ذلك أنهم أشد حاجة وأولى بالرعاية - ثم الجار ذو القرابة . فالجار الأجنبي - مقدمين على الصاحب المرافق - لأن الجار قربه دائم ، أما الصاحب فلقاؤه على فترات - ثم الصاحب المرافق - وقد ورد في تفسيره أنه الجليس في الحضر ، الرفيق في السفر - ثم ابن السبيل . العابر المنقطع عن أهله وماله. ثم الرقيق الذين جعلتهم الملابسات « ملك اليمين » ولكنهم يتصلون بآصرة الإنسانية الكبرى بين بني آدم أجمعين .

ويعقب على الامر بالإحسان ، بتقبيح الاختيال والفخر ، والبخل والتبخيل ، و كتمان نعمة الله وفضله ، والرياء في الانفاق ؛ والكشف عن سبب هذا كله ، وهو عدم الإيمان بالله واليوم الآخر ، واتباع الشيطان وصحبته :

« إن الله لا يحب من كان مختالا فخورا . الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ، ويكتمون ما آتاهم الله من فضله . واعتدنا للكافرين عذاباً مهينا. والذين ينفقون أموالهم رئاء الناس ، ولا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر . ومن يكن الشيطان له قريناً فساء قرينا ! » . .

وهكذا تتضح مرة أخرى تلك السمة الأساسية في المنهج الاسلامي . وهي ربط كل مظاهر السلوك ، وكل دوافع الشعور ، وكل علاقات المجتمع بالعقيدة . فإفراد الله — سبحانه — بالعبادة والتلقي ، يتبعه الاحسان إلى البشر ، ابتغاء وجه الله ورضاه ، والتعلق بثوابه في الآخرة ؛ في أدب ورفق ومعرفة بأن العبد لا ينفق إلا من رزق الله . فهو لا يخلق رزقه ، ولا ينال إلا من عطاء الله .. والكفر بالله وباليوم الآخر يصاحبه الاختيال والفخر ، والبخل والأمر بالبخل،وكتمان فضل الله ونعمته بحيث لا تظهر آثارها في إحسان أو عطاء؛أو الانفاق رياء وتظاهراً طلباً للمفخرة عند الناس ؛ إذ لا إيمان بجزاء آخر غير الفخر والخيلاء بين العباد !

وهكذا تتحدد « الاخلاق » .. اخلاق الايمان . وأخلاق الكفر .. فالباعث على العمل الطيب ، والخلق الطيب ، هو الايمان بالله واليوم الآخر ، والتطلع إلى رضاء الله .. وجزاء الآخرة . فهو باعث رفيع لا ينتظر صاحبه جزاء من الناس ، ولا يتلقاه ابتداء من عرف الناس ! فإذا لم يكن هناك إيمان بإله يبتغي وجهه ، وتتحدد بواعث العمل بالرغبة في رضاه . وإذا لم يكن هناك اعتقاد بيوم آخر يتم فيه الجزاء .. اتجه هم الناس إلى نيل القيم الأرضية المستمدة من عرف الناس . وهذه لا ضابط لها في جيل واحد في رقعة واحدة ، فضلاً عن أن يكون لها ضابط ثابت في كل زمان وفي كل مكان ! وكانت هذه هي بواعثهم للعمل . وكان هناك التأرجح المستمر كتأرجح أهواء الناس وقيمهم التي لا تثبت على حال ! وكان معها تلك الصفات الذميمة من الفخر والخيلاء ، والبخل والتبخيل ، ومراءاة الناس لا التجرد والاخلاص!

والتعبير القرآني يقول : إن الله « لا يحب » هؤلاء .. والله — سبحانه — لا ينفعل انفعال الكره والحب . إنما المقصود ما يصاحب هذا الانفعال في مألوف البشر من الطرد والأذى وسوء الجزاء : « وأعتدنا للكافرين عذاباً مهينا » .. والاهانة هي الجزاء المقابل للفخر والخيلاء . ولكن التعبير القرآني يلقي ظلاله — إلى جوار المعنى المقصود — وهي ظلال مقصودة ، تثير في النفوس الكره لهذه الصفات ، ولهذه التصرفات ؛ كما تثير الاحتقار

والاشمئزاز . وبخاصة حين يضم إليها . أن الشيطان هو قرينهم : « ومن يكن الشيطان له قريناً فساء قرينا » !

وقد ورد أن هذه النصوص نزلت في جماعة من يهود المدينة .. وهي صفات تنطبق على اليهود ، كما تنطبق على المنافقين .. وكلاهما كان موجوداً في المجتمع المسلم في ذلك الحين .. وقد تكون الاشارة إلى كتمانهم ما آتاهم الله من فضله ، تعني كذلك كتمانهم الحقائق التي يعرفونها في كتبهم عن هذا الدين ، وعن رسوله الأمين .. ولكن النص عام ، والسياق بصدد الاحسان بالمال وبالمعاملة . فأولى أن نترك مفهومه عاماً . لأنه الأقرب إلى طبيعة السياق .

وحين ينتهي من عرض سوءات نفوسهم ؛ وسوءات سلوكهم ؛ ومن عرض أسبابها من الكفر بالله واليوم الآخر ، وصحبة الشيطان واتباعه ؛ ومن الجزاء المعد المهيأ لأصحاب هذه السوءات ، وهو العذاب المهين .. عندئذ يسأل في استنكار :

« وماذا عليهم لو آمنوا بالله ، واليوم الآخر ، وأنفقوا مما رزقهم الله ؟ وكان الله بهم عليما . إن الله لا يظلم مثقال ذرة ، وإن تك حسنة يضاعفها ، ويؤت من لدنه أجراً عظيما » ..

أجل ! ماذا عليهم ؟ ما الذي يخشونه من الايمان بالله واليوم الآخر ، والانفاق من رزق الله . والله عليم بهم بما أنفقوا وبما استقر في قلوبهم من بواعث . والله لا يظلم مثقال ذرة فلا خشية من الجهل بإيمانهم وإنفاقهم . ولا خوف من الظلم في جزائهم .. بل هنالك الفضل والزيادة ، بمضاعفة الحسنات ، والزيادة من فضل الله بلاحساب ؟

إن طريق الإيمان أضمن وأكسب — على كل حال وعلى كل احتمال — وحتى بحساب الربح المادي والخسارة المادية ، فإن الايمان — في هذه الصورة — يبدو هو الأضمن وهو الأربح ! فماذا عليهم لو آمنوا بالله واليوم الآخر ، وأنفقوا مما رزقهم الله ؟ إنهم لا ينفقون من شيء خلقوه لأنفسهم خلقاً ؛ إنما هو رزق الله لهم . ومع ذلك يضاعف لهم الحسنة ؛ ويزيدهم من فضله ، وهم من رزقه ينفقون ويعطون فياله من كرم! ويا لهمن فيض ! ويالها من صفقة لا يقعد عنها إلا جاهل خسران !

ثم يختم الأوامر والنواهي ، والتحضيض والترغيب ، بمشهد من مشاهد القيامة ؛ يجسم موقفهم فيه ، ويرسم حركة النفوس والمشاعر كأنها شاخصة متحركة .. على طريقة القرآن في مشاهد القيامة :

« فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد ، وجئنا بك على هؤلاء شهيداً ؟ يومئذ يود الذين كفروا وعصوا الرسول لو تسوى بهم الأرض ، ولا يكتمون الله حديثا » ..

إنه يمهد لمشهد القيامة ، بأن الله لا يظلم مثقال ذرة .. وإذن فهو العدل المطلق الذي لا يميل ميزانه قيد شعرة .. وأنه يضاعف الحسنات ويؤتي فضلاً عنها أجراً من لدنه عظيما .. فهي الرحمة إذن لمن يستحقون الرحمة ؛ والفضل المطلق لمن كانوا يرجون الفضل ، بالايمان والعمل ..

فأما هؤلاء . هؤلاء الذين لم يقدموا إيمانا ، ولم يقدموا عملاً .. هؤلاء الذين لم يقدموا إلا الكفر وسوء العمل .. فكيف يكون حالهم يومذاك ؟ كيف يكون الحال ،إذا جئنا من كل أمة بشهيد ـ هو نبيها الذي يشهد عليها ـ وجئنا بك على هؤلاء شهيدا ؟

وعندئذ يرتسم المشهد شاخصا .. ساحة العرض الواسعة . وكل أمة حاضرة . وعلى كل أمة شهيد بأعمالها .. وهؤلاء الكافرون المختالون الفخورون الباخلون المبخلون ، الكاتمون لفضل الله ، المراءون الذين لم يبتغوا وجه الله .. هؤلاء هم نكاد نراهم من خلال التعبير ! واقفين في الساحة وقد انتدب الرسول ﷺ للشهادة ! هؤلاء هم بكل ما أضمروا وأظهروا . بكل ما كفروا وما أنكروا . بكل ما اختالوا وما افتخروا . بكل ما بخلوا وبخلوا . بكل ما راءوا وتظاهروا .. هؤلاء هم في حضرة الخالق الذي كفروا به ، الرازق الذي كتموا فضله وبخلوا بالإنفاق مما أعطاهم . في اليوم الآخر الذي لم يؤمنوا به . في مواجهة الرسول الذي عصوه ..

فكيف ؟ ؟ ؟

إنها المهانة والخزي ، والخجل والندامة .. مع الاعتراف حيث لا جدوى من الإنكار .

والسياق القرآني لا يصف هذا كله من الظاهر . إنما يرسم « صورة نفسية » تتضح بهذا كله ؛ وترتسم حواليها تلك الظلال كلها . ظلال الخزي والمهانة ، والخجل والندامة :

« يومئذ يود الذين كفروا وعصوا الرسول لو تسوّى بهم الأرض ، ولا يكتمون الله حديثاً » !

ومن خلال اللمسات المعبرة في الصورة الحية ، نحس بكل تلك المعاني ، وبكل تلك الانفعالات ، وهي تتحرك في هذه النفوس .. نحس بها عميقة حية مؤثرة . كما لا نحس من خلال أي تعبير آخر .. وصفي أو تحليلي .. وتلك طريقة القرآن في مشاهد القيامة ، وفي غيرها من مواضع التعبير بالتصوير [١] .

* * *

---

(١) يراجع بتوسع كتاب : « التصوير الفني في القرآن » وكتاب : « مشاهد القيامة في القرآن » .

وقد بدأ الدرس بالأمر بعبادة الله والنهي عن إشراك شيء به .. والصلاة أمس الشعائر بمعنى العبادة . وفي الآية التالية بيان لبعض أحكامها ، وأحكام الطهارة الممهدة لها :

« يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى — حتى تعلموا ما تقولون — ولا جنباً — إلا عابري سبيل — حتى تغتسلوا . وإن كنتم مرضى أو على سفر ، أو جاء أحد منكم من الغائط ، أو لامستم النساء فلم تجدوا ماء ، فتيمموا صعيداً طيباً ، فامسحوا بوجوهكم وأيديكم . إن الله كان عفواً غفوراً » ..

إنها حلقة في سلسلة التربية الربانية للجماعة المسلمة — التي التقطها المنهج الاسلامي من سفح الجاهلية — وكانت الخمر إحدى تقاليد المجتمع الجاهلي الأصيلة الشاملة ؛ وإحدى الظواهر المميزة لهذا المجتمع . كما أنها تكاد تكون ظاهرة مميزة لكل جاهلية في القديم والحديث أيضاً .. الخمر كانت ظاهرة مميزة للمجتمع الروماني في أوج جاهليته ، وللمجتمع الفارسي أيضاً . وكذلك هي اليوم ظاهرة مميزة للمجتمع الأوروبي والمجتمع الامريكي في أوج جاهليته ! والشأن أيضاً كذلك في جاهلية المجتمع الإفريقي المتخلفة من الجاهلية الأولى !

في السويد — وهي أرقى أو من أرقى أمم الجاهلية الحديثة — كانت كل عائلة في النصف الأول من القرن الماضي تعد الخمر الخاصة بها . وكان متوسط ما يستهلكه الفرد ، حوالي عشرين لتراً . وأحست الحكومة خطورة هذه الحال ؛ وما ينشره من إدمان ؛ فاتجهت إلى سياسة احتكار الخمور ، وتحديد الاستهلاك الفردي ، ومنع شرب الخمور في المحال العامة .. ولكنها عادت فخففت هذه القيود منذ أعوام قليلة ! فأبيح شرب الخمر في المطاعم بشرط تناول الطعام. ثم أبيحت الخمر في عدد محدود من المحال العامة ، حتى منتصف الليل فقط ! وبعد ذلك يباح شرب « النبيذ والبيرة » فحسب ! وإدمان الخمر عند المراهقين يتضاعف .. !

أما في أمريكا ، فقد حاولت الحكومة الأمريكية مرة القضاء على هذه الظاهرة فسنت قانوناً في سنة ١٩١٩ سمي قانون « الجفاف » ! من باب التهكم عليه ، لأنه يمنع « الري » بالخمر ! وقد ظل هذا القانون قائماً مدة أربعة عشر عاماً ، حتى اضطرت الحكومة إلى الغائه في سنة ١٩٣٣ . وكانت قد استخدمت جميع وسائل النشر والاذاعة والسينما والمحاضرات للدعاية ضد الخمر . ويقدرون ما أنفقته الدولة في الدعاية ضد الخمر بما يزيد على ستين مليونا من الدولارات . وأن ما نشرته من الكتب والنشرات يشتمل على عشرة بلايين صفحة . وما تحملته في سبيل تنفيذ قانون التحريم في مدة أربعة عشر عاماً لا يقل عن ٢٥٠ مليون جنيه . وقد أعدم فيها ٣٠٠ نفس ؛ وسجن كذلك ٥٣٢٫٣٣٥ نفساً. وبلغت الغرامات ١٦ مليون جنيه.

وصادرت من الأملاك ما يبلغ ٤٠٠ مليون وأربعة بلايين جنيه .. وبعد ذلك كله اضطرت إلى التراجع وإلغاء القانون [1] .

فأما الإسلام فقضى على هذه الظاهرة العميقة في المجتمع الجاهلي .. ببضع آيات من القرآن.

وهذا هو الفرق في علاج النفس البشرية ، وفي علاج المجتمع الإنساني .. بين منهج الله ، ومناهج الجاهلية قديماً وحديثاً على السواء !

ولكي ندرك تغلغل هـذه الظاهرة في المجتمع الجاهلي ، يجب أن نعود إلى الشعر الجاهلي ؛ حيث نجد « الخمر » عنصراً أساسياً من عناصر المادة الأدبية ؛ كما أنه عنصر أساسي من عناصر الحياة كلها .

لقد بلغ من شيوع تجارة الخمر ، أن أصبحت كلمة التجارة ، مرادفة لبيع الخمر . . يقول لبيد :

قد بت سامرها وغاية تاجر   وافيت إذ رفعت وعز مدامها

ويقول عمرو ابن قميئة :

إذ أسحب الريط والمروط إلى   أدنى تجـاري وأنفض اللمما

ووصف مجالس الشراب ، والمفاخرة بها تزحم الشعر الجاهلي ، وتطبعه طابعاً ظاهراً . . يقول امرؤ القيس :

وأصبحت ودعت الصبا غير أنني   أراقب خلاّت من العيش أربعا
فمنهن قولي للنـدامى : ترفقـوا   يداجون نشاجا من الخمر مترعا
ومنهن ركض الخيل ترجم بالقنا   يبادرن سربا آمنـا أن يفزّعا

. . . الخ

ويقول طرفة ابن العبد :

فلولا ثلاث هـن من عيشة الفتى   وجـدك لم أحفل متى قام عوّدي
فمنهن سبق العاذلات بشربـة   كميت متى ما تعل بالماء تزبد
وما زال تشرابي الخمـور ولذتي   وبذلي وإنفـاقي طريفي وتالدي
إلى أن تحامتني العشيرة كلهـا   وأفردت إفراد البعير المعبـد

ويقول الأعشى :

---

(١) عن كتاب تنقيحات للسيد أبي الأعلى المودودي . نقلاً عن كتاب : « ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين للسيد الندوي .

فقد أشرب الراح قد تعلمين يوم المقام ويوم الظعن
وأشرب بالريف حتى يقال قد طال بالريف ما قد دجن.

ويقول المنخل اليشكري :

ولقد شربت من المدامة بالصغير وبالكبير
فإذا سكرت فإنني رب الخورنق والسدير [1]
وإذا صحوت فإنني رب الشويهة والبعير

وغير هذا كثير في الشعر الجاهلي ..

ورواية الحوادث التي صاحبت مراحل تحريم الخمر في المجتمع المسلم ؛ والرجال الذين كانوا أبطال هذه الحوادث .. وفيهم عمر ، وعلي ، وحمزة ، وعبد الرحمن بن عوف .. وأمثال هذا الطراز من الرجال . . تشي بمدى تغلغل هذه الظاهرة في الجاهلية العربية . وتكفي عن الوصف المطول المفصل :

يقول عمر رضي الله عنه في قصة إسلامه . . في رواية . . « كنت صاحب خمر في الجاهلية . فقلت لو أذهب إلى فلان الخمار فأشرب ... »

وظل عمر يشرب الخمر في الإسلام . حتى إذا نزلت آية : « يسألونك عن الخمر والميسر . قل : فيهما إثم كبير ومنافع للناس ، وإثمهما أكبر من نفعهما » . . قال : « اللهم بيّن لنا بياناً شافياً في الخمر » . . واستمر .. حتى إذا نزلت هذه الآية : « يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون» ..قال : اللهم بيّن لنا بياناً شافياً في الخمر ! حتى إذا نزلت آية التحريم الصريحة : « إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون. إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ، ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون » .. قال : إنتهينا انتهينا ! وانتهى ..

وفي سبب نزول هذه الآية « يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى » ترد روايتان يشترك في أحداهما علي وعبد الرحمن بن عوف من المهاجرين . وسعد بن معاذ من الأنصار .

روى ابن أبي حاتم : حدثنا يونس بن حبيب ، حدثنا أبو داود — بإسناده — عن مصعب

---

(١) قصران النعمان بن المنذر كانت تتحدث بهما العرب في الجاهلية ،

ابن سعد يحدث عن سعد قال : « نزلت في أربع آيات . صنع رجل من الأنصار طعاماً فدعا أناساً من المهاجرين وأناساً من الأنصار . فأكلنا وشربنا ، حتى سكرنا ، ثم افتخرنا ، فرفع رجل لحى بعير (عظم الفك) فغرز بها أنف سعد . فكان سعد مغروز الأنف . وذلك قبل تحريم الخمر . فنزلت « يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى » .. والحديث بطوله عند مسلم من رواية شعبة .

وروى ابن أبي حاتم : حدثنا محمد بن عمار . حدثنا عبد الرحمن بن عبد الله الدشتكي أبو جعفر . عن عطاء بن السائب ، عن أبي عبد الرحمن السلمى ، عن علي بن أبي طالب قال : « صنع لنا عبد الرحمن بن عوف طعاماً ، فدعانا ، وسقانا من الخمر ، فأخذت الخمر منا ، وحضرت الصلاة ، فقدموا فلاناً قال : فقرأ : قل يا أيها الكافرون . ما أعبد ما تعبدون . ونحن نعبد ما تعبدون ! فأنزل الله : « يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون » .

ولا نحتاج إلى مزيد من الأمثلة والروايات ؛ لندلل على تغلغل ظاهرة الخمر في المجتمع الجاهلي . فهي كانت والميسر ، الظاهرتين البارزتين ؛ المتداخلتين ، في تقاليد هذا المجتمع ..

فماذا صنع المنهج الرباني لمقاومة هذه الظاهرة المتغلغلة ؟ ماذا صنع لمكافحة هذه الافة ، التي لا يقوم معها مجتمع جاد صالح مستقيم واع أبداً ؟ ماذا صنع ليقف في وجه عادة أصيلة قديمة ، تتعلق بها تقاليد اجتماعية ؛ كما تتعلق بها مصالح اقتصادية ؟

لقد عالج المنهج الرباني هذا كله ببضع آيات من القرآن ؛ وعلى مراحل ، وفي رفق وتؤدة وكسب المعركة . دون حرب . ودون تضحيات . ودون إراقة دماء .. والذي أريق فقط هو دنان الخمر وزقاقها وجرعات منها كانت في أفواه الشاربين — حين سمعوا آية التحريم — فمجوها من أفواههم . ولم يبلعوها . كما سيجيء !

في مكة — حيث لم يكن للاسلام دولة ولا سلطان .. إلا سلطان القرآن — وردت في القرآن المكي تلميحة سريعة إلى نظرة الاسلام للخمر . تدرك من ثنايا العبارة . وهي مجرد إشارة :

جاء في سورة النحل : « ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكراً ورزقاً حسناً » .. فوضع « السكر » وهو الشراب المسكر الذي كانوا يتخذونه من ثمرات النخيل والأعناب ، في مقابل الرزق الحسن ! ملمحاً بهذا التقابل إلى أن السكر شيء . والرزق « الحسن » شيء اخر .. وكانت مجرد لمسة من بعيد ؛ للضمير المسلم الوليد !

ولكن عادة الشراب ، أو تقليد الشراب ــ بمعنى أدق ــ فقد كان أعمق من عادة فردية . كان تقليداً اجتماعياً ، له جذور اقتصادية .. كان أعمق من أن تؤثر فيه هذه اللمسة السريعة البعيدة ..

وفي المدينة حيث قامت للاسلام دولة وكان له سلطان .. لم يلجأ إلى تحريم الخمر بقوة الدولة وسيف السلطان . إنما كان أولا سلطان القرآن ..

وبدأ المنهج عمله في رفق وفي يسر ، وفي خبرة بالنفس البشرية ، والأوضاع الاجتماعية ..

بدأ بآية البقرة رداً على أسئلة تدل على فجر اليقظة في الضمير المسلم ضد الخمر والميسر : « يسألونك عن الخمر والميسر . قل : فيهما إثم كبير ، ومنافع للناس ... وإثمهما أكبر من نفعهما .. »

وكانت هي الطرقة الأولى ؛ ذات الصوت المسموع .. في الحس الاسلامي ، وفي الضمير الاسلامي ، وفي المنطق الفقهي الاسلامي .. فمدار الحل والحرمة .. أو الكراهية .. على رجحان الاثم أو رجحان الخير ، في أمر من الأمور .. وإذا كان إثم الخمر والميسر أكبر من نفعهما .. فهذا مفرق الطريق ..

ولكن الأمر كان أعمق من هذا .. وقال عمر ــ رضي الله عنه ــ : « اللهم بين لنا بياناً شافياً في الخمر » !! وهذا وحده يكفي لبيان عمق هذا التقليد في نفس العربي !

ثم حدثت أحداث ــ كالتي رويناها ــ ونزلت هذه الآية : « يا أيها الذين امنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى ، حتى تعلموا ما تقولون » ..

وأخذ المنهج البصير الرفيق يعمل ..

لقد كانت هذه هي المرحلة الوسيطة ، بين التنفير من الخمر ، لأن إثمها أكبر من نفعها ، وبين التحريم البات ، لأنها رجس من عمل الشيطان .. وكانت وظيفة هذه المرحلة الوسيطة : هي « قطع عادة الشراب » أو « كسر الإدمان » . . وذلك بحظر الشراب قرب أوقات الصلاة . وأوقات الصلاة موزعة على مدار النهار . وبينها فترات لا تكفي للشراب ــ الذي يرضي المدمنين ــ ثم الإفاقة من السكر الغليظ ! حتى يعلموا ما يقولون ! فضلا على أن للشراب كذلك أوقاتاً ومواعيد خاصة من الصبوح والغبوق.. صباحاً ومساء .. وهذه تتخللها وتعقبها أوقات الصلاة .. وهنا يقف ضمير المسلم بين أداء الصلاة وبين لذة الشراب .. وكان هذا الضمير قد بلغ أن تكون الصلاة عنده عماد الحياة ..

ومع ذلك . . فقد قال عمر رضي الله عنه ــ وهو عمر !!! ــ « اللهم بين لنا بياناً شافيا

في الخمر » ..

ثم مضى الزمن . ووقعت الاحداث . وجاء الموعد المناسب – وفق ترتيب المنهـج – الضربة الحاسمة . فنزلت الآيتان في المائدة : « إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان ، فاجتنبوه لعلكم تفلحون . إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ، ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة ، فهل أنتم منتهون ؟ » ..

وانتهى المسلمون كافة . وأريقت زقاق الخمر ، وكسرت دنانها في كل مكان .. بمجرد سماع الأمر .. ومج الذين كان في أفواههم جرعات من الخمر ما في أفواههم – حين سمعوا ولم يبلعوها وهي في أفواههم – وهم شاربون ..

لقد انتصر القرآن . وأفلح المنهج . وفرض سلطانه – دون أن يستخدم السلطان !!!

ولكن كيف كان هذا ؟ كيف تمت هذه المعجزة ، التي لا نظير لها في تاريخ البشر ؛ ولا مثيل لهـا في تاريخ التشريعات والقوانين والإجراءات الحكومية في أي مكان ، ولا في أي زمان ؟

لقد تمت المعجزة ، لأن المنهج الرباني ، أخذ النفس الإنسانية ، بطريقته الخاصة . . أخذها بسلطان الله وخشيته ومراقبته ، وبحضور الله – سبحانه – فيها حضوراً لا تملك الغفلة عنه لحظة من زمان .. أخذها جملة لا تفاريق .. وعالج الفطرة بطريقة خالق الفطرة ..

لقد ملأ فراغها باهتمامات كبيرة لا تدع فيها فراغاً تملؤه بنشوة الخمر ، وخيالات السكر ، وما يصاحبها من مفاخرات وخيلاء .. في الهواء ..

ملأ فراغها باهتمامات . منها : نقل هذه البشرية الضالة الشاردة كلها ، من تيه الجاهلية الأجرد ، وهجيرها المتلظي ، وظلامها الدامس ، وعبوديتها المذلة ، وضيقها الخـانق ، إلى رياض الإسلام البديعة ؛ وظلاله الندية ، ونوره الوضيء ، وحريته الكريمة ، وسعته التي تشمل الدنيا والآخرة !

وملأ فراغها – وهذا هو الاهم – بالإيمان . بهذا الإحساس الندي الرضي الجميل البهيج . فلم تعد في حاجة إلى نشوة الخمر ، تحلق بها في خيالات كاذبة وسمادير ! وهي ترف بالإيمان المشع إلى الملأ الأعلى الوضيء .. وتعيش بقرب الله ونوره وجلاله .. وتذوق طعم هذا القرب ، فتمج طعم الخمر ونشوتها ؛ وترفض خمارها وصداعها ؛ وتستقذر لوثتها وخمودها في النهاية !

إنه استنقذ الفطرة من ركام الجاهلية ؛ وفتحها بمفتاحها ، الذي لا تفتح بغيره ؛ وتمشي في حناياها وأوصالها ؛ وفي مسالكها ودروبها . . ينشر النور ، والحياة والنظافة ، والطهر ، واليقظة ، والهمة ، والاندفاع للخير الكبير والعمل الكبير ، والخـلافة في الأرض ، على

أصولها ، التي قررها العليم الخبير ، وعلى عهد الله وشرطه ، وعلى هدى ونور . .

إن الخمر ـ كالميسر . كبقية الملاهي . كالجنون بما يسمونه «الألعاب الرياضية» والإسراف في الاهتمام بمشاهدها .. كالجنون بالسرعة .. كالجنون بالسينما .. كالجنون « بالمودات » « والتقاليع » .. كالجنون بمصارعة الثيران .. كالجنون ببقية التفاهات التي تغشى حياة القطعان البشرية في الجاهلية الحديثة اليوم ، جاهلية الحضارة الصناعية !

إن هذه كلها ليست إلا تعبيراً عن الخواء الروحي .. من الايمان أولا .. ومن الاهتمامات الكبيرة التي تستنفد الطاقة ثانياً .. وليست إلا إعلاناً عن إفلاس هذه الحضارة في إشباع الطاقات الفطرية بطريقة سوية .. ذلك الخواء وهذا الافلاس هما اللذان يقودان إلى الخمر والميسر لملء الفراغ ، كما يقودان إلى كل أنواع الجنون التي ذكرنا .. وهما بذاتهما اللذان يقودان إلى « الجنون » المعروف ، وإلى المرض النفسي والعصبي .. وإلى الشذوذ ..

إنها لم تكن كلمات .. هي التي حققت تلك المعجزة الفريدة .. إنما كان منهج . منهج هذه الكلمات متنه وأصله . منهج من صنع رب الناس . لا من صنع الناس ! وهذا هو الفارق الأصيل بينه وبين كل ما يتخذه البشر من مناهج ، لا تؤدي إلى كثير !

إنه ليست المسألة أن يقال كلام ! فالكلام كثير . وقد يكتب فلان من الفلاسفة . أو فلان من الشعراء . أو فلان من المفكرين . أو فلان من السلاطين ! قد يكتب كلاماً منمقاً جميلًا يبدو أنه يؤلف منهجاً ، أو مذهباً ، أو فلسفة .. الخ .. ولكن ضمائر الناس تتلقاه ، بلا سلطان . لأنه « ما أنزل الله به من سلطان » ! فمصدر الكلمة هو الذي يمنحها السلطان .. وذلك فوق ما في طبيعة المنهج البشري ذاته من ضعف ومن هوى ومن جهل ومن قصور !

فمتى يدرك هذه الحقيقة البسيطة من يحاولون أن يضعوا لحياة الناس مناهج ، غير منهج العليم الخبير ؟ وأن يشرعوا للناس قواعد غير التي شرعها الحكيم البصير ؟ وأن يقيموا للناس معالم لم يقمها الخلاق القدير ؟

متى ؟ متى ينتهون عن هذا الغرور ؟

* * *

ونعود من هذا الاستطراد إلى الاية الكريمة :

« يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى — حتى تعلموا ما تقولون — ولا جنبا — إلا عابري سبيل — حتى تغتسلوا .. »

كما منعت الآية — الذين آمنوا — أن يقربوا الصلاة وهم سكارى — حتى يعلموا ما

يقولون ــ كذلك منعتهم من الصلاة وهم جنب ــ إلا عابري سبيل ــ حتى يغتسلوا ..

وتختلف الأقوال في المقصود من « عابري سبيل » كما تختلف في معنى قرب الصلاة المنهى عنه ..

فقول : إن المقصود هو عدم قرب المساجد ، أو المكث فيها ، لمن كان جنباً ، حتى يغتسل . إلا أن يكون عابراً بالمسجد مجرد عبور . وقد كان جماعة من الصحابة أبواب بيوتهم تفتح على مسجد الرسول ﷺ وهو طريقهم من وإلى هذه البيوت . فرخص لهم في المرور ــ وهم جنب ــ لا بالمكث في المسجد ــ ولا الصلاة بطبيعة الحال ــ إلا بعد الاغتسال .

وقول : إن المقصود هو الصلاة ذاتها . والنهي عن أدائها للجنب ــ إلا بعد الاغتسال ــ ما لم يكن مسافراً . فيحل له عندئذ أن يقصد المسجد وأن يصلي ــ بلا اغتسال ــ ولكن بالتيمم . الذي يسد مسد الغسل ــ عندئذ ــ كما يسد مسد الوضوء .

والقول الأول يبدو أظهر وأوجه . لأن الحالة الثانية ــ حالة السفر ــ ذكرت في الاية نفسها بعد ذلك . فتفسير عابري سبيل ــ بالمسافرين ــ ينشىء تكراراً للحكم في الاية الواحدة، لا ضرورة له :

« وإن كنتم مرضى ، أو على سفر ، أو جاء أحد منكم من الغائط ، أو لا مستم النساء ــ فلم تجدوا ماء ــ فتيمموا صعيداً طيباً . فامسحوا بوجوهكم وأيديكم . إن الله كان عفواً غفوراً » .. فهذا النص يشمل حالة المسافر ــ عندما يصيبه حدث أكبر فيكون جنباً في حاجة إلى الغسل أو حدث أصغر ، فيكون في حاجة إلى الوضوء ، لأداء الصلاة .

والنص يسويه في هذه الحالة بمن كان مريضاً ، فألم بـه حدث أكبر أو أصغر . أو بمن جاء من الغائط (والغائط مكان منخفض كانوا يقضون حاجتهم فيه ، فكنى عن الفعل بالمجيء من مكان الفعل) فأصابه حدث أصغر يقتضي الوضوء . أو بمن لامس النساء ..

وفي « لامستم النساء » .. أقوال كذلك :

قول : إنه كناية عن الجماع .. فهو يستوجب الغسل .

وقول : إنه يعني حقيقة اللمس .. لمس أي جزء من جسم الرجل لجسم المرأة .. وهو يستوجب الوضوء في بعض المذاهب ، ولا يستوجبه في بعضها . بتفصيلات تطلب في كتب الفروع نذكر منها إجمالا :

« ا » اللمس يوجب الوضوء إطلاقاً .

« ب » اللمس يوجب الوضوء إذا كان اللامس ممن تثور الشهوة في نفسه باللمس . وإذا

كانت الملموسة ممن تثير الشهوة باللمس

« جـ » اللمس يوجب الوضوء إذا أحس اللامس نفسه - حسب تقديره في كل حالة - أن اللمسة أثارت في نفسه حركة .

« د » اللمس لا يوجب الوضوء إطلاقاً ، ولا العناق ولا التقبيل للزوجة ..

ولكل قول سنده من أفعال أو من أقوال الرسول ﷺ على طريقة الاختلافات الفقهية في الفروع .

والذي نرجحه في معنى « أو لامستم النساء » أنه كناية عن الفعل الذي يستوجب الغسل. وبذلك نستغني هنا عن كل الخلافات في مسألة الوضوء . .

وفي جميع هذه الحالات المذكورة ، سواء كانت الحالة تستوجب الغسل أو تستوجب الوضوء للصلاة . . حين لا يوجد الماء - وكذلك حين يوجد ولكن استعماله يكون ضاراً أو غير مقدور عليه - يغني عن الغسل والوضوء : التيمم . وقد جاء اسمه من نص الاية :

« فتيمموا صعيداً طيباً »

أي فاقصدوا صعيداً طيبا .. طاهراً .. والصعيد كل ما كان من جنس الأرض من تراب. أو حجر . أو حائط . ولو كان التراب مما على ظهر الدابة . أو في الفراش من ذرات التراب المتطاير . متى كان هناك تراب يتطاير عند ضرب اليدين به .

وطريقة التيمم : إما خبطة واحدة بالكفين على الصعيد الطاهر. ثم نفضهما. ثم مسح الوجه. ثم مسح اليدين إلى المرفقين بهما .. وإما خبطتان : خبطة يمسح بها الوجه ، وخبطة يمسح بها الذراعان . . ولا داعي هنا لذكر الخلافات الفقهية الدقيقة فيما وراء هذا .. فهذا الدين يسر ، وفي شرعية التيمم يتجلى معنى التيسير واضحاً :

« إن الله كان عفواً غفوراً » ..

وهو التعقيب الموحي بالتيسير . وبالعطف على الضعف ، وبالمسامحة في القصور . والمغفرة في التقصير ..

***

وقبل أن ننهي الحديث عن هذه الاية وعن هذا الدرس .. نقف أمام بضع لمسات في هذه الاية القصيرة :

نقف أمام « حكمة التيمم » : نحاول استيضاح ما ييسره لنا الله من حكمتها . .

إن بعض الباحثين في حكمة التشريعات والعبادات الإسلامية . يندفعون أحيـــاناً في تعليل هذه الأحكام ، بصورة توحي بأنهم استقصوا هذه الحكمة ، فلم يعد وراء ما استقصوه شيء ! وهذا منهج غير سليم في مواجهة النصوص القرآنية والأحكام التشريعية .. ما لم يكن قد نص على حكمتها نصاً .. وأولى : أن نقول دائماً : إن هذا ما استطعنا أن نستشرفه من حكمة النص أو الحكم . وأنه قد تكون دائماً هنالك أسرار من الحكمة لم يؤذن لنـــا في استجلائها ! وبذلك نضع عقلنا البشري — في مكانه — أمام النصوص والاحكام الإلهيـــة . بدون إفراط ولا تفريط ..

أقول هذا ، لأن بعضنا — ومنهم المخلصون — يحبون أن يقدموا النصوص والأحـــكام الإسلامية للناس ، ومعها حكمة محددة ، مستقاة مما عرفه البشر من واقعهم أو مما كشف عنه « العلم الحديث » ! وهذا حسن — ولكن في حدود — هي الحدود التي أشرنا إليها في الفقرة السابقة .

وكثير ما ذكر عن حكمة الوضوء — قبل الصلاة — إنها النظافة ..

وقد يكون هذا المعنى مقصوداً في الوضوء . ولكن الجزم بأنه هو .. دون غيره .. هو المنهج غير السليم . وغير المأمون أيضاً :

فقد جاء وقت قال بعض المماحكين : لا حاجة بنا إلى هذه الطريقة البدائية . فالنظـافة الان موفورة . والناس يجعلونها في برنامج حياتهم اليومي . فإذا كانت هـــذه هي « حكمة الوضوء » فلا داعي للوضوء إذن للصلاة ! بل .. لا داعي للصلاة أيضاً !!

وكثيرا ما ذكر عن « حكمة الصلاة » . . . تارة إنها حركات رياضية تشغل الجسم كله وتارة بأنها تعويد على النظام : أولا في مواقيتها . وثانياً في حركاتها . وثالثا في نظام الصفوف والإمامة ... الخ . وتارة أنها الاتصال بالله في الدعاء والقراءة .. وهذا وذاك وذلك قـــد يكون مقصوداً .. ولكن الجزم بأن هذا أو ذاك أو ذلك هو « حكمة الصلاة » يتجاوز المنهج السليم والحد المأمون .

وقد جاء حين من الدهر قال بعضهم فيه : إنه لا حاجة بنا إلى حركات الصلاة الرياضية . فالتدريبات الرياضية المنوعة كفيلة بهذا بعد أن أصبحت الرياضة فنا من الفنون !

وقال بعضهم : ولا حاجة بنا إلى صلاة لتعود النظام . فعندنا الجندية — مجـــال النظام الأكبر . وفيها غناء !

وقال بعضهم : لا حاجة لتحتيم شكل هذه الصلاة . فالاتصال بالله يمكن أن يتم في خلوة

ونجوة بعيداً عن حركات الجوارح ، التي قد تعطل الاستشراف الروحي !

وهكذا .. إذا رحنا « نحدد » حكمة كل عبادة . وحكمة كل حكم . ونعلله تعليلاً وفق « العقل البشري » أو وفق « العلم الحديث » ثم نجزم بأن هذا هو المقصود .. فإننا نبعد كثيراً عن المنهج السليم في مواجهة نصوص الله وأحكامه . كما نبعد كذلك عن الحد المأمون . ونفتح الباب دائماً للمماحكات . فوق ما تحتمله تعليلاتنا من خطأ جسيم . وبخاصة حين نربطها بالعلم . والعلم قلب لا يثبت على حال وهو كل يوم في تصحيح وتعديل !

وهنا في موضوعنا الحاضر — موضوع التيمم — يبدو أن حكمة الوضوء أو الغسل ، ليست هي « مجرد » النظافة . وإلا فإن البديل من أحدهما أو من كليهما ، لا يحقق هذه « الحكمة » ! فلا بد إذن من حكمة « اخرى » للوضوء أو الغسل . تكون متحققة كذلك في « التيمم » ..

ولا نريد نحن أن نقع في الغلطة نفسها فنجزم ! ولكننا نقول فقط : إنها — ربما — كانت هي الاستعداد النفسي للقاء الله ، بعمل ما ، يفصل بين شواغل الحياة اليومية العادية ، وبين اللقاء العظيم الكريم .. ومن ثم يقوم التيمم — في هذا الجانب — مكان الغسل أو مكان الوضوء .

ويبقى وراء هذا علم الله الكامل الشامل اللطيف ؛ بدخائل النفوس ، ومنحنياتها ودروبها ، التي لا يعلمها إلا اللطيف الخبير .. ويبقى أن نتعلم نحن شيئاً من الأدب مع الجليل العظيم العلي الكبير ..

ونقف مرة أخرى أمام حرص المنهج الرباني على الصلاة ؛ وعلى إقامتها في وجه جميع الأعذار والمعوقات . وتذليل هذه المعوقات . والتيسير البادي في إحلال التيمم محل الوضوء ، ومحل الغسل ، أو محلها معاً ، عند تعذر وجود الماء؛ أو عند التضرر بالماء (أو عند الحاجة إلى الماء القليل للشرب وضروريات الحياة) وكذلك عند السفر (حتى مع وجود الماء في أقوال) ..

إن هذا كله يدل — بالإضافة إلى ما سيأتي في السورة من بيان كيفية الصلاة عند الخوف — في ميدان القتال — على حرص شديد من المنهج الرباني ، على الصلاة .. بحيث لا ينقطع المسلم عنها لسبب من الأسباب (ويبدو ذلك كذلك في المرض حيث تؤدى الصلاة من قعود ، أو من اضطجاع ، أو من نوم . وتؤدى بحركات من جفني العين عندما يشق تحريك الجسم والأطراف !) .

إنها هذه الصلة بين العبد والرب . الصلة التي لا يحب الله للعبد أن ينقطع عنها . لأنه - سبحانه - يعلم ضرورتها لهذا العبد . فالله سبحانه غني عن العالمين . ولا يناله من عبادة العباد شيء . إلا صلاحهم هم . وإلا ما يجدون في الصلاة والاتصال بالله ، من العون على تكاليفهم ، والاسترواح لقلوبهم ، والاطمئنان لأرواحهم . والإشراق في كيانهم ؛ والشعور بأنهم في كنف الله ، وقربه ، ورعايته ، بالطريقة التي تصلح لفطرتهم .. والله أعلم بفطرتهم هذه ، وبما يصلح لها وما يصلحها .. وهو أعلم بمن خلق . وهو اللطيف الخبير .

ونقف كذلك أمام بعض التعبيرات الرائقة في هذا النص القصير :

ذلك حين يعبر عن قضاء الحاجة في الغائط بقوله : « أو جاء أحد منكم من الغائط » .. فلا يقول : إذا عملتم كذا وكذا .. بل يكتفي بالعودة من هذا المكان ، كناية عما تم فيه ! ومع هذا لا يسند الفعل إلى المخاطبين . فلا يقول : أو جئتم من الغائط . بل يقول : « أو جاء أحد منكم من الغائط » زيادة في أدب الخطاب ، ولطف الكناية . ليكون هذا الأدب نموذجاً للبشر حين يتخاطبون !

وحين يعبر عما يكون بين الرجل والمرأة بقوله : « أو لامستم النساء » والتعبير بالملامسة أرق وأحشم وأرقى - والملامسة قد تكون مقدمة للفعل أو تعبيراً عنه - وعلى أية حال فهو أدب يضربه الله للناس ، في الحديث عن مثل هذه الشؤون . عندما لا يكون هناك مقتضى للتعبير المكشوف .

وحين يعبر عن الصعيد الطاهر ، بأنه الصعيد الطيب . ليشير إلى أن الطاهر طيب . وأن النجس خبيث .. وهو إيحاء لطيف المدخل إلى النفوس .

وسبحان خالق النفوس . العليم بهذه النفوس !

« أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ ٱلْكِتَابِ ، يَشْتَرُونَ ٱلضَّلَالَةَ ، وَيُرِيدُونَ أَنْ تَضِلُّوا ٱلسَّبِيلَ (٤٤) وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ ، وَكَفَى بِاللهِ وَلِيًّا ، وَكَفَى بِاللهِ نَصِيراً (٤٥) مِنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا ، يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ ، وَيَقُولُونَ : سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا ، وَٱسْمَعْ - غَيْرَ مُسْمَعٍ -

وَرَاعِنا — لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ ، وَطَعْناً فِي ٱلدِّينِ — وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا : سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ، وَٱسْمَعْ ، وَٱنظُرْنَا ، لَكَانَ خَيْراً لَّهُمْ وَأَقْوَمَ ، وَلٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ».(٤٦)

« يٰأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقاً لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهاً فَنَرُدَّهَا عَلَىٰ أَدْبَارِهَا ، أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ ٱلسَّبْتِ ، وَكَانَ أَمْرُ ٱللهِ مَفْعُولًا (٤٧) إِنَّ ٱللهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ ، وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ ، وَمَن يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰ إِثْماً عَظِيماً ».(٤٨)

« أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمْ ؟ بَلِ ٱللهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا (٤٩) ٱنظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللهِ ٱلْكَذِبَ ، وَكَفَىٰ بِهِ إِثْماً مُّبِيناً ».(٥٠)

« أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِّنَ ٱلْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَٱلطَّاغُوتِ ، وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا : هٰؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا (٥١) أُولٰئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللهُ ، وَمَن يَلْعَنِ ٱللهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيراً (٥٢) أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ ٱلْمُلْكِ ؟ فَإِذاً لَّا يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيراً (٥٣) أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ ٱللهُ مِن فَضْلِهِ ؟ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ ٱلْكِتَابَ وَٱلْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكاً عَظِيماً (٥٤) فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ بِهِ ،

وَمِنْهُمْ مَنْ صَدَّ عَنْهُ وَكَفَى بِجَهَنَّمَ سَعِيراً . (٥٥)

« إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَاراً ، كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُوداً غَيْرَهَا ، لِيَذُوقُوا ٱلْعَذَابَ . إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزاً حَكِيماً (٥٦) وَٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ ، سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ ، خَالِدِينَ فِيهَا أَبداً ، لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ ، وَنُدْخِلُهُمْ ظِلّاً ظَلِيلاً » . (٥٧)

ابتداء من هذا الدرس في السورة ، تبدأ المعركة التي يخوضها القرآن بالجماعة المسلمة ، في مواجهة الجاهلية المحيطة بها — واليهود من أهل الكتاب خاصة — تلك المعركة التي شهدنا مواقعها ومجالاتها في سورتي البقرة وآل عمران من قبل .. وهي هي .. والمعسكرات المعادية هي هي كذلك ! المعسكرات التي تحدثنا عنها في تقديم سورة البقرة (١) ، وفي تقديم سورة آل عمران (٢) ، وفي تقديم هذه السورة كذلك (٣) .

ابتداء من هذا الدرس تبدأ المعركة الخارجية . معركة الجماعة المسلمة مع المعسكرات المعادية من حولها .. ولكن هذا في الحقيقة ليس بدء المعركة . فكل ما سبق في السورة من التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية والعائلية والأخلاقية ؛ ومحو الملامح الجاهلية — في المجتمع المسلم الذي التقطه المنهج الرباني من سفح الجاهلية — وتخطيط وتثبيت الملامح الإسلامية الجديدة في هذا المجتمع .. كل ذلك لم يكن بعيداً عن المعركة الخارجية مع أعداء الجماعة المسلمة في المدينة خاصة ؛ وفي الجزيرة عامة .. إنما كان التمهيد الحقيقي لها ، والاستعداد الحقيقي لمواجهتها .. كانت تلك معركة البناء . بناء هذا المجتمع الجديد ، على أسس المنهج الإسلامي الجديد ؛ كي يستطيع أن يواجه المجتمعات المعادية من حوله ، ويتفوق عليها .

(١) الجزء الاول من الطبعة الثانية المنقحة ص ٢٢ — ٣٤
(٢) الجزء الثالث من الطبعة نفسها ص ١١٧ — ١٢٧ .
(٣) الجزء الرابع : ص ٢٠١ — ٢٢٩ .

وكما رأينا في سورتي البقرة وآل عمران العناية تتجه أولاً إلى بناء هذا المجتمع من داخله . بناء عقيدته وتصوراته ، وأخلاقه ومشاعره ، وتشريعاته وأوضاعه ، إلى جانب تعليم الجماعة المسلمة كل شيء عن طبيعة أعدائها ، ووسائلهم ، وتحذيرها من كيدهم ومكرهم ، وتوجيهها إلى المعركة معهم بقلوب مطمئنة ، وعيون مفتوحة ، وإرادات محشودة ، ومعرفة بطبيعة المعركة وطبيعة الأعداء .. كذلك نجد الأمر هنا في هذه السورة ، سواء بسواء .

لقد كان القرآن فيها جميعاً ، يخوض المعركة بالجماعة المسلمة ، في كل جبهة .. كان يخوضها في الضمائر والمشاعر ، حيث ينشيء فيها عقيدة جديدة ، ومعرفة بربها جديدة، وتصوراً للوجود جديداً ، ويقيم فيها موازين جديدة ، وينشيء فيها قيماً جديدة ؛ ويستنقذ فطرتها من ركام الجاهلية .. ويمحو ملامح الجاهلية في النفس والمجتمع ؛ وينشيء ويثبت ملامح الاسلام الوضيئة الجميلة . ثم يقودها في المعركة مع أعدائها المتربصين بها في الداخل والخارج .. اليهود والمنافقين والمشركين .. وهي على اتم استعداد للقائهم ، والتفوق عليهم ؛ بمتانة بنائها الداخلي الجديد : الاعتقادي والأخلاقي والاجتماعي والتنظيمي سواء ..

ولقد كان التفوق الحقيقي للمجتمع المسلم على المجتمعات الجاهلية من حوله — بما فيها مجتمع اليهود القائم في قلب المدينة — هو تفوقه في البناء الروحي والخلقي والاجتماعي والتنظيمي — بفضل المنهج القراني الرباني — قبل أن يكون تفوقاً عسكرياً أو اقتصادياً أو مادياً على العموم !

بل هو لم يكن قط تفوقاً عسكرياً واقتصادياً «مادياً » فقد كان أعداء المعسكر الاسلامي دائماً أكثر عدداً ، وأقوى عدة ، وأغنى مالا ، ووأفر مقدرات مادية على العموم ! سواء في داخل الجزيرة العربية ، أو في خارجها في زمن الفتوحات الكبرى بعد ذلك.. ولكن التفوق الحقيقي كان في ذلك البناء الروحي والخلقي والاجتماعي — ومن ثم السياسي والقيادي — الذي أسسه الاسلام بمنهجه الرباني المتفرد .

وبهذا التفوق الساحق على الجاهلية في بنائها الروحي والخلقي والاجتماعي - ومن ثم السياسي والقيادي — اجتاح الاسلام الجاهلية .. اجتاحها أولا في الجزيرة العربية . واجتاحها ثانياً في الامبراطوريتين العظيمتين المتدتين حوله : إمبراطوريتي كسرى وقيصر.. ثم بعدذلك في جوانب الأرض الأخرى . سواء كان معه جيش وسيف ، أم كان معه مصحف وأذان !

ولولا هذا التفوق الساحق ما وقعت تلك الخارقة التي لم يعرف لها التاريخ نظيراً . حتى في الاكتساحات العسكرية التاريخية الشهيرة . كزحف التتار في التاريخ القديم . وزحف الجيوش الهتلرية في التاريخ الحديث .. ذلك أنه لم يكن اكتساحاً عسكرياً فحسب . ولكنه

كان اكتساحاً عقيدياً . ثقافياً . حضارياً كذلك ! يتجلى فيه التفوق الساحق الذي يطوي — من غير إكراه — عقائد الشعوب ولغاتها ، وتقاليدها وعاداتها.. الأمر الذي لا نظير له على الإطلاق في أي اكتساح عسكري آخر ، قديماً أو حديثاً !

لقد كان تفوقاً « إنسانيا » كاملاً . تفوقاً في كل خصائص « الانسانية » ومقوماتها . كان ميلاداً آخر للانسان . ميلاد إنسان جديد غير الذي تعرفه الأرض على وجه اليقين والتأكيد . ومن ثم صبغ البلاد التي غمرها هذا المد بصبغته ؛ وترك عليها طابعه الخاص ؛ وطغى هذا المد على رواسب الحضارات التي عاشت عشرات القرون من قبل في بعض البلاد . كالحضارة الفرعونية في مصر . وحضارة البابليين والأشوريين في العراق ، وحضارة الفينيقيين والسريان في الشام . لأنه كان أعمق جذوراً في الفطرة البشرية ؛ وأوسع مجالا في النفس الإنسانية ، وأضخم قواعد وأشمل اتجاهات في حياة بني الانسان ، من كل تلك الحضارات .

وغلبة اللغة الإسلامية واستقرارها في هذه البلاد ، ظاهرة عجيبة ، لم تستوف ما تستحقه من البحث والدراسة والتأمل ، وهي في نظري أعجب من غلبة العقيدة واستقرارها . إذ أن اللغة من العمق في الكينونة البشرية ومن التشابك مع الحياة الاجتماعية ، بحيث يعد تغييرها على هذا النحو معجزة كاملة !وليس الأمر في هذا هو أمر « اللغة العربية » . فاللغة العربية . كانت قائمة ؛ ولكنها لم تصنع هذه المعجزة في أي مكان على ظهر الأرض — قبل الاسلام — ومن ثم سميتها « اللغة الاسلامية » فالقوة الجديدة التي تولدت في اللغة العربية ، وأظهرت هذه المعجزة على يديها ، كانت هي « الاسلام » قطعاً !

وكذلك اتجهت العبقريات الكامنة في البلاد المفتوحة (المفتوحة للحرية والنور والطلاقة) اتجهت إلى التعبير عن ذاتها — لا بلغاتها الإصلية — ولكن باللغة الجديدة . لغة هذا الدين . اللغة الاسلامية . وأنتجت بهذه اللغة في كل حقل من حقول الثقافة نتاجاً تبدو فيه الأصالة ؛ ولا يلوح عليه الاحتباس من معاناات التعبير في لغة غريبة — غير اللغة الأم — لقد أصبحت اللغة الإسلامية هي اللغة الأم فعلاً لهذه العبقريات .. ذلك أن الرصيد الذي حملته هذه اللغة كان من الضخامة أولا ؛ ومن ملاصقة الفطرة ثانياً ؛ بحيث كان أقرب إلى النفوس وأعمق فيها ، من ثقافاتها القديمة . ومن لغاتها القديمة أيضاً !

لقد كان هذا الرصيد هو رصيد العقيدة والتصور ؛ ورصيد البناء الروحي والعقلي والخلقي والاجتماعي الذي أنشأه المنهج الإسلامي في فترة وجيزة . وكان من الضخامة والعمق واللصوق بالفطرة ، بحيث أمد اللغة — لغة الإسلام بسلطان لا يقاوم . كما أمد الجيوش — جيوش

الإسلام – بسلطان لا يقاوم كذلك !

وبغير هذا التفسير يصعب أن نعلل تلك الظاهرة التاريخية الفريدة .

وعلى أية حال فهذا موضوع يطول شرحه . فحسبنا منه هذه اللمحة في سياق الظلال . .

***

منذ هذا الدرس في هذه السورة تبدأ المعركة مع المعسكرات المعادية المتربصة بالجماعة الإسلامية الناشئة في المدينة .. ففي هذا الدرس تعجيب من حال اليهود وتصرفاتهم في مواجهة الدين الجديد والجماعة التي تمثله .. وفي الدرس الذي يليه بيان لوظيفة الجماعة المسلمة ، وطبيعة منهجها ، وحد الإسلام ، وشرط الإيمان ، الذي يتميز به منهجها وحياتها ونظامها . . وفي الدرس الذي يليه دعوة لهذه الجماعة للذود عن منهجها ووضعها ووجودها ؛ وكشف للمنافقين المندسين فيها ؛ وبيان لطبيعة الموت والحياة وقدر الله الذي يجري بها ؛ وهو جزء من تربية هذه الجماعة ، وإعدادها لوظيفتها وللمعركة مع أعدائها .. وفي الدرس الذي يليه مزيد من الحديث عن المنافقين ؛ وتحذير للجماعة المسلمة من الانقسام في شأنهم ، أو الدفاع عن تصرفاتهم . ثم تفصيل للاجراءات التي تواجه بها الجماعة المسلمة شتى المعسكرات من حولها – أي لقواعد قانون المعاملات الدولية – وفي الدرس الذي يليه نجد نموذجاً لرفعة الإسلام في معاملته ليهودي فرد في المجتمع الاسلامي ! . . والدرس الذي يليه جولة مع الشرك والمشركين ، وتوهين للأسس التي يقوم عليها المجتمع المشرك في الجزيرة . . ويتوسط هذه المعركة لمحة من التنظيم الداخلي ، ترتبط بأوائل السورة في شأن الأسرة . . ثم يجيء الدرس الأخير – في هذا الجزء – خاصا بالنفاق والمنافقين ؛ يهبط بهم إلى الدرك الأسفل من النار !

وهذه الإشارات الخاطفة تبين لنا طبيعة مجالات المعركة وجوانبها المتعددة – في الداخل والخارج .. وطبيعة التوافق والتكامل ؛ بين المعركة الداخلية والمعركة الخارجية في حياة المجتمع الإسلامي الأول .. وهي هي بذاتها معركة الأمة المسلمة اليوم وغداً في أساسها وحقيقتها . .

* * *

« ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب ، يشترون الضلالة ، ويريدون أن تضلوا السبيل ؟ والله أعلم بأعدائكم ، وكفى بالله ولياً ، وكفى بالله نصيراً . من الذين هادوا ، يحرفون

الكلم عن مواضعه ، ويقولون : سمعنا وعصينا ، واسمع - غير مسمع - وراعنا.ليا بألسنتهم، وطعنا في الدين . ولو أنهم قالوا : سمعنا وأطعنا ، واسمع وانظرنا ، لكان خيرا لهم وأقوم . ولكن لعنهم الله بكفرهم ، فلا يؤمنون إلا قليلًا » ..

إنه التعجيب الأول - من سلسلة التعجيبات الكثيرة - من موقف أهل الكتاب - من اليهود - يوجه الخطاب فيه إلى الرسول ﷺ أو إلى كل من يرى هذا الموقف العجيب المستنكر :

« ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب . . يشترون الضلالة . ويريدون أن تضلوا السبيل » ..

لقد كان من شأن أن يؤتوا نصيباً من الكتاب . . الهداية . . فقد اتاهم الله التوراة ، على يدي موسى عليه السلام ، لتكون هداية لهم من ضلالتهم الأولى .. ولكنهم يدعون هذا النصيب . يدعون الهداية . ويشترون الضلالة ! والتعبير بالشراء يعني القصد والنية في المبادلة ! ففي أيديهم الهدى ولكنهم يتركونه ويأخذون الضلالة . فكأنما هي صفقة عن علم وعن قصد وعمد . لا عن جهل أو خطأ أو سهو ! وهو أمر عجيب مستنكر ، يستحق التعجيب منه والاستنكار .

ولكنهم لا يقفون عند هذا الأمر العجيب المستنكر . بل هم يريدون أن يضلوا المهتدين يريدون أن يضلوا المسلمين .. بشتى الوسائل وشتى الطرق.التي سبق ذكرها في سورتي البقرة وآل عمران ؛ والتي سيجيء طرف منها في هذه السورة كذلك . . فهم لا يكتفون بضلال أنفسهم الذي يشترونه ؛ بل يحاولون طمس معالم الهدى من حولهم ؛ حتى لا يكون هناك هدى ولا مهتدون !

وفي هذه اللمسة : الأولى ، والثانية ، تنبيه للمسلمين وتحذير؛من ألاعيب اليهود وتدبيرهم.. ويا له من تدبير ! وإثارة كذلك لنفوس المسلمين ضد الذين يريدون لهم الضلالة بعد الهدى . وقد كان المسلمون يعتزون بهذا الهدى ؛ ويعادون من يحاول ردهم عنه إلى جاهليتهم التي عرفوها وعرفوا الاسلام . فكرهوها وأحبوا الإسلام ! وكرهوا كل من يحاول ردهم إليها في قليل أو كثير .. وكان القرآن يخاطبهم هكذا ، عن علم من الله ، بما في صدورهم من هذا الأمر الكبير .

ومن ثم يعقب على إبراز هذه المحاولة من اليهود ، بالتصريح بأن هؤلاء أعداء للمسلمين . ويطمئن الجماعة المسلمة إلى ولاية الله ونصره ، إزاء تلك المحاولة :

« والله أعلم بأعدائكم . وكفى بالله ولياً . وكفى بالله نصيرا » ..

وهكذا يصرح العداء ويستعلن ، بين الجماعة المسلمة واليهود في المدينة .. وتتحدد الخطوط ..

وقد كان التعجيب من أهل الكتاب عامة — وكان المفهوم أن المعنيين هم يهود المدينة — ولكن السياق لا يكتفي بهذا المفهوم . بل يمضي فيعين اليهود . ثم يصف حالهم وتصرفاتهم وسوء أدبهم مع الرسول ﷺ في هذه الفترة التي يبدو أنها كانت في أوائل سنوات الهجرة ، قبل أن تخضد شوكتهم في المدينة :

« من الذين هادوا ، يحرفون الكلم عن مواضعه ؛ ويقولون سمعنا وعصينا . واسمع — غير مسمع — وراعنا . ليا بألسنتهم وطعنا في الدين » ..

لقد بلغ من التوائهم ، وسوء أدبهم مع الله عز وجل : أن يحرفوا الكلام عن المقصود به . والأرجح أن ذلك يعني تأويلهم لعبارات التوراة بغير المقصود منها . وذلك كي ينفوا ما فيها من دلائل على الرسالة الأخيرة ؛ ومن أحكام كذلك وتشريعات يصدقها الكتاب الأخير ؛ وتدل وحدتها في الكتابين على المصدر الواحد ؛ وتبعاً لهذا على صحة رسالة النبي ﷺ وتحريف الكلم عن المقصود به ، ليوافق الأهواء ، ظاهرة ملحوظة في كل رجال دين ينحرفون عن دينهم ؛ ويتخذونه حرفة وصناعة ، يوافقون بها أهواء ذوي السلطان في كل زمان ؛ وأهواء الجماهير التي تريد التفلت من الدين . . واليهود أبرع من يصنع ذلك . وإن كان في زماننا هذا من محترفي دين المسلمين من ينافسون — في هذه الخصلة — اليهود !

ثم بلغ من التوائهم وسوء أدبهم مع رسول الله ﷺ أن يقولوا له : سمعنا يا محمد ما تقول ؛ ولكننا عصينا ! فلا نؤمن ولا نتبع ولا نطيع ! — مما يدل على أن هذه الآيات نزلت في وقت مبكر ، حيث كانت لليهود هذه الجرأة على مواجهة النبي ﷺ ثم يضيفون إلى التبجح سوء الأدب والخلق والالتواء أيضاً . إذ يقولون للرسول ﷺ :

« واسمع — غير مسمع — وراعنا » ..

ففي ظاهر اللفظ أنهم يقولون اسمع — غير مأمور بالسمع (وهي صيغة تأدب) — وراعنا : أي : أنظر إلينا نظرة رعاية لحالنا أو نظرة اهتمام لوضعنا . بما أنهم أهل كتاب ، فلا ينبغي أن يدعوا إلى الإسلام كالمشركين !

أما في اللي الذي يلوونه ، فهم يقصدون : اسمع — لا سمعت ، ولا كنت سامعاً ! — (أخزاهم الله) . وراعنا يميلونها إلى وصف « الرعونة » !

وهكذا .. تبجح وسوء أدب ، والتواء ومداهنة ، وتحريف للكلم عن مواضعه وعـــن معانيه ..

إنها يهود !!!

وبعد أن يحكي القرآن هذا عنهم ؛ يقرر المنهج اللائق بأهل الكتاب ؛ والأدب الجدير بمن أوتوا نصيباً منه . ويطمعهم – بعد ذلك كله – في الهداية والجزاء الحسن والفضل والخير من الله . لو ثابوا إلى الطريق القويم . وذلك مع بيان حقيقة طبيعتهم . وأنها هكذا كانت وهكذا تكون :

« ولو أنهم قالوا : سمعنا وأطعنـــا ، واسمع وانظرنا ، لكان خيراً لهم وأقوم . ولكن لعنهم الله بكفرهم ، فلا يؤمنون إلا قليلاً » ..

فهم لا يواجهون الحق بهذه الصراحة وهذه النصاعة وهـــذه الاستقامة . ولو أنهم واجهوه هكذا بالألفاظ الصريحة التي لا التواء فيها :

« سمعنا وأطعنا ، واسمع وانظرنا » .

لكان هذا خيراً لهم ، وأقوم لطبيعتهم وأنفسهم وحالهم . ولكن واقع الأمر أنهم – بسبب كفرهم – مطرودون من هداية الله . فلا يؤمن منهم إلا القليل .

وصدق قول الله .. فلم يدخل في الاسلام – في تاريخه الطويل – إلا القليل من اليهود . ممن قسم الله لهم الخير ، وأراد لهم الهدى ؛ باجتهادهم للخير وسعيهم للهدى . أما كتلة اليهود ، فقد ظلت طوال أربعة عشر قرناً ، حرباً على الاسلام والمسلمين . منذ أن جاورهم الاسلام في المدينة إلى اللحظة الحاضرة . وكيدهم للاسلام كان هو الكيد الواصب الذي لا ينقطع ، العنيد الذي لا يكف ، المنوع الأشكال والألوان والفنون ، منذ ذلك الحين ! وما من كيد كاده أحد للاسلام في تاريخه كله – بما في ذلك كيد الصليبية العالمية والاستعمار بشتى أشكاله – إلا كان من ورائه اليهود . أو كان لليهود فيه نصيب !

* * *

بعد ذلك يتجه الخطاب إلى الذين أوتوا الكتاب – اليهود – دعوة إلى الكتاب المصدق لما بين أيديهم ؛ وتهديداً لهم بالمسخ واللعن المتوقعين من وراء عنادهم وأفاعيلهم . ودمغاً لهم بالشرك والانحراف عن التوحيد الخالص ؛ الذي عليه دينهم ، والله لا يغفر أن يشرك به .. وفي الوقت ذاته بيـــان عام لحدود المغفرة الواسعة ؛ وبشاعة الشرك حتى إنه ليخرج من

هذه الحدود :

« يا أيها الذين أوتوا الكتاب امنوا بما نزلنا ، مصدقاً لما معكم ، من قبل أن نطمس وجوهاً فنردها على أدبارها ، أو نلعنهم كما لعنا أصحاب السبت .. وكان أمر الله مفعولا . إن الله لا يغفر أن يشرك به ، ويغفر ما دون ذلك — لمن يشاء — ومن يشرك بالله فقد افترى إثما عظيما » ..

إنه نداء لهم بالصفة التي كان من شأنها أن يكونوا أول المستجيبين ؛ وبالسبب الذي كان من شأنه أن يكونوا أول المسلمين :

« يا أيها الذين أوتوا الكتاب ، آمنوا بما نزلنا ، مصدقا لما معكم » ..

فهم أوتوا الكتاب ، فليس غريباً عليهم هذا الهدى . والله الذي اتاهم الكتاب هو الذي يدعوهم إلى الإيمان بما أنزل مصدقا لما معهم . فليس غريباً عليهم كذلك . وهو مصدق لما معهم ..

ولو كان الايمان بالبينة . أو بالأسباب الظاهرة . لآمنت يهود أول من امن . ولكن يهود كانت لها مصالح ومطامح . وكانت لها أحقاد وعناد . وكانت هي بطبعها منحرفة صلبة الرقبة .. كما تعبر عنهم التورات بأنهم : « شعب صلب الرقبة ! » . ومن ثم لم تؤمن . ومن ثم يجيئها التهديد العنيف القاسي :

« من قبل أن نطمس وجوهاً فنردها على أدبارها . أو نلعنهم كما لعنا أصحاب السبت . وكان أمر الله مفعولا » ..

وطمس الوجوه إزالة معالمها المميزة لادميتها ؛ وردها على أدبارها ، دفعها لأن تمشي القهقرى..وقد يكون المقصود هو التهديد بمعناه المادي؛الذي يفقدهم ادميتهم ويردهم يمشون على أدبارهم ؛ ويكون كذلك اللعن الذي أصاب أصحاب السبت (وهم الذين احتالوا على صيد السمك يوم السبت ، وهو محرم عليهم في شريعتهم) هو مسخهم بالفعل قردة وخنازير.. كما قد يكون المقصود طمس معالم الهدى والبصيرة في نفوسهم ، وردهم إلى كفرهم وجاهليتهم ، قبل أن يؤتيهم الله الكتاب . والكفر بعد الايمان ، والهدى بعد الضلال ، طمس للوجوه والبصائر . وارتداد على الأدبار دونه كل ارتداد .

وسواء كان هذا هو المقصود أو ذاك .. فهو التهديد الرعيب العنيف ؛ الذي يليق بطبيعة يهود الجاسية الغليظة ؛ كما يليق بفعالهم اللئيمة الخبيثة !

وقد كان ممن ارتدع بهذا التهديد : كعب الأحبار فأسلم :

أخرج ابن ابي حاتم : حدثنا أبي . حدثنا ابن نفيل . حدثنا عمرو بن واقد ، عن يونس ابن جليس ، عن أبي إدريس عائذ الله الخولاني ، قال : كان أبو مسلم الخليلي معلم كعب . وكان يلومـــه في إبطائه عن رسول الله ﷺ قال : فبعثه اليه ينظر : أهو هو ؟ قال كعب : فركبت حتى أتيت المدينـــة . فإذا تال يقرأ القران يقول : « يا أيها الذين أوتوا الكتاب امنوا بما نزلنا مصدقاً لما معكم ، من قبل أن نطمس وجوهاً فنردها على أدبارها .. » فبادرت الماء فاغتسلت ، وإني لأمس وجهي مخافة أن أطمس ! ثم أسلمت [1] .

والتعقيب على هذا التهديد :

« وكان أمر الله مفعولا » ..

فيه توكيد للتهديد ، يناسب كذلك طبيعة اليهود !

ثم يجيء تعقيب يتضمن تهديداً آخر في الآخرة . تهديداً بعدم المغفرة لجريمة الشرك . مع فتح أبواب الرحمة الإلهية كلها لما دون ذلك من الذنوب :

« إن الله لا يغفر أن يشرك به ؛ ويغفر ما دون ذلك — لمن يشاء — ومن يشرك بالله فقد افترى إثما عظيما » ..

وسياق الاية هكذا يتضمن إتهام اليهود بالشرك ؛ ودعوتهم إلى الإيمان الخالص والتوحيد. ولا يذكر هنا القول أو الفعل الذي يعده عليهم شركاً .. وقد ورد في مواضع أخرى تفصيل لهذا : فقد روى القرآن عنهم قوله : « عزير بن الله » كقول النصارى « المسيح ابن الله » . وهو شرك لا شك فيه ! كذلك روى عن هؤلاء وهؤلاء أنهم « اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله » .. وهم لم يكونوا يعبدون الأحبار والرهبان . إنما كانوا ـ فقط ـ يقرون لهم بحق التشريـع . حق التحليل والتحريم . الحق الخاص بالله ، والذي هو من خصائص الألوهية . ومن ثم اعتبرهم القران مشركين .. ولهذا الاعتبار قيمة خاصة في التصور الاسلامي الصحيح لحد الإسلام وشرط الإيمان — كما سيجيء في سياق الصورة بالتفصيل .

وعلى أية حال فاليهود على عهد الرسالة المحمدية كانت عقائدهم بالجزيرة حافلة بالوثنيات ، منحرفة عن التوحيد . والتهديد هنا موجه إليهم بأن الله يغفر ما دون الشرك — لمن يشاء — ولكنه لا يتسامح في إثم الشرك العظيم . ولا مغفرة عنده لمن لقيه مشركا به ؛ لم يرجـــع في

(١) المشهور أن كعبا اسلم في ايام عمر بن الخطاب . وهناك رواية اخرى أخرجها ابن جرير عن اسلامه في ايام عمر لعلها الاوثق .. وهي تبني اسلامه كذلك على سماعه لهذه الاية .

الدنيا عن شركه .

إن الشرك انقطاع ما بين الله والعباد. فلا يبقى لهم معه أمل في مغفرة. إذا خرجوا من هذه الدنيا وهم مشركون . مقطوعوا الصلة بالله رب العالمين . وما تشرك النفس بالله ، وتبقى على هذا الشرك حتى تخرج من الدنيا — وأمامها دلائل التوحيد في صفحة الكون وفي هداية الرسل — ما تفعل النفس هذا وفيها عنصر من عناصر الخير والصلاحية . إنما تفعله وقد فسدت فساداً لا رجعة فيه ! وتلفت فطرتها التي برأها الله عليها ، وارتدت أسفل سافلين ، وتهيأت بذاتها لحياة الجحيم !

أما ما وراء هذا الإثم المبين الواضح الظاهر ، والظلم العظيم الوقح الجاهر .. أما ما وراء ذلك من الذنوب — والكبائر — فإن الله يغفره — لمن يشاء — فهو داخل في حدود المغفرة — بتوبة أو من غير توبة كما تقول بعض الروايات المأثورة الواردة — ما دام العبد يشعر بالله ؛ ويرجو مغفرته ؛ ويستيقن أنه قادر على أن يغفر له وأن عفوه لا يقصر عن ذنبه .. وهذا منتهى الأمد في تصوير الرحمة التي لا تنفد ولا تحد ؛ والمغفرة التي لا يوصد لها باب ؛ ولا يقف عليها بوّاب !

أخرج البخاري ومسلم - كلاهما - عن قتيبة ، عن جرير بن عبد الحميد ، عن عبد العزيز بن رفيع ، عن زيد بن وهب ، عن أبي ذر ، قال : خرجت ليلة من الليالي ، فاذا رسول الله ﷺ يمشي وحده ، وليس معه إنسان . قال : فظننت أنه يكره أن يمشي معه أحد . قال : فجعلت أمشي في ظل القمر . فالتفت فرآني . فقال : « من هذا ؟ » فقلت : أبو ذر - جعلني الله فداك — قال : « يا أبا ذر تعال ! » قال : فمشيت معه ساعة . فقال لي : « إن المكثرين هم المقلون يوم القيامة ، إلا من أعطاه الله خيراً ، فجعل ينفحه عن يمينه وشماله وبين يديه ووراءه وعمل فيه خيراً » . قال : فمشيت معه ساعة ، فقال لي : « اجلس هاهنا » . فأجلسني في قاع حوله حجارة . فقال لي : « أجلس هاهنا حتى أرجع إليك » . قال : فانطلق في الحرة حتى لا أراه . فلبث عني ، حتى إذا طال اللبث .. ثم إني سمعته وهو مقبل يقول : « وإن زنى وإن سرق » قال : فلما جاء لم أصبر حتى قلت : يا نبي الله — جعلني الله فداك — من تكلمه في جانب الحرة ؟ فإني سمعت أحداً يرجع اليك . قال : « ذلك جبريل ، عرض لي جانب الحرة ، فقال : « بشر أمتك أنه من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة » . قلت أيا جبريل . وإن سرق وإن زنى ؟ » . قال : « نعم » . « قلت : وإن سرق وإن زنى ؟ » قال : نعم . وإن شرب الخمر » ..

وأخرج ابن أبي حاتم ـ بإسناده ـ عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ « ما من نفس تموت ، لا تشرك بالله شيئاً ، إلا حلت لها المغفرة ، إن شاء الله عذبها ، وإن شاء غفر لها . إن الله لا يغفر أن يشرك به ، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء » . .

وأخرج ابن أبي حاتم ـ باسناده ـ عن ابن عمر قال . « كنا ـ أصحاب النبي ـ ﷺ لا نشك في قاتل النفس ، وآكل مال اليتيم ، وقاذف المحصنات ، وشاهد الزور . حتى نزلت: « إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء » فأمسك أصحاب النبي ﷺ عن الشهادة !

وروى الطبراني ـ بإسناده ـ عن عكرمة ، عن ابن عباس ، عن النبي ﷺ قال « قال الله عز وجل : من علم أني ذو قدرة على مغفرة الذنوب غفرت له ولا أبالي . ما لم يشرك بي شيئاً » .

وفي هذا الحديث الأخير لمحة كاشفة . فالمهم هو شعور القلب بالله على حقيقته ـ سبحانه ـ ومن وراء هذا الشعور الخير . والرجاء . والخوف . والحياء .. فإذا وقع الذنب ، فمن ورائه هذه السمات تؤهل للتقوى وتؤهل للمغفرة .

***

ثم يمضي القرآن ـ وهو يخوض المعركة بالجماعة المسلمة مع اليهود في المدينة ـ يعجب من أمر هؤلاء الخلق ؛ الذين يزعمون أنهم شعب الله المختار ؛ ويثنون على أنفسهم ؛ ويزكونها ؛ بينما هم يحرفون الكلم عن مواضعه ، ويتطاولون على الله ورسوله ـ كما سبق ـ وبينما هم يؤمنون بالجبت والطاغوت ـ كما سيجيء ـ كاذبين على الله في تزكيتهم لأنفسهم ، وفي زعمهم أنهم مقربون إليه مهما عملوا من السوء !

« ألم تر إلى الذين يزكون أنفسهم ؟ بل الله يزكي من يشاء ، ولا يظلمون فتيلا . انظر كيف يفترون على الله الكذب ! وكفى به إثما مبينا » .

ودعوى اليهود أنهم شعب الله المختار هي دعواهم من قديم . وقد اختارهم الله فعلا لحمل الأمانة وأداء الرسالة ، وفضلهم على العالمين في ذلك الأوان ؛ وأهلك لهم فرعون وملأه ، وأورثهم الأرض المقدسة .. ولكنهم هم انحرفوا بعد ذلك عن منهج الله ؛ وعتوا في الأرض عتواً كبيرا ، واجترحوا السيئات التي تضج منها الأرض ، وأحل لهم أحبارهم ما حرم الله وحرموا عليهم ما أحله لهم ، واتبعوهم ؛ ولم ينكروا عليهم حق الألوهية هذا الذي ادعوه

عمليا ــ بهذا التحريم والتحليل ــ وقد بدل هؤلاء الأحبار في شريعة الله، ليرضوا ذوي السلطان والشرفاء ؛ وليملقوا كذلك رغبات الجماهير وأهواءهم. وبذلك اتخذوا أحبارهم أربابا من دون الله . وأكلوا الربا .. ووهنت علاقتهم بدين الله وكتابه الذي أنزله عليهم .. وعلى الرغم من ذلك كله ــ وغيره كثير ــ فقد ظلوا يزعمون أنهم أبناء الله وأحباؤه . وأن النار لن تمسهم إلا أياما معدودة . وأنه لا يهتدي ولا يقبل عند الله إلا من كان هــــودا ! كأن المسألة مسألة قرابة ونسب ومحاباة بينهم وبين الله ــ تعالى عن ذلك علواً كبيرا ــ فالله لا تصل بينه وبين أحد من خلقه قرابة ولا نسب؛ إنما تربط عباده به العقيدة المستقيمة والعمل الصالح، والاستقامة على منهج الله .. فمن أخل بهذا فقد غضب الله عليه . ويشتد غضبه إذا كان قد آتى الضــــالين الهدى فانحرفوا عنه ! وما شأن هؤلاء اليهود إلا شأن من يزعمون الاسلام اليوم ، ويحسبون أنهم من أمة محمد ﷺ وأن الله لا بد ناصرهم ، ومخرج لهم اليهود مــــن أرضهم . بينما هم ينسلخون انسلاخاً كاملا من دين الله الذي هـــو منهجه للحياة ؛ فينبذونه من حياتهم ؛ ولا يتحاكمون إلى كتاب الله لا في أقضيتهم ولا في اقتصادهم ، ولا في اجتماعهم ، ولا في آدابهم ، ولا في تقاليدهم . وكل ما لهم من الاسلام أسماء المسلمين ! وأنهم ولدوا في أرض كان المسلمون يسكنونها ذات يوم ! ويقيمون فيها دين الله ، ويحكمون منهجه في الحياة !

والله يعجب رسوله ﷺ من أمر أولئك اليهود الذين يزكون أنفسهم . وأمر «المسلمين» المعاصرين أعجب ، وأشد إثارة للتعجيب والتعجب !!

إنه ليس الناس هم الذين يزكون أنفسهم : ويشهدون لها بالصلاح والقرب من الله واختيار الله . إنما الله هو الذي يزكي من يشاء ، فهو أعلم بالقلوب والأعمال . ولن يظلم الناس شيئاً ، إذا هم تركوا هذا التقدير لله ــ سبحانه ــ واتجهوا إلى العمل . لا إلى الادعاء . فلئن عملوا ــ وهم ساكتون متواضعون في حياء من الله ، وبدون تزكية ولا ادعاء ــ فلن يغبنوا عند الله ؛ ولن ينسى لهم عمل ؛ ولن يبخس لهم حق .

والله ــ سبحانه ــ يشهد على اليهود أنهم ــ إذ يزكون أنفسهم ويدعون أن الله راض عنهم ــ يفترون عليه الكذب . ويشنع بفعلتهم هذه ، ويوجه الانظار إلى بشاعتها :

« انظر ــ كيف يفترون على الله الكذب . وكفى به إثماً مبينا ! » .

وما أرى أننا ــ الذين ندعي الإسلام لأننا نحمل أسماء المسلمين ، ونعيش في أرض كان يسكنها المسلمون ! بينما نحن لا نجعل الإسلام في شيء من منهجنا في الحياة .. ما أحسبنا ونحن ندعي الإسلام ، فنشوه الإسلام بصورتنا وواقعنا ؛ ونؤدي ضده شهادة منفرة منه ! ثم ونحن

ندعي أن الله مختار لنا لأننا أمة محمد ﷺ بينما دين محمد ومنهجه مطرود من واقع حياتنا طرداً .. ما أحسبنا إلا في مثل هذا الموضع ، الذي يعجب الله — سبحانه — منه رسوله ﷺ ويدمغ أصحابه بافتراء الكذب على الله ، وارتكاب هذا الإثم المبين ! والعياذ بالله !

إن دين الله منهج حياة . وطاعة الله هي تحكيم هذا المنهج في الحياة . والقرب من الله لا يكون إلا بطاعته .. فلننظر أين نحن من الله ودينه ومنهجه .. ثم لننظر أين نحن من حال هؤلاء اليهود ، الذين يعجب الله من حالهم ، ويدمغهم بإثم الافتراء عليه في تزكيتهم لأنفسهم ! فالقاعدة هي القاعدة . والحال هي الحال . وليس لأحد عند الله نسب ولا صهر ولا محاباة !!

***

ويمضي السياق في التعجب من أمر أولئك الذين يزكون أنفسهم .. بينما هم يؤمنون بالباطل وبالأحكام التي لا تستند إلى شرع الله ، وليس لها ضابط منه يعصمها من الطغيان : « الجبت والطاغوت » وبينما هم يشهدون للشرك والمشركين بأنهم أهدى من المؤمنين بكتاب الله ومنهجه وشريعته ، ويحمل عليهم — بعد التعجب من أمرهم ، وذكر هذه المخازي عنهم — حملة عنيفة ؛ ويرذلهم ترذيلاً شديداً ؛ ويظهر كامن طباعهم من الحسد والبخل ؛ والأسباب الحقيقية التي تجعلهم يقفون هذا الموقف إلى جانب انحرافهم عن دين إبراهيم — الذي يفخرون بالانتساب إليه — وينهي هذه الحملة بتهديدهم بجهنم وكفى بجهنم سعيراً » .

« ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب ، يؤمنون بالجبت والطاغوت ، ويقولون للذين كفروا : هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلاً !. أولئك الذين لعنهم الله . ومن يلعن الله فلن تجد له نصيراً . أم لهم نصيب من الملك ؟ فإذن لا يؤتون الناس نقيراً . أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله ؟ فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة ؛ وآتيناهم ملكاً عظيماً . فمنهم من آمن به ومنهم من صد عنه ؛ وكفى بجهنم سعيراً » ..

لقد كان الذين أوتوا نصيباً من الكتاب ، أولى الناس أن يتبعوا الكتاب ؛ وأن يكفروا بالشرك الذي يعتنقه من لم يأتهم من الله هدى ؛ وأن يحكموا كتاب الله في حياتهم ، فلا يتبعوا الطاغوت — وهو كل شرع لم يأذن به الله ، وكل حكم ليس له من شريعة الله سند — ولكن اليهود — الذين كانوا يزكون أنفسهم ، ويتباهون بأنهم أحباء الله — كانوا في الوقت ذاته يتبعون الباطل والشرك باتباعهم للكهانة وتركهم الكهان والأحبار يشرعون لهم ما لم يأذن به الله . وكانوا يؤمنون بالطاغوت ، وهو هذا الحكم الذي يقوم على غير شريعة الله ..

وهو طاغوت لما فيه من طغيان – بادعاء الإنسان إحدى خصائص الألوهية – وهي الحاكمية – وبعدم انضباطه بحدود من شرع الله ، تلزمه العدل والحق . فهو طغيان ، وهو طاغوت ؛ والمؤمنون به والمتبعون له ، مشركون أو كافرون .. يعجب الله من أمرهم ، وقد أوتوا نصيباً من الكتاب ، فلم يلتزموا بما أوتوه من الكتاب !

ولقد كانوا يضيفون إلى الايمان بالجبت والطاغوت ، موقفهم في صف المشركين الكفار ، ضد المؤمنين الذين آتاهم الله الكتاب أيضاً :

« ويقولون للذين كفروا : هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا » .

قال ابن إسحاق . حدثني محمد بن أبي محمد ، عن عكرمة – أو عن سعيد بن جبير – عن ابن عباس . قال : « كان الذين حزبوا الأحزاب من قريش وغطفان وبني قريظة ، حيي ابن أخطب ، وسلام بن الحقيق ، وأبو رافع ، والربيع بن الحقيق، وأبو عامر ، ووحوح بن عامر ، وهودة بن قيس . فأما وحوح وأبو عامر وهودة ، فمن بني وائل ، وكان سائرهم من بني النضير .. فلما قدموا على قريش قالوا : هؤلاء أحبار يهود ، وأهل العلم بالكتاب الأول فاسألوهم : أدينكم خير أم دين محمد ؟ فسألوهم . فقالوا : دينكم خير من دينه ، وأنتم أهدى منه وممن أتبعه. فأنزل الله – عز وجل – : « ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب » . . . إلى قوله عز وجل : « وآتيناهم ملكا عظيما » . . وهذا لعن لهم . وإخبار بأنه لا ناصر لهم في الدنيا ولا في الاخرة . لأنهم ذهبوا يستنصرون بالمشركين . وإنما قالوا لهم ذلك ليستميلوهم إلى نصرتهم . وقد أجابوهم ، وجاءوا معهم يوم الأحزاب؛ حتى حفر النبي ﷺ وأصحابه حول المدينة الخندق ، وكفى الله شرهم « ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً . وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قوياً عزيزاً » .

وكان عجيباً أن يقول اليهود: إن دين المشركين خير من دين محمد ومن معه، وإن المشركين أهدى سبيلا من الذين آمنوا بكتاب الله ورسوله ﷺ ولكن هذا ليس بالعجيب من اليهود.. إن موقفهم دائماً من الحق والباطل ، ومن أهل الحق وأهل الباطل . . إنهم ذوو أطماع لا تنتهي ، وذوو أهواء لا تعتدل ، وذوو أحقاد لا تزول ! وهم لا يجدون عند الحق وأهله عونا لهم في شيء من أطماعهم وأهوائهم وأحقادهم . إنما يجدون العون والنصرة – دائماً – عند الباطل وأهله . ومن ثم يشهدون للباطل ضد الحق ؛ ولأهل الباطل ضد أهل الحق !

هذه حال دائمة ، سببها كذلك قائم . . وكان طبيعياً منهم ومنطقياً أن يقولوا عن الذين كفروا : هؤلاء أهدى من الذين امنوا سبيلا !

وهم يقولونها اليوم وغداً . إنهم يشوهون بوسائل الدعاية والإعلام التي في أيديهم كل حركة إسلامية ناجحة على ظهر الأرض ؛ ويعينون عليها أهل الباطل لتشويهها وتحطيمها ـ بالضبط كما كانوا يعينون مشركي قريش ويستنصرون بهم في الوقت ذاته ـ لتشويه الحركة الإسلامية الأولى وتحطيمها .

ولكنهم أحياناً ـ لخبثهم ولتمرسهم بالحيل الماكرة وملابسات العصر الحديث ـ قد لا يثنون ثناء مكشوفاً على الباطل وأهله . بل يكتفون بتشويه الحق وأهله . ليعينوا الباطل على هدمه وسحقه . ذلك أن ثناءهم المكشوف ـ في هذا الزمان ـ أصبح متهماً ، وقد يثير الشبهات حول حلفائهم المستورين ، الذين يعملون لحسابهم،في سحق الحركات الإسلامية في كل مكان . .

بل لقد يبلغ بهم المكر والحذق أحياناً ، أن يتظاهروا بعداوة وحرب حلفائهم ، الذين يسحقون لهم الحق وأهله . ويتظاهروا كذلك بعركة كاذبة جوفاء من الكلام . ليبعدوا الشبهة تماماً عن أخلص حلفائهم ، الذين يحققون لهم أهدافهم البعيدة !

ولكنهم لا يكفون أبداً عن تشويه الإسلام وأهله.. لأن حقدهم على الاسلام ، وعلى كل شبح من بعيد لأي بعث إسلامي ، أضخم من أن يداروه.. ولو للخداع والتمويه !

إنها جبلة واحدة ، وخطة واحدة ، وغاية واحدة .. هي التي من أجلها يجبهم الله باللعنة والطرد ، وفقدان النصير . والذي يفقد نصرة الله فما له من ناصر وما له من معين ولو كان أهل الأرض كلهم له ناصر وكلهم له معين :

« أولئك الذين لعنهم الله . ومن يلعن الله فلن تجد له نصيرا » . .

ولقد يهولنا اليوم أن نجد دول الغرب كلها نصيراً لليهود . فنسأل : وأين وعد الله بأنه لعنهم ، وأن من يلعن الله فلن تجد له نصيراً ؟

ولكن الناصر الحقيقي ليس هو الناس . ليس هو الدول . ولو كانت تملك القنابل الأيدروجينية والصواريخ . إنما الناصر الحق هو الله . القاهر فوق عباده : ومن هؤلاء العباد من يملكون القنابل الأيدروجينية والصواريخ !

والله ناصر من ينصره .. « ولينصرنّ الله من ينصره » والله معين من يؤمن به حق الإيمان ، ويتبع منهجه حق الاتباع ؛ ويتحاكم إلى منهجه في رضى وفي تسليم ..

ولقد كان الله ـ سبحانه ـ يخاطب بهذا الكلام أمة مؤمنة به ، متبعة لمنهجه ، محتكمة إلى شريعته . وكان يهون من شأن عدوها ـ اليهود ـ وناصريهم . وكان يعد المسلمين النصر عليهم لأنهم ـ اليهود ـ لا نصير لهم . وقد حقق الله لهم وعده . وعده الذي لا يناله إلا المؤمنون حقاً والذي لا يتحقق إلا على أيدي العصبة المؤمنة حين تقوم .

فلا يهولننا ما نلقاه من نصرة الملحدين والمشركين والصليبيين لليهود . فهم في كل زمان ينصرونهم على الاسلام والمسلمين .. فليست هذه هي النصرة .. ولكن كذلك لا يخدعنا هذا. فإنما يتحقق هذا الأمر للمسلمين ! يوم يكونون مسلمين !

وليحاول المسلمون أن يجربوا – مرة واحدة – أن يكونوا مسلمين . ثم يروا بأعينهم إن كان يبقى لليهود نصير . أو أن ينفعهم هذا النصير !

★ ★ ★

وبعد التعجيب من أمرهم وموقفهم وقولهم ؛ وإعلان اللعنة عليهم والخذلان .. يأخذ في استنكار موقفهم من الرسول ﷺ والمسلمين ؛ وغيظهم من أن يمن الله عليهم هذه المنة .. منة الدين والنصر والتمكين ، وحسدهم لهم على ما أعطاهم الله من فضله . وهم لم يعطوهم من عندهم شيئاً ! ويكشف في الوقت ذاته عن كزازة طبيعتهم ؛ واستكثار أي عطاء ينالهغيرهم ؛ مع أن الله قد أفاض عليهم وعلى آبائهم ، فلم يعلمهم هذا الفيض السماحة ؛ ولم يمنعهم من الحسد والكنود :

« أم لهم نصيب من الملك ؟ فإذن لا يؤتون الناس نقيرا ! أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله ؟ فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة ، وآتيناهم ملكاً عظيماً » ..

يا عجباً ! إنهم لا يطيقون أن ينعم الله على عبد من عباده بشيء من عنده.. فهل هم شركاؤه – سبحانه ! – هل لهم نصيب في ملكه ، الذي يمنح منه ويفيض ؟ لو كان لهم نصيب لضنوا – بكزازتهم وشحهم – أن يعطوا الناس نقيرا .. والنقير النقرة تكون في ظهر النواة – وهذه لا تسمح كزازة يهود وأثرتها البغيضة أن تعطيها للناس ، لو كان لها في الملك نصيب ! والحمد لله أن ليس لها في الملك نصيب .. وإلا لهلك الناس جميعاً وهم لا يعطون حتى النقير !!

أم لعله الحسد .. حسد رسول الله ﷺ والمسلمين ، على ما اتاهم الله من فضله .. من هذا الدين الذي أنشأهم نشأة اخرى ووهب لهم ميلادا جديداً ؛ وجعل لهم وجوداً إنسانياً متميزاً ؛ ووهبهم النور والثقة والطمأنينة واليقين ؛ كما وهبهم النظافة والطهر ، مع العز والتمكين ؟

وإنه فعلا للحسد من يهود . مع تفويت أطماعها في السيادة الأدبية والاقتصادية على العرب الجاهلين المتفرقين المتخاصمين .. يوم أن لم يكن لهم دين ..

ولكن لماذا يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله من النبوة والتمكين في الأرض ؟ وهم غارقون في فضل الله من عهد إبراهيم .. الذي آتاه الله وآله الكتاب والحكمة – وهي النبوة – وآتاهم الملك كذلك والسيادة . وهم لم يرعوا الفضل ولم يحتفظوا بالنعمة، ولم يصونوا

العهد القديم ، بل كان منهم فريق من غير المؤمنين . ومن يؤت هذا الفضل كله لا يليق أن يكون منهم جاحدون كافرون !

« فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكاً عظيما. فمنهم من آمن به ، ومنهم من صدّه عنه » .

إنه لمن الأم الحسد : أن يحسد ذو النعمة الموهوب ! لقد يحسد المحروم ويكون الحسد منه رذيلة ! أما أن يحسد الواجد المغمور بالنعمة ، فهذا هو الشر الأصيل العميق ! شر يهود ! المتميز الفريد !

ومن ثم يكون التهديد بالسعير ، هو الجزاء المقابل لهذا الشر النكير :

« وكفى بجهنم سعيرا » ..

وعندما يبلغ السياق هذا المقطع من ذكر الإيمان والصدود عن الإيمان في آل إبراهيم ، يعقب بالقاعدة الشاملة للجزاء . جزاء المكذبين ، وجزاء المؤمنين .. هؤلاء وهؤلاء أجمعين .. في كل دين وفي كل حين ؛ ويعرض هذا الجزاء في صورة مشهد من مشاهد القيامة العنيفة الرعيبة :

« إن الذين كفروا بآياتنا سوف نصليهم نارا ، كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها ليذوقوا العذاب . إن الله كان عزيزا حكيما . والذين امنوا وعملوا الصالحات سندخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار ، خالدين فيها أبدا ، لهم فيها أزواج مطهرة ، وندخلهم ظلا ظليلا » ..

... كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب » ..

إنه مشهد لا يكاد ينتهي . مشهد شاخص متكرر . يشخص له الخيال ، ولا ينصرف عنه ! إنه الهول . وللهول جاذبية آسرة قاهرة ! والسياق يرسم ذلك المشهد ويكرره بلفظ واحد .. « كلما » .. ويرسمه كذلك عنيفا مفزعا بشطر جملة .. « كلما نضجت جلودهم » .. ويرسمه عجيبا خارقا للمألوف بتكملة الجملة .. « بدلناهم جلودا غيرها » .. ويجمل الهول الرهيب المفزع العنيف كله في جملة شرطية واحدة لا تزيد !

ذلك جزاء الكفر ــ وقد تهيأت أسباب الإيمان ــ وهو مقصود . وهو جزاء وفاق :

« ليذوقوا العذاب » ..

ذلك ، أن الله قادر على الجزاء .. حكيم في توقيعه :

« إن الله كان عزيزا حكيما » ..

وفي مقابل هذا السعير المتأجج . وفي مقابل الجلود الناضجة المشوية المعذبة .. كلما

نضجت بدلت . ليعود الاحتراق من جديد . ويعود الألم من جديد . في مقابل هذا المشهد المكروب الملهوف .. نجد « الذين امنوا وعملوا الصالحات » في جنات ندية :

« تجري من تحتها الأنهار » ..

ونجد في المشهد ثباتا وخلودا مطمئنا أكيدا :

« خالدين فيها أبدا » ..

ونجد في الجنات والخلد الدائم ازواجا مطهرة ..

« وازواج مطهرة » ..

ونجد روح الظلال الندية ؛ يرف على مشهد النعيم :

« وندخلهم ظلا ظليلا » ..

تقابل كامل في الجزاء . وفي المشاهد . وفي الصور . وفي الايقاع .. على طريقة القران في « مشاهد القيامة » ذات الايحاء القوي النافذ العميق [1] .

« إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا ٱلْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا ، وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِٱلْعَدْلِ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ . إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعاً بَصِيراً » (٥٨).

« يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا ٱللَّهَ ، وَأَطِيعُوا ٱلرَّسُولَ ، وَأُولِي ٱلْأَمْرِ مِنْكُمْ . فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ — إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ — ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا » (٥٩).

« أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى ٱلطَّاغُوتِ — وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ

(١) يراجع كتاب « مشاهد القيامة في القرآن » .

يَكفُرُوا بِهِ — ؟ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلاَلاً بَعِيداً (٦٠) وَإِذَا
قِيلَ لَهُمْ: تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ ٱللهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَافِقِينَ
يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُوداً (٦١) فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ
أَيْدِيهِمْ ، ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَاناً وَتَوْفِيقاً (٦٢)
أُولَـٰئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ ، وَقُل
لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغاً (٦٣) وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ
بِإِذْنِ ٱللهِ . وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا ٱللهَ
وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ ، لَوَجَدُوا ٱللهَ تَوَّاباً رَحِيماً (٦٤) فَلَا وَرَبِّكَ
لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ، ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي
أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً (٦٥) وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ
أَنِ ٱقْتُلُوا أَنْفُسَكُم أَوِ ٱخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ — إِلَّا قَلِيلٌ
مِنْهُمْ — وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْراً لَهُمْ وَأَشَدَّ
تَثْبِيتاً (٦٦) وَإِذاً لَآتَيْنَاهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْراً عَظِيماً (٦٧) وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطاً
مُسْتَقِيماً » (٦٨) .

« وَمَنْ يُطِعِ ٱللهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُولَـٰئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللهُ عَلَيْهِمْ
مِنَ ٱلنَّبِيِّينَ ، وَٱلصِّدِّيقِينَ ، وَٱلشُّهَدَاءِ ، وَٱلصَّالِحِينَ . وَحَسُنَ أُولَـٰئِكَ
رَفِيقاً (٦٩) ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللهِ ، وَكَفَى بِاللهِ عَلِيماً » (٧٠) .

هذا الدرس يتناول موضوعا خطيراً .. الموضوع الأساسي في حياة الأمة المسلمة . إنـــه يتناول بيان شرط الإيمان وحدّه ؛ متمثلا في النظام الأساسي لهذه الأمة .. ومن الموضوع في ذاته ، ومن طريقة ارتباطه وامتزاجة بالنظام الأساسي للأمة ، يستمد خطورته وخطره ..

إن القرآن — وهو ينشيء هذه الامة وينشئها — وهو يخرجها الى الوجود إخراجاً . كما قال الله تعالى : التعبير القرآني الدقيق : « كنتم خير أمة أخرجت للناس » ..

إن القرآن وهو ينشيء هذه الامة من حيث لم تكن ؛ وينشئها لتصبح أمة فريدة في تاريخ البشر : « خير أمة أخرجت للناس » ..ويجب أن نؤكد هذه الحقيقة ونوضحها قبل المضي في الحديث : حقيقة إنشاء القرآن لهذه الأمة وتنشئتها معاً .. فقد كانت — على التحقيق — إنشاء وتنشئة ، كانت ميلاداً جديداً للأمة ؛ بل ميلاداً جديداً « للانسان » في صورة جديدة ! ولم تكن مرحلة في طريق النشأة ؛ ولا خطوة في سبيل التطور،ولا حتى وثبةمن وثبات النهضة ! إنما كانت ـ على وجه التحديد ـ « نشأة » ! و « ميلادا » للأمة العربية وللانسان كله !

وحين ننظر إلى الشعر الجاهلي ـ والنتف الاخرى من المـأثورات الجاهلية ـ وهو ديوان العرب، الذي تضمن أعلى وأخلد ما كان للعرب من نظرة للحياة والوجود،والكون والإنسان والخلق والسلوك ؛ كما تضمن معالم حياتهم ، ومكنون مشاعرهم ، ومجموع تصوراتهم ؛ ولباب ثقافتهم وحضارتهم ؛ و كينونتهم كلها بالاختصار ..

حين ننظر إلى مجموعة الثقافات والتصورات والقيم التي يتضمنها هـــذا الديوان ، في ظل القرآن ؛ وما تضمنه من نظرة للوجود والحياة ، وللكون والإنسان ؛ ومن قيم في الحيـــاة الإنسانية ؛ ومن نظام للمجتمع ؛ ومن تصور لغاية الوجود الإنساني . ومن تنظيم واقعي يقوم على أساس هذا التصور ..

ثم ننظر إلى واقع العرب قبل الإسلام وبعده .. في ظل تلك التصورات الجاهلية التي تتمثل في ديوانها . ثم في ظل هذه التصورات القرآنية التي تمثل المنهج الرباني . .

حين ننظر إلى الديوان المأثور والحياة الواقعية .. في ظل القرآن وواقع الحياة الإسلامية : يتبين لنا على وجه التأكيد والتحديد . . أنها كانت نشأة ولم تكن خطوة ولا مرحلة ولا وثبة ! كانت « إخراجاً » من صنـع الله ؛ كتعبير القرآن الدقيق .. وكانت أعجب نشأة ؛ وأغرب إخراج .. فهي المرة الأولى والأخيرة — فيما نعلم — التي تنبثق فيها أمة من بين دفتي كتاب ! و « تخرج » فيها حياة من خلال الكلمات !

ولكن لا عجب .. فهذه الكلمات .. كلمات الله ..

ومن أراد المجادلة والمماحلة، فليقل لنا أين كانت هذه الامة قبل أن «يخرجها» الله بكلماته، وقبل أن ينشئها الله بقرآنه ؟

إننا نعرف أنها كانت في الجزيرة العربية ! ولكن أين كانت في الوجود « الإنساني » ؟ أين كانت في سجل الحضارة البشرية ؟ أين كانت في التاريخ العـالمي ؟ أين كانت تجلس على المائدة العالمية الانسانية ؟ وماذا كانت تقدم على هذه المائدة ، فيعرف باسمها ويحمل طابعها ؟

لقد « نشأت » هذه الأمة نشأتها بهذا الدين ؛ ونشئت تنشئتها بهذا المنهج القويم ؛ وقادت نفسها وقادت البشرية بعد ذلك بكتاب الله الذي في يدها ، وبمنهجه الذي طبع حياتها . . لا بشيء آخر . . وأمامنا التاريخ ! وقد صدقها الله وعده وهو يقول للعرب : « لقد أنزلنا إليكم كتابا فيه ذكركم .. أفلا تعقلون » ؟

فبسبب من هذا الكتاب ذكرت هذه الامة في الأرض ؛ وكان لها دورها في التاريخ ؛ وكان لها « وجود إنساني » ابتداء ، وحضارة عالمية ثانياً .. ذلك بينما يريد جماعة من الحمقى أن يرفضوا نعمة الله هذه على الأمة العربية ؛ ويجحدوا فضل الله في أن جعل كلمته الأخيرة لأهل الأرض قاطبة في العرب وبلسانهم . ومن ثم جعل لهم وجوداً وذكرا وتاريخاً وحضارة ـ يريدون أن يخلعوا هذا الرداء الذي ألبسهم الله إياه ؛ وأن يمزقوا هذه الراية التي قادتهم إلى الذكر والمجد . . بل إلى الوجود يوم أخرج الله منهم الأمة المسلمة !

نقول .. إن القرآن حين كان « ينشيء » هذه الأمة و « ينشئها » .. ويخطط ويثبت ملامح الإسلام الجديدة ، في الجماعة المسلمة ـــ التي التقطها من سفح الجاهلية ـــ ويطمس ويمحو ملامح الجاهلية في حياتها ونفوسها ورواسبها .. وينظم مجتمعها ـــ أو يقيمه ابتـداء ـــ على أساس الميلاد الجديد ..

وحين كان يخوض بالجماعة المسلمة المعركة ؛ في مواجهة الجاهلية الراسبة في نفوسها وأوضاعها من مخلفات البيئة التي التقطها المنهج الرباني منها ، وفي مواجهة الجاهلية الرابضة فيها ومن حولها ـــ ممثلة في يهود المدينـة ومنافقيها ومشركي مكة وما حولها ـ والمعركتان موصولتان في الزمان والمكان !

حين كان القرآن يصنع ذلك كله .. كان يبدأ فيقيم للجماعـة المسلمة تصورها الصحيح ، ببيان شرط الإيمان وحدّ الإسلام ؛ ويربط بهذا التصور ـــ في هذه النقطة بالذات ـــ نظامها الأساسي ، الذي يميز وجودها من وجود الجاهلية حولها؛ويفردها بخصائص الأمة التي أخرجت للناس ، لتبين للناس ، وتقودهم الى الله .. نظامها الرباني ..

وهذا الدرس يتولى بيان هذا النظام الأساسي ، قائماً ومنبثقاً من التصور الإسلامي لشرط الإيمان وحدّ الإسلام !

إنه يتولى تحديد الجهة التي تتلقى منها الأمة المسلمة منهج حياتها ؛ والطريقة التي تتلقى بها ؛ والمنهج الذي تفهم به ما تتلقى ، وترد إليه ما يجد من مشكلات وأقضية لم يرد فيها نص وتختلف الأفهام فيها ؛ والسلطة التي تطيعها وعلة طاعتها ومصدر سلطانها .. ويقول : إن هذا هو شرط الإيمان وحدّه الإسلام ..

وعندئذ يلتقي « النظام الأساسي » لهذه الأمة ؛ بالعقيدة التي تؤمن بها .. في وحدة لا تتجزأ ؛ ولا تفترق عناصرها ..

وهذا هو الموضوع الخطير الذي يجلوه هذا الدرس جلاء دقيقاً كاملاً .. وهذه هي القضية التي تبدو ، بعد مطالعة هذا الدرس ، بديهية يعجب الإنسان كيف يجادل « مسلم » فيها !

إنه يقول للأمة المسلمة : إن الرسل أرسلت لتطاع – بإذن الله – لا لمجرد الإبلاغ والإقناع :

« وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله » ..

ويقول لها : إن الناس لا يؤمنون – ابتداء – إلا أن يتحاكموا إلى منهج الله ؛ ممثلا – في حياة الرسول – ﷺ في أحكام الرسول . وباقياً بعده في مصدريه القرآن والسنة بالبداهة ؛ ولا يكفي أن يتحاكموا إليه – ليحسبوا مؤمنين – بل لا بد من أن يتلقوا حكمه مسلمين راضين :

« فلا وربك .. لا يؤمنون .. حتى يحكموك فيما شجر بينهم ، ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليما » .. فهذا هو شرط الإيمان وحد الاسلام .

ويقول لها : إن الذين يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت – أي إلى غير شريعة الله – لا يقبل منهم زعمهم أنهم آمنوا بما أنزل إلى الرسول وما أنزل من قبله . فهو زعم كاذب . يكذبه أنهم يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت :

« ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك ، يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت – وقد أمروا ان يكفروا به – ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالا بعيدا » .

ويقول لها : إن علامة النفاق أن يصدوا عن التحاكم إلى ما أنزل الله والتحاكم إلى رسول الله :

« وإذا قيل لهم : تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول ، رأيت المنافقين يصدون عنك صدودا » .

ويقول لها : إن منهجها الإيماني ونظامها الأساسي ، أن تطيع الله ـ عز وجل ـ في هذا القرآن ـ وأن تطيع الرسول ﷺ في سنته ـ وأولي الأمر من المؤمنين الداخلين في شرط الأيمان وحد الإسلام معكم :

« يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله ، وأطيعوا الرسول . وأولي الأمر منكم » ..

ويقول لها : إن المرجع ، فيما تختلف فيه وجهات النظر في المسائل الطارئة المتجددة ، والأقضية التي لم ترد فيها أحكام نصية ... إن المرجع هو الله ورسوله .. أي شريعة الله وسنة رسوله :

« فإن تنازعتم في شيء ، فردوه الى الله والرسول » ..

وبهذا يبقى المنهج الرباني مهيمنا على ما يطرأ على الحياة من مشكلات وأقضية كذلك ، أبد الدهر ، في حياة الأمة المسلمة .. وتمثل هذه القاعدة نظامها الأساسي ، الذي لا تكون مؤمنة إلا به ، ولا تكون مسلمة إلا بتحقيقه .. إذ هو يجعل الطاعة بشروطها تلك ، ورد المسائل التي تجد وتختلف فيها وجهات النظر إلى الله ورسوله .. شرط الإيمان وحد الإسلام .. شرطاً واضحاً ونصاً صريحاً :

« إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر » ..

ولا ننسى ما سبق بيانه عند قوله تعالى : « إن الله لا يغفر أن يشرك به ، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء » .. من أن اليهود وصموا بالشرك بالله، لأنهم كانوا يتخذون أحبارهم أربابا من دون الله ـ لا لأنهم عبدوهم ـ ولكن لأنهم قبلوا منهم التحليل والتحريم ؛ ومنحوهم حق الحاكمية والتشريع ـ ابتداء من عند أنفسهم ـ فجعلوا بذلك مشركين .. الشرك الذي يغفر الله كل ما عداه . حتى الكبائر .. « وإن زنى وإن سرق . وإن شرب الخمر » .. فرد الأمر كله إلى إفراد الله ـ سبحانه ـ بالألوهية . ومن ثم إفراده بالحاكمية . فهي أخص خصائص الألوهية . وداخل هذا النطاق يبقى المسلم مسلماً ويبقى المؤمن مؤمناً . ويطمع أن يغفر له ذنوبه ومنها كبائره .. أما خارج هذا النطاق فهو الشرك الذي لا يغفره الله أبداً .. إذ هو شرط الإيمان وحد الاسلام . « إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر .. »

هذا هو الموضوع الخطير الذي يتناوله هذا الدرس . بالإضافة الى بيان وظيفة الأمة المسلمة في الأرض . من إقرار مبادىء العدل والخلق على أساس منهج الله القويم السليم : « إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها . وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل .. إن الله نعما يعظكم به .. إن الله كان سميعاً بصيراً » ..

وقد ألممنا به إجمالا . فنأخذ في مواجهة النصوص تفصيلا ..

★★★

« إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها ؛ وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل . إن الله نعما يعظكم به . إن الله كان سميعا بصيرا » ..

هذه هي تكاليف الجماعة المسلمة ؛ وهذا هو خلقها : أداء الأمانات إلى أهلها . والحكم بين « الناس » بالعدل . على منهج الله وتعليمه .

والأمانات تبدأ من الأمانة الكبرى .. الأمانة التي ناط الله بها فطرة الإنسان ؛ والتي أبت السماوات والأرض والجبال أن يحملنها وأشفقن منها ، وحملها « الإنسان » .. أمانة الهداية والمعرفة والإيمان بالله عن قصد وإرادة وجهد واتجاه . فهذه أمانة الفطرة الإنسانية خاصة . فكل ما عدا الإنسان ألهمه ربه الإيمان به ، والاهتداء إليه ، ومعرفته ، وعبادته ، وطاعته . وألزمه طاعة ناموسه بغير جهد منه ولا قصد ولا إرادة ولا اتجاه . والانسان وحده هو الذي وكل الى فطرته ، والى عقله ، والى معرفته ، والى ارادته ، والى اتجاهه ، والى جهده الذي يبذله للوصول إلى الله ، بعون من الله : « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا » .. وهذه أمانة حملها وعليه أن يؤديها أول ما يؤدي من الأمانات [1] .

ومن هذه الأمانة الكبرى ، تنبثق سائر الأمانات ، التي يأمر الله ان تؤدى :

ومن هذه الأمانات : أمانة الشهادة لهذا الدين .. الشهادة له في النفس أولا بمجاهدة النفس حتى تكون ترجمة له . ترجمة حية في شعورها وسلوكها . حتى يرى الناس صورة الإيمان في هذه النفس . فيقولوا : ما أطيب هذا الإيمان وأحسنه وأزكاه ؛ وهو يصوغ نفوس أصحابه على هذا المثال من الخلق والكمال ! فتكون هذه شهادة لهذا الدين في النفس يتأثر بها الآخرون ... والشهادة له بدعوة الناس إليه ، وبيان فضله ومزيته — بعد تمثل هذا الفضل وهذه المزية في نفس الداعية — فما يكفي أن يؤدي المؤمن الشهادة للايمان في ذات نفسه ، إذا هو لم يدع اليها الناس كذلك ، وما يكون قد أدى أمانة الدعوة والتبليغ والبيان. وهي إحدى الأمانات .. ثم الشهادة لهذا الدين بمحاولة إقراره في الأرض ؛ منهجا للجماعة المؤمنة ؛ ومنهجا للبشرية جميعاً .. المحاولة بكل ما يملك الفرد من وسيلة ، وبكل ما تملك الجماعة من وسيلة . فإقرار

---

(١) يراجع بتوسع كتاب « خصائص التصور الاسلامي ومقوماته » فصل : « حقيقة الانسان » .

هذا المنهج في حياة البشر هو كبرى الأمانات ؛ بعد الإيمان الذاتي . ولا يعفى من هذه الامانة الاخيرة فرد ولا جماعة .. ومن ثم فـ «الجهاد ماض الى يوم القيامة» على هذا الأساس. أداء لإحدى الأمانات ..

ومن هذه الأمانات ــ الداخلة في ثنايا ما سبق ــ أمانة التعامل مع الناس ؛ ورد أماناتهم اليهم : أمانة المعاملات والودائع المادية . وأمانة النصيحة للراعي وللرعية . وأمانة القيام على الأطفال الناشئة . وأمانة المحافظة على حرمات الجماعة وأموالها وثغراتها .. وسائر ما يجلوه المنهج الرباني من الواجبات والتكاليف في كل مجالي الحياة على وجه الاجمال .. فهذه من الأمانات التي يأمر الله أن تؤدى ؛ ويجملها النص هذا الاجمال ..

فأما الحكم بالعدل بين « الناس » فالنص يطلقه هكذا عدلا شاملا « بين الناس » جميعاً . لا عدلا بين المسلمين بعضهم وبعض فحسب . ولا عدلا مع أهل الكتاب ، دون سائر الناس .. وإنما هو حق لكل انسان بوصفه « إنساناً » . فهذه الصفة ــ صفة الناس ــ هي التي يترتب عليها حق العدل في المنهج الرباني . وهذه الصفة يلتقي عليها البشر جميعاً : مؤمنين وكفارا - أصدقاء وأعداء . سودا وبيضا . عرباً وعجماً .. والأمة المسلمة قيمة على الحكم بين الناس بالعدل ــ متى حكمت في أمرهم ــ هذا العدل الذي لم تعرفه البشرية قط ــ في هذه الصورة ــ الا على يد الاسلام ، والا في حكم المسلمين ، والا في عهد القيادة الإسلامية للبشرية: والذي افتقدته من قبل ومن بعد هذه القيادة ؛ فلم تذق له طعما قط ، في مثل هذه الصورة الكريمة التي تتاح للناس جميعاً . لأنهم « ناس » ! لا لأية صفة أخرى زائدة عن هذا الأصل الذي يشترك فيه « الناس » !

وذلك هو أساس الحكم في الاسلام ؛ كما أن الأمانة ــ بكل مدلولاتها ــ هي أساس الحياة في المجتمع الاسلامي [1] .

والتعقيب على الأمر بأداء الأمانات الى أهلها ؛ والحكم بين الناس بالعدل ؛ هو التذكير بأنه من وعظ الله ــ سبحانه ــ وتوجيهه . ونعم ما يعظ الله به ويوجه :

« إن الله نعما يعظكم به » ..

ونقف لحظة أمام التعبير من ناحية أسلوب الأداء فيه . فالأصل في تركيب الجملة : إنه نعم ما يعظكم الله به .. ولكن التعبير يقدم لفظ الجلالة ، فيجعله « اسم إن » ويجعل نعم ما « نعما » ومتعلقاتها ، في مكان « خبر إن » بعد حذف الخبر .. ذلك ليوحي بشدة

---

(١) يراجع بتوسع : كتاب : « نحو مجتمع اسلامي » فصل « مجتمع اخلاقي » وفصل (مجتمع عادل)

الصلة بين الله ـ سبحانه ـ وهذا الذي يعظهم به ..

ثم إنها لم تكن « عظة » إنما كانت « أمراً » .. ولكن التعبير يسميه عظة . لان العظة أبلغ إلى القلب ، وأسرع إلى الوجدان ، وأقرب إلى التنفيذ المنبعث عن التطوع والرغبة والحياء !

ثم يجيء التعقيب الأخير في الآية ؛ يعلق الأمر بالله ومراقبته وخشيته ورجائه :

« إن الله كان سميعاً بصيرا » ..

والتناسق بين المأمور به من التكاليف ؛ وهو أداء الأمانات والحكم بالعدل بين الناس ؛ وبين كون الله سبحانه « سميعاً بصيرا » مناسبة واضحه ولطيفة معا . فالله يسمع ويبصر ، قضايا العدل وقضايا الأمانة . والعدل كذلك في حاجة إلى الاستماع البصير وإلى حسن التقدير ، وإلى مراعاة الملابسات والظواهر ، وإلى التعمق فيما وراء الملابسات والظواهر . وأخيراً فإن الامر بهما يصدر عن السميع البصير بكل الامور .

***

وبعد فالأمانة والعدل .. ما مقياسها ؟ ما منهج تصورهما وتحديدهما وتنفيذهما ؟ في كل مجال في الحياة ، وفي كل نشاط للحياة ؟

أنترك مدلول الامانة والعدل ؛ ووسائل تطبيقها وتحقيقها إلى عرف الناس واصطلاحهم ؟ وإلى ما تحكم به عقولهم ـ أو أهواؤهم ؟

إن للعقل البشري وزنه وقيمته بوصفه أداة من أدوات المعرفة والهداية في الإنسان . . هذا حق .. ولكن هذا العقل البشري هو عقل الافراد والجماعات في بيئة من البيئات ، متأثراً بشتى المؤثرات . . ليس هناك ما يسمى « العقل البشري » كمدلول مطلق ! إنما هناك عقلي وعقلك ؛ وعقل فلان وعلان ، وعقول هذه المجموعة من البشر ، في مكان ما وفي زمان ما .. وهذه كلها واقعة تحت مؤثرات شتى ؛ تميل بها من هنا ، وتميل بها من هناك ..

ولا بد من ميزان ثابت ، ترجع إليه هذه العقول الكثيرة ؛ فتعرف عنده مدى الخطأ والصواب في أحكامها وتصوراتها . ومدى الشطط والغلو ، أو التقصير والقصور في هذه الأحكام والتصورات . وقيمة العقل البشري هنا هو أنه الأداة المهيأة للانسان ، ليعرف بها وزن أحكامه في هذا الميزان .. الميزان الثابت ، الذي لا يميل مع الهوى ، ولا يتأثر بشتى المؤثرات ..

ولا عبرة بما يضعه البشر أنفسهم من موازين .. فقديكون الخلل في هذه الموازين ذاتها. فتختل جميع القيم .. ما لم يرجع الناس إلى ذلك الميزان الثابت القويم .

والله يضع هذا الميزان للبشر ، للأمانة والعدل ، ولسائر القيم ، وسائر الأحكام ، وسائر أوجه النشاط ، في كل حقل من حقول الحياة :

« يا أيها الذين آمنوا! أطيعوا الله ؛ وأطيعوا الرسول ، وأولي الأمر .. منكم .. فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول . إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر . ذلك خير وأحسن تأويلا » ..

وفي هذا النص القصير يبين الله - سبحانه - شرط الإيمان وحد الاسلام . في الوقت الذي يبين فيه قاعدة النظام الأساسي في الجماعة المسلمة ؛ وقاعدة الحكم ومصدر السلطان.. وكلها تبدأ وتنتهي عند التلقي من الله وحده؛ والرجوع إليه فيما لم ينص عليه نصاً ؛ من جزئيات الحياة التي تعرض في حياة الناس على مدى الأجيال ؛ مما تختلف فيه العقول والآراء والافهام .. ليكون هنالك الميزان الثابت ، الذي ترجع إليه العقول والآراء والأفهام !

إن « الحاكمية » لله وحده في حياة البشر - ما جل منها ومادق ، وما كبر منها وما صغر - والله قد سن شريعة أودعها قرآنه . وأرسل بها رسولا يبينها للناس . ولا ينطق عن الهوى . فسنته ﷺ من ثم شريعة من شريعة الله :

والله واجب الطاعة . ومن خصائص ألوهيته أن يسن الشريعة . فشريعته واجبة التنفيذ . وعلى الذين آمنوا أن يطيعوا الله - ابتداء - وأن يطيعوا الرسول - بما له من هذه الصفة . صفة الرسالة من الله - فطاعته إذن من طاعة الله ، الذي أرسله بهذه الشريعة ، وبيانها للناس في سنته .. وسنته وقضاؤه - على هذا - جزء من الشريعة واجب النفاذ . . والإيمان يتعلق - وجوداً وعدماً - بهذه الطاعة وهذا التنفيذ - بنص القرآن :

« إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر » . .

فأما أولو الأمر ؛ فالنص يعين من هم .

« وأولي الأمر .. منكم .. » .

أي من المؤمنين .. الذين يتحقق فيهم شرط الإيمان وحد الاسلام المبين في الآية .. من طاعة الله وطاعة الرسول ؛ وإفراد الله - سبحانه - بالحاكمية وحق التشريع للناس ابتداء ؛ والتلقي منه وحده - فيما نص عليه - والرجوع اليه أيضاً فيما تختلف فيه العقول والأفهام والآراء ، مما لم يرد فيه نص لتطبيق المبادىء العامة في النصوص عليه .

والنص يجعل طاعة الله أصلاً ؛ وطاعة رسوله أصلاً كذلك - بما أنه مرسل منه - ويجعل طاعة أولي الأمر .. منكم .. تبعاً لطاعة الله وطاعة رسوله . فلا يكرر لفظ الطاعة عند ذكرهم، كما كررها عند ذكر الرسول ﷺ ليقرر أن طاعتهم مستمدة من طاعة الله وطاعة رسوله - بعد أن قرر أنهم « منكم » بقيد الإيمان وشرطه ..

وطاعة أولي الأمر .. منكم .. بعد هذه التقريرات كلها ، في حدود المعروف المشروع من الله ، والذي لم يرد نص بحرمته ؛ ولا يكون من المحرم عندما يرد إلى مبادىء شريعته ، عند الاختلاف فيه .. والسنة تقرر حدود هذه الطاعة ، على وجه الجزم واليقين :

في الصحيحين من حديث الأعمش : « إنما الطاعة في المعروف » .

وفيهما من حديث يحي القطان : « السمع والطاعة على المرء المسلم . فيما أحب أو كره . ما لم يؤمر بمعصية . فإذا أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة » .

وأخرج مسلم من حديث أم الحصين : « ولو استعمل عليكم عبد . يقودكم بكتاب الله . اسمعوا له وأطيعوا » ..

بهذا يجعل الاسلام كل فرد أميناً على شريعة الله وسنة رسوله . أميناً على إيمانه هو ودينه . أميناً على نفسه وعقله . أميناً على مصيره في الدنيا والآخرة .. ولا يجعله بهيمة في القطيع ؛ تزجر من هنا أو من هنا فتسمع وتطيع ! فالمنهج واضح ، وحدود الطاعة واضحة . والشريعة التي تطاع والسنة التي تتبع واحدة لا تتعدد ، ولا تتفرق ، ولا يتوه فيها الفرد بين الظنون !

ذلك فيما ورد فيه نص صريح . فأما الذي لم يرد فيه نص. وأما الذي يعرض من المشكلات والأقضية ، على مدى الزمان وتطور الحاجات واختلاف البيئات - ولا يكون فيه نص قاطع، أو لا يكون فيه نص على الاطلاق .. مما تختلف في تقديره العقول والآراء والافهام - فإنه لم يترك كذلك تيها . ولم يترك بلا ميزان . ولم يترك بلا منهج للتشريع فيه والتفريع .. ووضع هذا النص القصير ، منهج الاجتهاد كله ، وحدده بحدوده ؛ وأقام « الأصل » الذي يحكم منهج الاجتهاد أيضاً .

« فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول » ..

ردوه إلى النصوص التي تنطبق عليه ضمناً . فإن لم توجد النصوص التي تنطبق على هذا النحو ، فردوه إلى المبادىء الكلية العامة في منهج الله وشريعته .. وهذه ليست عائمة ، ولا فوضى ، ولا هي من المجهلات التي تتيه فيها العقول كما يحاول بعض المخادعين أن يقول . وهناك - في هذا الدين - مبادىء أساسية واضحة كل الوضوح ، تغطي كل جوانب الحياة الأساسية،

وتضع لها سياجاً خرقه لا يخفى على الضمير المسلم المضبوط بميزان هذا الدين [1] .

« إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر » ..

تلك الطاعة لله والطاعة للرسول ، ولأولي الأمر المؤمنين القائمين على شريعة الله وسنة الرسول ․. ورد ما يتنازع فيه إلى الله والرسول .. هذه وتلك شرط الإيمان بالله واليوم الآخر . كما أنها مقتضى الإيمان بالله واليوم الآخر .. فلا يوجد الإيمان ابتداء وهذا الشرط مفقود .. ولا يوجد الإيمان ، ثم يتخلف عنه أثره الأكيد .

وبعد ان يضع النص المسألة في هذا الوضع الشرطي، يقدمها مرة اخرى في صورة «العظة» والترغيب والتحبيب ؛ على نحو ما صنع في الأمر بالأمانة والعدل ثم التحبيب فيها والترغيب :

« ذلك خير وأحسن تأويلا » ..

ذلك خير لكم واحسن مآلا . خير في الدنيا وخير في الآخرة . واحسن مآلا في الدنيا واحسن مآلا في الآخرة كذلك .. فليست المسألة ان اتباع هذا المنهج يؤدي الى رضاء الله وثواب الآخرة ــ وهو امر هائل ، عظيم ــ ولكنه كذلك يحقق خير الدنيا وحسن مآل الفرد والجماعة في هذه الحياة القريبة .

إن هذا المنهج معناه: ان يستمتع «الانسان» بمزايا منهج يضعه له الله .. الله الصانع الحكيم العليم البصير الخبير .. منهج بريء من جهل الانسان ، وهوى الانسان ، وضعف الانسان . وشهوة الانسان .. منهج لا محابات فيه لفرد ، ولا لطبقة ، ولا لشعب ، ولا لجنس ، ولا لجيل من البشر على جيل .. لأن الله رب الجميع ؛ ولا تخالجه ــ سبحانه وتعالى عن ذلك علوا كبيراً ــ شهوة المحاباة لفرد ، او طبقة ، او شعب ، او جنس ، او جيل .

ومنهج من مزاياه ، أن صانعه هو صانع هذا الإنسان .. الذي يعلم حقيقة فطرته ، والحاجات الحقيقية لهذه الفطرة ؛ كما يعلم منحنيات نفسه ودروبها ؛ ووسائل خطابها وإصلاحها ، فلا يخبط ــ سبحانه وتعالى عن ذلك علوا كبيرا ــ في تيه التجارب بحثاً عن منهج يوافق . ولا يكلف البشر ثمن هذه التجارب القاسية، حين يخبطون هم في التيه بلا دليل! وحسبهم ان يجربوا في ميدان الإبداع المادي ما يشاءون . فهو مجال فسيح جد فسيح للعقل البشري . وحسبهم كذلك ان يحاول هذا العقل تطبيق ذلك المنهج ؛ ويدرك مواضع القياس والاجتهاد فيما تتنازع فيه العقول .

---

(١) يراجع بتوسع فصل : « الثبات » في كتاب « خصائص التصور الاسلامي ومقوماته » .

ومنهج من مزاياه أن صانعه هو صانع هذا الكون ، الذي يعيش فيه الإنسان . فهو يضمن للانسان منهجاً تتلاءم قواعده مع نواميس الكون ؛ فلا يروح يعارك هذه النواميس . بل يروح يتعرف اليها ، ويصادقها ، وينتفع بها .. والمنهج يهديه في هذا كله ويحميه .

ومنهج من مزاياه أنه — في الوقت الذي يهدي فيه الانسان ويحميه — يكرمه ويحترمه ويجعل لعقله مكانا للعمل في المنهج .. مكان الاجتهاد في فهم النصوص الواردة . ثم الاجتهاد في رد ما لم يرد فيه نص إلى النصوص أو إلى المباديء العامة للدين .. ذلك إلى المجال الأصيل ، الذي يحكمه العقل البشري ، ويعلن فيه سيادته الكاملة : ميدان البحث العلمي في الكون ؛ والإبداع المادي فيه [1] ..

« ذلك خير وأحسن تأويلا» ..

.. وصدق الله العظيم .

★ ★ ★

وحين ينتهي السياق من تقرير هذه القاعدة الكلية ، في شرط الايمان وحد الإسلام ؛ وفي النظام الأساسي للأمة المسلمة ، وفي منهج تشريعها وأصوله .. يلتفت إلى الذين ينحرفون عن هذه القاعدة ؛ ثم يزعمون — بعد ذلك — أنهم مؤمنون ! وهم ينقضون شرط الإيمان وحد الاسلام . إذ يريدون أن يتحاكموا إلى غير شريعة الله .. « الى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به » ..

يلتفت اليهم ليعجب من أمرهم ويستنكر . وليحذرهم — وأمثالهم — من إرادة الشيطان بهم الضلال . ويصف حالهم حين يدعون إلى ما أنزل الله وإلى الرسول فيصدون . ويعتبر هذا الصدود نفاقاً . كما اعتبر إرادتهم التحاكم إلى الطاغوت خروجا من الإيمان — بل وعدم دخول فيه ابتداء — كما يصف معاذيرهم الواهية الكاذبة في اتباع هذه الخطة المستنكرة ، حين تجر عليهم الوبال والنكال .. ومع هذا كله فهو يوجه رسول الله ﷺ إلى النصح لهم وموعظتهم .. ويختم المقطع كله ببيان ما أراده الله — سبحانه — من إرسال الرسل .. وهو أن يطاعوا .. ثم بنص صريح جازم في شرط الإيمان وحد الإسلام مرة أخرى ..

« ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل اليك وما أنزل من قبلك . يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت — وقد أمروا أن يكفروا به — ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالا

(١) يراجع كتاب : « هذا الدين » فصل « منهج متفرد » .

بعيداً . وإذا قيل لهم : تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول ، رأيت المنافقين يصدون عنك صدودا . فكيف إذا أصابتهم مصيبة بما قدمت أيديهم ، ثم جاءوك ، يحلفون بالله إن أردنا إلا إحسانا وتوفيقا . أولئك الذين يعلم الله ما في قلوبهم . فأعرض عنهم ، وعظهم ، وقل لهم في أنفسهم قولا بليغا. وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله . ولو أنهم – إذ ظلموا أنفسهم – جاءوك ، فاستغفروا الله ، واستغفر لهم الرسول ، لوجدوا الله توابا رحيما .. فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم . ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ؛ ويسلموا تسليما » ..

إن هذا التصوير لهذه المجموعة التي تصفها النصوص ، يوحي بأن هذا كان في أوائل العهد بالهجرة . يوم كان للنفاق صولة ؛ وكان لليهود – الذين يتبادلون التعاون مع المنافقين – قوة ..

وهؤلاء الذين يريدون أن يتحاكموا إلى غير شريعة الله – إلى الطاغوت – قد يكونون جماعة من المنافقين – كما صرح بوصفهم في الآية الثانية من هذه المجموعة – وقد يكونون جماعة من اليهود الذين كانوا يدعون – حين تجد لهم أقضية مع بعضهم البعض أو أهل المدينة – إلى التحاكم إلى كتاب الله فيها .. التوراة أحيانا ، وإلى حكم الرسول أحيانا – كما وقع في بعض الأقضية – فيرفضون ويتحاكمون إلى العرف الجاهلي الذي كان سائداً .. ولكننا نرجح الفرض الأول لقوله فيهم : « يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل اليك وما أنزل من قبلك » .. واليهود لم يكونوا يسلمون أو يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إلى الرسول . إنما كان المنافقون هم الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل اليه وما أنزل من قبله (كما هو مقتضى العقيدة الاسلامية من الإيمان بالرسل كلهم) .

وهذا لم يكن يقع إلا في السنوات الأولى للهجرة . قبل أن تخضد شوكة اليهود في بني قريظة وفي خيبر . وقبل أن يتضاءل شأن المنافقين بانتهاء شأن اليهود في المدينة !

على أية حال نحن نجد في هذه المجموعة من الآيات ، تحديداً كاملا دقيقاً حاسماً لشرط الايمان وحد الإسلام ، ونجد شهادة من الله بعدم إيمان الذين « يريدون ان يتحاكموا إلى الطاغوت» « وقد أمروا أن يكفروا به » كما نجد قسماً من الله سبحانه – بذاته العلية – أنهم لا يدخلون في الإيمان؛ ولا يحسبون مؤمنين حتى يحكموا الرسول ﷺ في أقضيتهم . ثم يطيعوا حكمه ، وينفذوا قضاءه . طاعة الرضى ، وتنفيذ الارتياح القلبي ؛ الذي هو التسليم ، لا عجزا واضطرارا . ولكن طمأنينة وارتضاء ..

***

« ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل اليك ومـــا أنزل من قبلك . يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت - وقدأمروا أن يكفروا به - ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالا بعيداً » .

ألم تر إلى هذا العجب العاجب .. قوم .. يزعمون .. الإيمان . ثم يهدمون هذا الزعم في آن ؟! قوم « يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل اليك وما أنزل من قبلك » . ثم لا يتحاكمون إلى ما أنزل اليك وما أنزل من قبلك ؟ إنما يريدون أن يتحاكموا إلى شيء آخر ، وإلى منهج آخر ، وإلى حكم آخر .. يريدون أن يتحاكموا الى .. الطاغوت . . الذي لا يستمد مما أنزل اليك وما أنزل من قبلك .. ولا ضابط له ولا ميزان ، مما أنزل إليك وما أنزل من قبلك . ومن ثم فهو .. طاغوت . . طاغوت بادعائه خاصية من خواص الألوهية . وطاغوت بأنه لا يقف عند ميزان مضبوط أيضاً ! وهم لا يفعلون هذا عن جهل ، ولا عن ظن .. إنما هم يعلمون يقيناً ويعرفون تماماً، أن هذا الطاغوت محرم التحاكم اليه : « وقد أمروا أن يكفروا به » .. فليس في الأمر جهالة ولا ظن. بل هو العمد والقصد . ومن ثم لا يستقيم ذلك الزعم. زعم أنهم آمنوا بما أنزل اليك وما أنزل من قبلك ! إنما هو الشيطان الذي يريد بهم الضلال الذي لا يرجى منه مآب . .

« ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالا بعيدا » ..

فهذه هي العلة الكامنة وراء إرادتهم التحاكم إلى الطاغوت . وهذا هو الدافع الذي يدفعهم إلى الخروج من حد الايمان وشرطه بإرادتهم التحاكم إلى الطاغوت ! هـذا هو الدافع يكشفه لهم . لعلهم يتنبهون فيرجعوا . ويكشفه للجماعـــة المسلمة ، لتعرف من يحرك هؤلاء ويقف وراءهم كذلك .

ويمضي السياق في وصف حالهم إذا ما دعوا إلى ما أنزل الله الى الرسول ومـــا أنزل من قبله . . ذلك الذي يزعمون أنهم آمنوا به :

« وإذا قيل لهم : تعالوا الى ما أنزل الله وإلى الرسول ، رأيت المنافقين يصـــدون عنك صدودا » .

« يا سبحان الله ! إن النفاق يأبى إلا أن يكشف نفسه ! ويأبى إلا أن يناقض بديهيات المنطق الفطري . . وإلا ما كان نفاقاً ..

إن المقتضى الفطري البديهي للايمان ، أن يتحاكم الانسان إلى ما آمن به ، وإلى من آمن به . فإذا زعم أنه آمن بالله وما أنزل ، وبالرسول وما أنزل اليه . ثم دعي إلى هذا الذي آمن به ، ليتحاكم إلى أمره وشرعه ومنهجه ؛ كانت التلبية الكاملة هي البديهية الفطرية فأما حين

يصد ويأبى ، فهو يخالف البديهية الفطرية . ويكشف عن النفاق . وينبىء عن كذب الزعم الذي زعمه من الإيمان !

وإلى هذه البديهية الفطرية يحاكم الله — سبحانه — أولئك الذين يزعمون الإيمان بالله ورسوله . ثم لا يتحاكمون إلى منهج الله ورسوله . بل يصدون عن ذلك المنهج حين يدعون اليه صدودا !

ثم يعرض مظهراً من مظاهر النفاق في سلوكهم ؛ حين يقعون في ورطة أو كارثة بسبب عدم تلبيتهم للدعوة إلى ما أنزل الله وإلى الرسول ؛ أو بسبب ميلهم إلى التحاكم إلى الطاغوت . ومعاذيرهم عند ذلك . وهي معاذير النفاق :

«فكيف إذا أصابتهم مصيبة — بما قدمت أيديهم — ثم جاءوك يحلفون بالله : إن أردنا إلا إحسانا وتوفيقا » ..

وهذه المصيبة قد تصيبهم بسبب انكشاف أمرهم في وسط الجماعة المسلمة ـ يومذاك ـ حيث يصبحون معرضين للنبذ والمقاطعة والازدراء في الوسط المسلم . فما يطيق المجتمع المسلم أن يرى من بينه اناسا يزعمون أنهم آمنوا بالله وما أنزل ، وبالرسول وما أنزل إليه ؛ ثم يميلون إلى التحاكم لغير شريعة الله ؛ أو يصدون حين يدعون إلى التحاكم إليها .. إنما يقبل مثل هذا في مجتمع لا إسلام له ولا إيمان . وكل ماله من الإيمان زعم كزعم هؤلاء ؛ وكل مـــاله من الإسلام دعوى وأسماء !

أو قد تصيبهم المصيبة من ظلم يقع بهم ؛ نتيجة التحاكم إلى غير نظام الله العادل ؛ ويعودون بالخيبة والندامة من الاحتكام إلى الطاغوت ؛ في قضية من قضاياهم .

أو قد تصيبهم المصيبة ابتلاء من الله لهم . لعلهم يتفكرون ويهتدون ..

وأياً ما كان سبب المصيبة ؛ فالنص القرآني ، يسأل مستنكراً : فكيف يكون الحال حينئذ ! كيف يعودون إلى الرسول ﷺ :

« يحلفون بالله إن أردنا إلا إحسانا وتوفيقا » ...

إنها حال مخزية . . حين يعودون شاعرين بما فعلوا . . غير قادرين على مواجهة الرسول ﷺ بحقيقة دوافعهم . وفي الوقت ذاته يحلفون كاذبين : أنهم ما أرادوا بالتحاكم إلى الطاغوت — وقد يكون هنا هو عرف الجاهلية — إلا رغبة في الإحسان والتوفيق ! وهي دائماً دعوى كل من يحيدون عن الاحتكام إلى منهج الله وشريعته : أنهم يريدون اتقاء الإشكالات والمتاعب والمصاعب ، التي تنشأ من الاحتكام إلى شريعة الله ! ويريدون التوفيق بين العناصر المختلفة والاتجاهات المختلفة والعقائد المختلفة .. إنها حجة الذين يزعمون الإيمان — وهم غير مؤمنين —

وحجة المنافقين الملتوين .. هي هي دائماً وفي كل حين !

والله ـ سبحانه ـ يكشف عنهم هذا الرداء المستعار . ويخبر رسوله ﷺ أنه يعلم حقيقة ما تطوي عليه جوانحهم . ومع هذا يوجهه إلى أخذهم بالرفق ، والنصح لهم بالكف عن هذا الالتواء :

« أولئك الذين يعلم الله ما في قلوبهم . فأعرض عنهم وعظهم ، وقل لهم في أنفسهم قولا بليغا » ..

أولئك الذين يخفون حقيقة نواياهم وبواعثهم ؛ ويحتجون بهذه الحجج ، ويعتذرون بهذه المعاذير . والله يعلم خبايا الضمائر ومكنونات الصدور .. ولكن السياسة التي كانت متبعة — في ذلك الوقت — مع المنافقين كانت هي الإغضاء عنهم ، وأخذهم بالرفق ، واطراد الموعظة والتعليم ..

والتعبير العجيب :

« وقل لهم .. في أنفسهم .. قولا بليغا ».

تعبير مصور .. كأنما القول يودع مباشرة في الأنفس ، ويستقر مباشرة في القلوب .

وهو يرغبهم في العودة والتوبة والاستقامة والاطمئنان إلى كنف الله وكنف رسوله . . بعد كل ما بدا منهم من الميل إلى الاحتكام إلى الطاغوت ؛ ومن الصدود عن الرسول ﷺ حين يدعون إلى التحاكم إلى الله والرسول .. فالتوبة بابها مفتوح ، والعودة إلى الله لم يفت أوانها بعد ؛ واستغفارهم الله من الذنب ، واستغفار الرسول لهم ، فيه القبول ! ولكنه قبل هذا كله يقرر القاعدة الأساسية : وهي أن الله قد أرسل رسله ليطاعوا ـ بإذنه ـ لا ليخالف عن أمرهم . ولا ليكونوا مجرد وعاظ ! ومجرد مرشدين !

« وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله . ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك ، فاستغفروا الله ، واستغفر لهم الرسول ، لوجدوا الله توابا رحيما » ..

وهذه حقيقة لها وزنها .. إن الرسول ليس مجرد « واعظ » يلقي كلمته ويمضي . لتذهب في الهواء ـ بلا سلطان ـ كما يقول المخادعون عن طبيعة الدين وطبيعة الرسل ؛ أو كما يفهم الذين لا يفهمون مدلول « الدين » .

إن الدين منهج حياة . منهج حياة واقعية . بتشكيلاتها وتنظيماتها ، وأوضاعها ، وقيمها ، وأخلاقها وآدابها . وعباداتها وشعائرها كذلك .

وهذا كله يقضي أن يكون للرسالة سلطان . سلطان يحقق المنهج ، وتخضع له النفوس

خضوع طاعة وتنفيذ .. والله أرسل رسله ليطاعوا ـ بإذنه وفي حدود شرعه ـ في تحقيق منهج الدين . منهج الله الذي أراده لتصريف هذه الحياة . وما من رسول إلا أرسله الله ، ليُطاع ، بإذن الله . فتكون طاعته طاعة لله .. ولم يرسل الرسل لمجرد التأثر الوجـداني ، والشعائر التعبدية .. فهذا وهم في فهم الدين ؛ لا يستقيم مع حكمة الله من إرسال الرسل . وهي إقامة منهج معين للحياة ، في واقع الحياة .. وإلا فما أهون دنيا . كل وظيفة الرسول فيها أن يقف واعظاً . لا يعنيه إلا أن يقول كلمته ويمضي . يستهتر بها المستهترون ، ويبتذلها المبتذلون!!!

ومن هنا كان تاريخ الإسلام كما كان .. كان دعوة وبلاغا . ونظاما وحكما . وخلافة بعد ذلك عن رسول الله ﷺ تقوم بقوة الشريعة والنظام ، على تنفيذ الشريعة والنظام . لتحقيق الطاعة الدائمة للرسول . وتحقيق إرادة الله من إرسال الرسول . وليست هنالك صورة أخرى يقال لها الإسلام . أو يقال لها : الدين . إلا أن تكون طاعة للرسول ، محققة في وضع وفي تنظيم . ثم تختلف أشكال هذا الوضع ما تختلف ؛ ويبقى أصلها الثابت . وحقيقتها التي لا توجد بغيرها .. استسلام لمنهج الله ، وتحقيق لمنهج رسول الله . وتحاكم إلى شريعة الله . وطاعة للرسول فيما بلغ عن الله ، وإفراد لله ـ سبحانه ـ بالألوهية (شهادة أن لا إله إلا الله) ومن ثم إفراده بالحاكمية التي تجعل التشريع ابتداء حقا لله ، لا يشاركه فيه سواه . وعدم احتكام إلى الطاغوت . في كثير ولا قليل . والرجوع إلى الله والرسول ، فيما لم يرد فيـه نص من القضايا المستجدة ، والاحوال الطارئة ؛ حين تختلف فيه العقول ..

وأمام الذين « ظلموا أنفسهم » بميلهم عن هذا المنهج ، الفرصة التي دعا الله المنافقين إليها على عهد رسول الله ﷺ ورغبهم فيها . .

« ولو أنهم ـ إذ ظلموا أنفسهم ـ جـاءوك ، فاستغفروا الله ، واستغفر لهم الرسول ، لوجدوا الله تواباً رحيما » ..

والله تواب في كل وقت على من يتوب . والله رحيم في كل وقت على من يثوب . وهو ـ سبحانه ـ يصف نفسه بصفته . ويعد العائدين إليه ، المستغفرين من الذنب ، قبول التوبة وإفاضة الرحمة .. والذين يتناولهم هذا النص ابتداء ، كان لديهم فرصة استغفار الرسول ﷺ وقد انقضت فرصتها . وبقي باب الله مفتوحاً لا يغلق . ووعده قائماً لا ينقض . فمـن أراد فليقدم . ومن عزم فليتقدم . . .

وأخيراً يجيء ذلك الإيقاع الحاسم الجازم . إذ يقسم الله ـ سبحانه ـ بذاته العلية ، أنه لا يؤمن مؤمن ، حتى يحكم رسول الله ﷺ في أمره كله . ثم يمضي راضيـاً بحكمه ، مسلما

بقضائه . ليس في صدره حرج منه ، ولا في نفسه تلجلج في قبوله :

« فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم . ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ، ويسلموا تسليما » . .

ومرة أخرى تجدنا أمام شرط الإيمان وحدّ الإسلام . يقرره الله سبحانه بنفسه . ويقسم عليه بذاته . فلا يبقى بعد ذلك قول لقائل في تحديد شرط الإيمان وحـــدّ الإسلام ؛ ولا تأويل لمؤول .

اللهم إلا مماحكة لا تستحق الاحترام .. وهي أن هذا القول مرهون بزمان ، وموقوف على طائفة من الناس !

وهذا قول من لا يدرك من الاسلام شيئاً ؛ ولا يفقه من التعبير القرآني قليلا ولا كثيرا. فهذه حقيقة كلية من حقائق الاسلام ؛ جاءت في صورة قسم مؤكد ؛ مطلقة من كل قيد . . وليس هناك مجال للوهم أو الإيهام بأن تحكيم رسول الله ﷺ هو تحكيم شخصه . إنما هـــو تحكيم شريعته ومنهجه . وإلا لم يبق لشريعة الله وسنة رسوله مكان بعد وفاته ﷺ وذلك قول أشد المرتدين ارتداداً على عهد أبي بكر - رضي الله عنه - وهو الذي قاتلهم عليه قتال المرتدين . بل قاتلهم على ما هو دونه بكثير . وهو مجرد عدم الطاعة لله ورسوله ، في حـــكم الزكاة ؛ وعدم قبول حكم رسول الله فيها ، بعد الوفاة !

وإذا كان يكفي لإثبات « الاسلام » أن يتحاكم الناس إلى شريعة الله وحكم رسوله . . فإنه لا يكفي في « الإيمان » هذا ، ما لم يصحبه الرضى النفسي ، والقبـول القلبي ، وإسلام القلب والجنان ، في اطمئنان !

هذا هو الاسلام .. وهذا هو الايمان .. فلتنظر نفس أين هي من الإسلام ؛ وأين هي من الإيمان ! قبل ادعاء الإسلام وادعاء الإيمان !

***

وبعد أن يقرر أن لا ايمان قبل تحكيم رسول الله ﷺ وقبل الرضى والتسليم بقضائـه ، يعود ليقول : إن هذا المنهج الذي يدعون اليه ؛ وهذه الشريعة التي يقال لهم : تحاكموا اليها - لا لسواها - وهذا القضاء الذي يتحتم عليهم قبوله والرضاء به . . . إنه منهج ميسر ، وشريعة سمحة ، وقضاء رحيم .. إنه لا يكلفهم شيئاً فوق طاقتهم ؛ ولا يكلفهم عنتا يشق عليهم ؛ ولا يكلفهم التضحية بعزيز عليهم .. فالله يعلم ضعف الإنسان ؛ ويرحم هذا الضعف . والله يعلم

أنهم لو كلفوا تكاليف شاقة ، ما أداها إلا قليل منهم .. وهو لا يريد لهم العنت ، ولا يريد لهم أن يقعوا في المعصية .. ومن ثم لم يكتب عليهم ما يشق ، وما يدعو الكثيرين منهم للتقصير والمعصية . ولو أنهم استجابوا للتكاليف اليسيرة التي كتبها الله عليهم ؛ واستمعوا للموعظة التي يعظهم الله بها ؛ لنالوا خيراً عظيما في الدنيا والآخرة ؛ ولأعانهم الله بالهدى ، كما يعين كل من يجاهد للهدى بالعزم والقصد والعمل والإرادة ، في حدود الطاقة :

« ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم ، أو اخرجوا من دياركم ما فعلوه — إلا قليل منهم — ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به ، لكان خيرا لهم وأشد تثبيتاً ؛ وإذن لآتيناهم من لدنا أجراً عظيما ؛ ولهديناهم صراطا مستقيما » ..

إن هذا المنهج ميسر لينهض به كل ذي فطرة سوية . إنه لا يحتاج للعزائم الخارقة الفائقة ، التي لا توجد عادة الا في القلة من البشر . وهذا الدين لم يجيء لهذه القلة القليلة . انه جاء للناس جميعاً . والناس معادن ، وألوان ، وطبقات . من ناحية القدرة على النهوض بالتكاليف . وهذا الدين ييسر لهم جميعاً أن يؤدوا الطاعات المطلوبة فيه ، وأن يكفوا عن المعاصي التي نهى عنها.

وقتل النفس ، والخروج من الديار . . مثلان للتكاليف الشاقة ، التي لو كتبت عليهم ما فعلها الا قليل منهم . وهي لم تكتب لأنه ليس المراد من التكاليف أن يعجز عنها عامة الناس؛ وأن ينكل عنها عامة الناس . بل المراد أن يؤديها الجميع ، وأن يقدر عليها الجميع ، وأن يشمل موكب الايمان كل النفوس السوية العادية ؛ وأن ينتظم المجتمع المسلم طبقات النفوس، وطبقات الهمم ، وطبقات الاستعدادات ؛ وأن ينميها جميعاً ويرقيها ، في أثناء سير الموكب الحافل الشامل العريض !

قال ابن جريج : حدثنا المثنى اسحاق أبو الأزهر ، عن اسماعيل ، عن أبي اسحاق السبيعي قال : لما نزلت : « ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم » ... الآية : قال رجل : لو أمرنا لفعلنا ، والحمد لله الذي عافانا .. فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال : « ان من أمتي لرجالا الإيمان أثبت في قلوبهم من الجبال الرواسي » .

وروى ابن أبي حاتم — بإسناده — عن مصعب بن ثابت . عن عمه عامر بن عبد الله بن الزبير . قال : لما نزلت « ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا انفسكم او اخرجوا من دياركم ما فعلوه الا قليل منهم » قال رسول الله ﷺ : « لو نزلت لكان ابن أم عبد منهم » . .

وفي رواية له — بإسناده — عن شريح بن عبيد : قال : لما تلا رسول الله ﷺ هذه الآية : « ولو أنا كتبنا عليهم ان اقتلوا أنفسكم .. » الآية ، أشار رسول الله ﷺ بيده الى عبد الله

ابن رواحة ، فقال : « لو أن الله كتب هذا ، لكان هذا من أولئك القليل» :

وكان رسول الله ﷺ يعرف رجاله معرفة وثيقة عميقة دقيقة ؛ ويعرف من خصائص كل منهم ما لا يعرفه كل منهم عن نفسه ! وفي السيرة من هذا الكثير من الشواهد على خبرة الرسول ﷺ بكل واحد من رجاله ؛ وخبرته كذلك بالرجال والقبائل التي كانت تحاربه .. خبرة القائد البصير بكل ما حوله ومن حوله .. في دقة عجيبة .. لم تدرس بعد الدراسة الواجبة .

وليس هذا موضوعنا . ولكن موضوعنا أن رسول الله ﷺ كان يعرف أن في امته من ينهض بالتكاليف الشاقة لو كتبت عليهم . ولكنه كان يعرف كذلك أن الدين لم يجيء لهذه القلة الممتازة في البشرية كلها . وكان الله – سبحانه – يعلم طبيعة هذا « الإنسان » الذي خلقه ، وحدود طاقته ؛ فلم يكتب على الناس في الدين الذي جاء للبشر أجمعين ، الا ما هو ميسر للجميع ؛ حين تصح العزيمة ، وتعتدل الفطرة ، وينوي العبد الطاعة ، ولا يستهتر ولا يستهين .

وتقرير هذه الحقيقة ذو أهمية خاصة ؛ في مواجهة الدعوات الهدامة ؛ التي تدعو الانسان إلى الانحلال والحيوانية ، والتلبط في الوحل كالدود ! بحجة أن هذا هو « واقع » الإنسان ، وطبيعته وفطرته وحدود طاقته ! وأن الدين دعوة « مثالية » لم تجيء لتحقق في واقع الأرض؛ وإذا نهض بتكاليفها فرد ، فإن مئة لا يطيقون !

هذه دعوى كاذبة أولا ؛ وخادعة ثانياً ؛ وجاهلة ثالثاً .. لأنها لا تفهم « الإنسان » ولا تعلم منه ما يعلمه خالقه ، الذي فرض عليه تكاليف الدين ؛ وهو يعلم – سبحانه – أنها داخلة في مقدور الإنسان العادي . لأن الدين لم يجيء للقلائل الممتازين !

وإن هي إلا العزيمة – عزيمة الفرد العادي – وإخلاص النية . والبدء في الطريق . وعندئذ يكون ما يعد الله به العاملين :

« ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به لكان خيراً لهم وأشد تثبيتاً . وإذا لآتيناهم من لدنا أجرا عظيما . ولهديناهم صراطا مستقيما » ..

فمجرد البدء ، يتبعه العون من الله . ويتبعه التثبيت على المضي في الطريق . ويتبعه الأجر العظيم . وتتبعه الهداية إلى الطريق المستقيم .. وصدق الله العظيم .. فما يخدع الله – سبحانه وتعالى – عباده ؛ ولا يعدهم وعدا لا يفي لهم به ؛ ولا يحدثهم إلا حديث الصدق .. « ومن أصدق من الله حديثا » ؟

في الوقت ذاته ليس اليسر — في هذا المنهج — هو الترخص . ليس هو تجميع الرخص كلها في هذا الدين وجعلها منهج الحياة . فهذا الدين عزائم ورخص . والعزائم هي الأصل والرخص للملابسات الطارئة .. وبعض المخلصين حسني النية ، الذين يريدون دعوة الناس إلى هذا الدين ، يعمدون إلى « الرخص » فيجمعونها ويقدمونها للناس ، على أنها هي هذا الدين . ويقولون لهم : انظروا كم هو ميسر هـــذا الدين ! وبعض الذين يتملقون شهوات السلطان أو شهوات الجماهير ، يبحثون عن « منافذ » لهذه الشهوات من خلال الأحكام والنصوص ؛ ويجعلون هذه المنافذ هي الدين !

وهذا الدين ليس هذا وليس ذاك . إنما هو بجملته . برخصه وعزائمه . ميسر للناس يقدر عليه الفرد العادي ، حين يعزم. ويبلغ فيه تمام كماله الذاتي في حدود بشريته — كما يبلغ تمام كماله الذاتي في الحديقة الواحدة : العنب والخوخ والكمثرى والتوت والتين والقثاء . . ولا تكون كلها ذات طعم واحد . . ولا يقال عن أحدها : إنه غير ناضج — حين يبلغ نضجه الذاتي — إذا كان طعمه أقل مرتبة من النوع الآخر !

في حديقة هذا الدين ينبت البقل والقثاء ؛ وينبت الزيتون والرمـــان ، وينبت التفاح والبرقوق ، وينبت العنب والتين .. وينضج كله ؛ مختلفة طعومه ورتبـــه .. ولكنه كله ينضج . ويبلغ كماله المقدر له ..

إنها زرعة الله .. في حقل الله .. برعاية الله .. وتيسير الله [1] ..

***

وفي نهاية هذه الجولة ، ونهاية هـــذا الدرس ، يعود السياق إلى الترغيب ؛ واستجاشة القلوب ؛ والتلويح للأرواح بالمتاع الحبيب .. متـــاع الصحبة في الآخرة للنبيين والصديقين والشهداء والصالحين .

« ومن يطع الله والرسول ، فأولئك مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين . وحسن أولئك رفيقا ! ذلك الفضل من الله ، وكفى بالله عليما » . .

إنها اللمسة التي تستجيش مشاعر كل قلب ، فيه ذرة من خير ؛ وفيه بذرة من صلاح ؛ وفيه أثارة من التطلع إلى مقام كريم في صحبة كريمة ، في جوار الله الكريم .. وهذه الصحبة

(١) يراجع فصل : (منهج ميسر) في كتاب : (هذا الدين) وفصل : (نظام انساني) وفصل (نظام اخلاقي) في كتاب (نحو مجتمع اسلامي) .

لهذا الرهط العلوي .. إنما هي من فضل الله . فما يبلغ إنسان بعمله وحده وطاعته وحدها أن ينالها .. إنما هو الفضل الواسع الغامر الفائض العميم .

ويحسن هنا أن نعيش لحظات مع صحابة رسول الله ﷺ وهم يتشوقون إلى صحبته في الآخرة؛ وفيهم من يبلغ به الوجد ألا يمسك نفسه عند تصور فراقه.. وهو ﷺ بين ظهرانيهم. فتنزل هذه الآية : « فتندى هذا الوجد ؛ وتبل هذه اللهفة .. الوجد النبيل . واللهفة الشفيفة: قال ابن جرير : حدثنا ابن حميد ، حدثنا يعقوب السقمي ، عن جعفر بن أبي المغيرة ، عن سعيد بن جبير . قال : جاء رجل من الأنصار إلى رسول الله ﷺ وهو محزون . فقال له النبي ﷺ : يا فلان . « مالي أراك محزونا ؟ » فقال : يا نبي الله . شيء فكرت فيه : فقال : « ما هو ؟ » قال : نحن نغدو عليك ونروح . ننظر الى وجهك ، ونجالسك وغدا ترفع مع النبيين ، فلا نصل اليك .. فلم يرد عليه النبي ﷺ شيئاً . فأتاه جبريل بهذه الآية : « ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين » . الآية ، فبعث النبي ﷺ فبشره .

وقد رواه أبو بكر بن مردويه مرفوعا – بإسناده – عن عائشة – رضي الله عنها – قالت « جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله . إنك احب الي من نفسي ، وأحب إلي من أهلي ، وأحب الي من ولدي . واني لأكون في البيت ، فأذكرك ، فما أصبر حتى آتيك فأنظر اليك . وإذا ذكرت موتي وموتك عرفت أنك إذا دخلت الجنة رفعت مع النبيين ، وان دخلت الجنة خشيت ألا أراك . فلم يرد عليه النبي ﷺ حتى نزلت : « ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا » ..

وفي صحيح مسلم من حديث عقل بن زياد ، عن الأوزاعي ، عن يحيى بن كثير ، عن أبي سلمة بن عبد الرحمن، عن ربيعة بن كعب الأسلمي ، أنه قال : كنت أبيت عند رسول الله ﷺ فأتيته بوضوئه وحاجته . فقال لي : « سل » . فقلت يا رسول الله أسألك مرافقتك في الجنة . فقال : « أو غير ذلك » . قلت : هو ذاك . قال : « فأعني على نفسك بكثرة السجود » .

وفي صحيح البخاري من طرق متواترة عن جماعة من الصحابة أن رسول الله ﷺ سئل عن الرجل يحب القوم ولما يلحق بهم ، فقال : « المرء مع من أحب » .. قال أنس : فما فرح المسلمون فرحهم بهذا الحديث . .

لقد كان الأمر يشغل قلوبهم وأرواحهم . . أمر الصحبة في الآخرة .. وقد ذاقوا طعم الصحبة في الدنيا ! وإنه لأمر يشغل كل قلب ذاق محبة هذا الرسول الكريم .. وفي الحديث الأخير أمل وطمأنينة ونور ...

« يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ ، فَانْفِرُوا ثُبَاتٍ ، أَوِ ٱنْفِرُوا جَمِيعاً (٧١) وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ ، فَإِنْ أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ ، قَالَ : قَدْ أَنْعَمَ ٱللهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيداً (٧٢) وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِنَ ٱللهِ لَيَقُولَنَّ ــ كَأَن لَمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ ــ : يَا لَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزاً عَظِيماً » (٧٣) .

« فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَاةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْآخِرَةِ . وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ ، فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً (٧٤) وَمَا لَكُمْ لاَ تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَاءِ وَٱلْوِلْدَانِ ، ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ : رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا ، وَٱجْعَلْ لَنَا مِن لَدُنْكَ وَلِيًّا ، وَٱجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيراً ؟ (٧٥) ٱلَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللهِ ، وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱلطَّاغُوتِ . فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ ٱلشَّيْطَانِ ، إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفاً » (٧٦) .

« أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ : كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ ، وَأَقِيمُوا ٱلصَّلَاةَ ، وَآتُوا ٱلزَّكَاةَ . فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ ، إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ

ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللهِ ، أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ، وَقَالُوا : رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ ؟ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ ! قُلْ : مَتَاعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ، وَٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ ٱتَّقَى ، وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا (٧٧) أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ ٱلْمَوْتُ — وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ — وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا : هٰذِهِ مِنْ عِنْدِ ٱللهِ ، وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا : هٰذِهِ مِنْ عِنْدِكَ ! قُلْ : كُلٌّ مِنْ عِنْدِ ٱللهِ . فَمَالِ هٰؤُلَاءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثاً ؟! (٧٨) مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللهِ ، وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ . وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا ، وَكَفَى بِاللهِ شَهِيداً (٧٩) مَنْ يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللهَ ، وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً (٨٠) وَيَقُولُونَ : طَاعَة . فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ ٱلَّذِي تَقُولُ ! — وَٱللهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُون — فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللهِ ، وَكَفَى بِاللهِ وَكِيلًا (٨١) أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْآنَ ؟ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ ٱللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ ٱخْتِلَافاً كَثِيراً (٨٢) وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ . وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ ، لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ . وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَانَ ، إِلَّا قَلِيلًا » (٨٣) .

« فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللهِ ، لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ ، وَحَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ، عَسَى ٱللهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا ، وَٱللهُ أَشَدُّ بَأْساً ، وَأَشَدُّ

تَنْكِيلًا(٨٤) مَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا ، وَمَنْ يَشْفَعْ
شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا ، وَكَانَ ٱللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقِيتاً (٨٥)
وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا ، أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ ٱللهَ كَانَ عَلَى
كُلِّ شَيْءٍ حَسِيباً » (٨٦) .

نرجح أن تكون مجموعة هذه الآيات الواردة في هذا الدرس ، نزلت في وقت مبكر . . ربما كان ذلك بعد غزوة أحد ، وقبل الخندق ، فصورة الصف المسلم التي تبدو من خلال هذه الآيات توحي بهذا . توحي بوجود جماعات منوعة في داخل الصف ، لم تتضج بعد ؛ أو لم تؤمن إنما هي تنافق ! وتوحي بأن الصف كان في حاجة الى جهود ضخمة من التربية والتوجيه ، ومن الاستنهاض والتشجيع ، لينهض بالمهمة الضخمة الملقاة على عاتق الجماعة المسلمة ؛ والارتفاع إلى مستوى هذه المهمة . سواء في التصورات الاعتقادية ؛ أو في خوض المعركة مع المعسكرات المعادية .

وهذا الذي نقرره لا يطعن في الحقيقة الاخرى . حقيقة أنه كان في هذا الصف من النماذج المسلمة من استوى على القمة السامقة ؛ وصعد المرتقى إلى هذه القمة .. ووصل .. ولكننا إنما نتحدث عن « الصف المسلم » ككل . وكبناء مختلط ولكنه غير متجانس ؛ وهو في هذه الحالة يحتاج إلى الجهد الجاهد لتسويته وتنسيقه ؛ بما هو ظاهر في هذه التوجيهات القرآنية الكثيرة .

والتدقيق في الملامح التي تبدو من خلال هذه التوجيهات ، يجعلنا نعيش مع الجماعة المسلمة في صورتها البشرية التي كثيراً ما ننساها ! ونرى فيها مواضع الضعف ومواضع القوة . ونرى كيف كان القرآن يخوض المعركة مع الضعف البشري ومع رواسب الجاهلية ومع المعسكرات المعادية في وقت واحد . ونرى منهج القرآن في التربية — وهو يعمل في النفوس الحية في عالم الواقع — ونرى طرفا من الجهد الموصول الذي بذله هذا المنهج ، حتى انتهى بهذه المجموعة — المختلفة الدرجات ، المختلفة السمات ، الملتقطة ابتداء من سفح الجاهلية — إلى ذلك التناسق والتكامل والارتقاع ، الذي نشهده في أواخر أيام الرسول ﷺ بقدر ما تسمح به الفطرة

البشرية كذلك !

وهذا يفيدنا .. يفيدنا كثيرا . .

يفيدنا في إدراك طبيعة النفس البشرية ، وما تحمله من استعدادات الضعف واستعدادات القوة ، متمثلة في خير الجماعات .. الجماعة التي رباها رسول الله ﷺ بالمنهج القرآني ..

ويفيدنا في إدراك طبيعة المنهج القرآني في التربية ؛ وكيف كان يأخذ هذه النفوس ؛ وكيف كان يتلطف لها ؛ وكيف كان ينسق الصف ، الذي يحتوي على نماذج شتى من مستويات شتى . حيث نراه وهو يعمل في عالم الواقع . . على الطبيعة . !

ويفيدنا في أن نقيس حالنا وحال المجموعات البشرية ؛ على واقع النفس البشرية ، ممثلة في تلك الجماعة المختارة .. كي لا نيأس من أنفسنا حين نطلع على مواضع الضعف ، فنترك العلاج والمحاولة ! وكي لا تبقى الجماعة الأولى — على كل فضلها — مجرد حلم طائر في خيالنا ، لامطمع لنا في محاولة السير على خطاها . من السفح الهابط ، في المرتقى الصاعد ، إلى القمة السامقة !

وكل هذه ذخيرة ، حين نخرج بها — من الحياة في ظلال القرآن — نكون قد جنينا خيراً كثيراً إن شاء الله ..

إن من خلال هذه المجموعة من آيات هذا الدرس يبدو لنا أنه كان في الصف المسلم يومذاك :

« ا » من يبطيء نفسه عن الجهاد في سبيل الله ، ومن يبطيء غيره . ثم يحسبها غنيمة إذ لم يخرج فسلم ، على حين أصابت المسلمين مصيبة ! كما يعدها خسارة إذ لم يخرج فغنم المسلمون ، لأنه لم يكن له سهم في الغنيمة ! وبذلك يشترى الدنيا بالآخرة !

« ب » وكان فيه من المهاجرين أنفسهم — وممن كانت تأخذهم الحماسة للقتال ودفع العدوان وهم في مكة ، مكفوفون عن القتال — من يأخذهم الجزع حينما كتب عليهم القتال في المدينة ؛ ويتمنى لو أن الله أمهلهم إلى أجل ، ولم يكتب عليهم القتال الآن !

« ج » ومن كان يرجع الحسنة — حين تصيبه — إلى الله ؛ ويرجع السيئة — حين تصيبه — إلى النبي ﷺ لا لشدة إيمانه بالله طبعاً ؛ ولكن لتجريح القيادة والتطير بها !

« د » ومن كان يقول : طاعة ، في حضرة الرسول ﷺ فإذا خرج بيت هو ومن لف لفه غير الذي يقول !

« هـ » ومن كان يتناول الشائعات ، فيذيع بها في الصف ؛ محدثا بها ما يحدثه من البلبلة ، قبل أن يتثبت منها ، من القيادة التي يتبعها !

« و » ومن كان يشك في أن مصدر هذه الأوامر والتوجيهات كلها هو الله سبحانه. ويظن أن بعضها من عند النبي ﷺ لا مما أوحى له به !

« ز » ومن كان يدافع عن بعض المنافقين — كما سيأتي في مطلع الدرس التالي — حتى لتنقسم الجماعة المسلمة في أمرهم فئتين .. مما يوحي بعدم التناسق في التصور الإيماني وفي التنظيم القيادي (من ناحية عدم فهم المجموع لوظيفة القيادة وعلاقتهم بها في مثل هذه الشؤون) ..

وقد يكون هؤلاء جميعاً مجموعة واحدة من المنافقين ؛ أو مجموعتين : المنافقين . وضعاف الإيمان ؛ الذين لم تنضج شخصيتهم الإيمانية — ولو كان بعضهم من المهاجرين .. ولكن وجود تلك المجموعة أو هاتين المجموعتين في الصف المسلم — وهو يواجه العداوات المحيطة به في المدينة من اليهود ، وفي مكة من المشركين ؛ وفي الجزيرة العربية كلها من المتربصين . . من شأنه أن يحدث خلخلة في الصف ؛ تحتاج إلى تربية طويلة ، وإلى جهاد طويل !

ونحن نرى في هذا الدرس نماذج من هذا الجهاد ، ومن هذه التربية . وعلاجا لكل خبيئة في النفس أو في الصف . في دقة ، وفي عمق ، وفي صبر كذلك ، يتمثل في صبر النبي ﷺ قائد هذا الصف ، الذي يتولى تربيته بالمنهج القرآني :

« ا » نرى الأمر بالحذر ، فلا يخرج المجاهدون المؤمنون فرادى ، للسرايا أو المهام الجهادية. بل يخرجون « ثبات » أي سرايا أو فصائل .. أو يخرجون جميعاً في جيش متكامل. لأن الأرض حولهم ملغمة! والعداوات حولهم شتى ، والكمين قد يكون كامناً بينهم من المنافقين ، أو ممن يؤويهم المنافقون واليهود من عيون الأعداء المتربصين !

« ب » ونرى تصويراً منفراً للمبطئين يبدو فيه سقوط الهمة ؛ وحب المنفعة القريبة ؛ والتلون من حال إلى حال ، حسب اختلاف الأحوال ! وكذلك نرى التعجيب من حال أولئك الذين كانوا شديدي التحمس في مكة للقتال ، فلما كتب عليهم في المدينة عراهم الجزع .

« ج » ونرى وعد الله لمن يقاتلون في سبيل الله ، بالأجر العظيم ، وإحدى الحسنيين : « ومن يقاتل في سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجراً عظيما » . .

« د » ونرى تصوير القرآن لشرف القصد ، وارتفاع الهدف ، ونبل الغاية ، في القتال الذي يدفعهم اليه .. « في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان ، الذين يقولون : ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها ، واجعل لنا من لدنك وليا واجعل لنا من لدنك نصيراً » ..

« هـ » كما نرى تصوير القرآن لأحقية الغاية التي يجاهد لها الذين آمنوا وقوة السند ؛ إلى جانب بطلان غاية الذين كفروا وضعف سندهم فيها : « الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله ، والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت . فقاتلوا أولياء الشيطان إن كيد الشيطان كان ضعيفاً » . .

« و » ونرى معالجة المنهج القرآني للتصورات الفاسدة ، التي تنشأ عنها المشاعر الفاسدة والسلوك الضعيف . وذلك بتصحيح هذه التصورات الاعتقادية .. مرة في بيان حقيقة الدنيا وحقيقة الآخرة : « قل : متاع الدنيا قليل ، والآخرة خير لمن اتقى ، ولا تظلمون فتيلا » .. ومرة في تقرير حتمية الموت ونفاذ المقدر فيه ؛ مهما يتخذ المرء من الاحتياط ، ومهما ينكل عن الجهاد : « أينما تكونوا يدرككم الموت ، ولو كنتم في بروج مشيدة » . . ومرة في تقرير حقيقة قدر الله وعمل الانسان : « وإن تصبهم حسنة يقولوا : هذه من عند الله . وان تصبهم سيئة يقولوا : هذه من عندك . قل : كل من عند الله . فمال هؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً ؟ ما أصابك من حسنة فمن الله ، وما أصابك من سيئة فمن نفسك » ..

« ز » ونرى القرآن يؤكد حقيقة الصلة بين الله ـ سبحانه ـ ورسوله ﷺ وأن طاعته من طاعته . ويقرر أن هذا القرآن كله من عنده ؛ ويدعوهم إلى تدبر الوحدة الكاملة فيه ، الدالة على وحدة مصدره : « من يطع الرسول فقد أطاع الله » . . أفلا يتدبرون القرآن ؟ ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً » .

« ح » ثم نراه ـ بعد أن يصف حال المرجفين بالانباء ـ يوجههم إلى الطريق الاسلم ، المتفق مع قاعدة التنظيم القيادي للجماعة : « ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولي الامر منهم ، لعلمه الذين يستنبطونه منهم » ..

« ط » ويحذرهم من عاقبة هذا الطريق ، وهو يذكرهم فضل الله عليهم في هدايتهم : « ولولا فضل الله عليكم ورحمته لاتبعتم الشيطان إلا قليلًا » ..

ونستطيع أن ندرك مدى الخلخلة التي كانت تنشئها هذه الظواهر في الجماعة المسلمة ؛ والتي كانت تحتاج إلى مثل هذا الجهد الموصول ، المنوع الأساليب . . حين نسمع الله ـ سبحانه ـ يأمر نبيه ﷺ بأن يجاهد ـ ولو كان وحيداً ـ وأن يحرض المؤمنين على القتال . فيكون مسئولا عن نفسه فحسب : والله يتولى المعركة : « فقاتل في سبيل الله ـ لا تكلف إلا نفسك ـ وحرض المؤمنين ، عسى الله أن يكف بأس الذين كفروا والله أشد بأساً وأشد تنكيلا » .. وفي هذا الأسلوب ما فيه من استجاشة القلوب ، واستثارة الهمم ؛ بقدر ما فيه

من استجاشة الأمل في النصر ، والثقة بأس الله وقوته ..

لقد كان القرآن يخوض المعركة بالجماعة المسلمة في ميادين كثيرة . وكان أولها ميدان النفس ضد الهواجس والوساوس وسوء التصور ورواسب الجاهلية ، والضعف البشري ـ حتى ولو لم يكن صادراً عن نفاق أو انحراف ـ وكان يسوسها بمنهجه الرباني لتصل إلى مرتبة القوة، ثم إلى مرتبة التناسق في الصف المسلم . وهذه غاية أبعد وأطول أمداً . فالجماعة حين يوجد فيها الأقوياء كل القوه ، لا يغنيها هذا ، إذا وجدت اللبنات المخلخلة في الصف بكثرة . . ولا بد من التناسق مع اختلاف المستويات .. وهي تواجه المعارك الكبيرة .

والآن نأخذ في مواجهة النصوص مواجهة تفصيلية :

* * *

« يا أيها الذين آمنوا خذوا حذركم . فانفروا ثبات ، أو انفروا جميعاً . وإن منكم لمن ليبطئن . فإن أصابتكم مصيبة قال : قد أنعم الله عليّ ، إذ لم أكن معهم شهيداً . ولئن أصابكم فضل من الله ليقولن — كأن لم تكن بينكم وبينه مودة — يا ليتني كنت معهم ، فأفوز فوزاً عظيما » ..

إنها الوصية للذين آمنوا . الوصية من القيادة العليا ، التي ترسم لهم المنهج ، وتبين لهم الطريق . وإن الإنسان ليعجب ، وهو يراجع القرآن الكريم ؛ فيجد هذا الكتاب يرسم للمسلمين — بصفة عامة طبعاً — الخطة العامة للمعركة وهي ما يعرف باسم «استراتيجية المعركة». ففي الآية الأخرى يقول للذين آمنوا : « يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار ، وليجدوا فيكم غلظة » . فيرسم الخطة العامة للحركة الإسلامية . وفي هذه الآية يقول للذين آمنوا : « خذوا حذركم فانفروا ثبات أو انفروا جميعاً » وهي تبين ناحية من الخطة التنفيذية أو ما يسمى « التاكتيك » . وفي سورة الانفال جوانب كذلك في الآيات : « فإما تثقفنهم في الحرب فشرد بهم من خلفهم لعلهم يذكرون .... الآيات »

وهكذا نجد هذا الكتاب لا يعلم المسلمين العبادات والشعائر فحسب ؛ ولا يعلمهم الآداب والأخلاق فحسب ـ كما يتصور الناس الدين ذلك التصور المسكين ! إنما هو يأخذ حياتهم كلها جملة . ويعرض كل ما تتعرض له حياة الناس من ملابسات واقعية .. ومن ثم يطلب ـ بحق ـ الوصاية التامة على الحياة البشرية ؛ ولا يقبل من الفرد المسلم ولا من المجتمع المسلم ، أقل من أن تكون حياته بجملتها من صنع هذا المنهج ، وتحت تصرفه وتوجيهه . وعلى

وجه التحديد لا يقبل من الفرد المسلم ، ولا من المجتمع المسلم أن يجعل لحياته مناهج متعددة المصادر : منهجاً للحياة الشخصية والشعائر والعبادات ، والأخلاق والآداب ، مستمداً من كتاب الله . ومنهجاً للمعاملات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والدولية، مستمداً من كتاب أحد آخر ؛ أو من تفكير بشري على الإطلاق ! إن مهمة التفكير البشري أن تستنبط من كتاب الله ومنهجه أحكاما تفصيلية تطبيقية لأحداث الحياة المتجددة ، وأقضيتها المتطورة — بالطريقة التي رسمها الله في الدرس السابق من هذه السورة — ولا شيء وراء ذلك . وإلا فلا إيمان أصلا ولا إسلام . لا إيمان ابتداء ولا إسلام ، لأن الذين يفعلون ذلك لم يدخلوا بعد في الإيمان ، ولم يعترفوا بعد بأركان الإسلام . وفي أولها : شهادة أن لا إله إلا الله التي ينشأ منها ان لا حاكم إلا الله ، وأن لا مشرع إلا الله.

وها هو ذا كتاب الله يرسم للمسلمين جانباً من الخطة التنفيذية للمعركة ؛ المناسبة لموقفهم حينذاك . ولوجودهم بين العداوات الكثيرة في الخارج. والمنافقين وحلفائهم اليهود في الداخل وهو يحذرهم ابتداء :

« يا أيها الذين آمنوا خذوا حذركم » ..

خذوا حذركم من عدوكم جميعاً . وبخاصة المندسين في الصفوف من المبطئين ، الذين سيرد ذكرهم في الآية :

« فأنفروا ثبات أو انفروا جميعاً » ..

ثبات . جمع ثبة : أي مجموعة .. والمقصود لا تخرجوا للجهاد فرادى .. ولكن اخرجوا مجموعات صغيرة ، أو الجيش كله .. حسب طبيعة المعركة .. ذلك أن الآحاد قد يتصيدهم الأعداء ، المبثوثون في كل مكان . وبخاصة إذا كان هؤلاء الأعداء منبثين في قلب المعسكر الاسلامي .. وهم كانوا كذلك ، ممثلين في المنافقين ، وفي اليهود ، في قلب المدينة .

« وإن منكم لمن ليبطئن . فإن أصابتكم مصيبة قال : قد أنعم الله عليّ إذ لم أكن معهم شهيداً . ولئن أصابكم فضل من الله ليقولن — كأن لم تكن بينكم وبينه مودة — يا ليتني كنت معهم فأفوز فوزاً عظيماً » ..

انفروا جماعات نظامية . أو انفروا جميعاً . ولا ينفر بعضكم ويتثاقل بعضكم — كما هو واقع — وخذوا حذركم . لا من العدو الخارجي وحده ؛ ولكن كذلك من المعوقين المبطئين المخذلين ؛ سواء كانوا يبطئون أنفسهم — أي يقعدون متثاقلين — أو يبطئون غيرهم معهم ؛ وهو الذي يقع عادة من المخذلين المثبطين !

ولفظة « ليبطئن » مختارة هنا بكل ما فيها من ثقل وتعثر ؛ وإن اللسان ليتعثر في حروفها وجرسها ، حتى يأتي على آخرها ، وهو يشدها شداً ؛ وإنها لتصور الحركة النفسية المصاحبة لها تصويراً كاملاً بهذا التعثر والتثاقل في جرسها . وذلك من بدائع التصوير الفني في القرآن ، الذي يرسم حالة كاملة بلفظة واحدة[1] .

وكذلك يشي تركيب الجملة كلها : « وإن منكم لمن ليبطئن » ، بأن هؤلاء المبطئين — وهم معدودون من المسلمين — « منكم » يزاولون عملية التبطئة كاملة ، ويصرون عليها إصراراً ، ويجتهدون فيها اجتهاداً .. وذلك بأسلوب التوكيد بشتى المؤكدات في الجملة ! مما يوحي بشدة إصرار هذه المجموعة على التبطئة ، وشدة أثرها في الصف المسلم ، وشدة ما يلقاه منها !

ومن ثم يسلط السياق الأضواء الكاشفة عليهم ، وعلى دخيلة نفوسهم ؛ ويرسم حقيقتهم المنفرة ، على طريقة القرآن التصويرية العجيبة :

فها هم أولاء ، بكل بواعثهم ، وبكل طبيعتهم وبكل أعمالهم وأقوالهم .. ها هم أولاء مكشوفين للأعين ، كما لو كانوا قد وضعوا تحت مجهر ، يكشف النوايا والسرائر ؛ ويكشف البواعث والدوافع .

ها هم أولاء كما كانوا على عهد الرسول ﷺ وكما يكونون في كل زمان وكل مكان . ها هم أولاء . ضعافاً منافقين ملتوين ؛ صغار الاهتمامات أيضاً . لا يعرفون غاية أعلى من صالحهم الشخصي المباشر ، ولا أفقاً أعلى من ذواتهم المحدودة الصغيرة . فهم يديرون الدنيا كلها على محور واحد . وهم هم هذا المحور الذي لا ينسونه لحظة !

إنهم يبطئون ويتلكأون ، ولا يصارحون ، ليمسكوا العصا من وسطها كما يقال ! وتصورهم للربح والخسارة هو التصور الذي يليق بالمنافقين الضعاف الصغار :

يتخلفون عن المعركة .. فإن أصابت المجاهدين محنة ، وابتلوا الابتلاء الذي يصيب المجاهدين — في بعض الأحايين — فرح المتخلفون ؛ وحسبوا أن فرارهم من الجهاد ، ونجاتهم من الابتلاء نعمة :

« فإن أصابتكم مصيبة قال : قد أنعم الله عليّ إذ لم أكن معهم شهيداً » ..

إنهم لا يخجلون — وهم يعدون هذه النجاة مع التخلف نعمة — أن ينسبوها لله . الله الذي خالفوا عن أمره فقعدوا ! والنجاة في هذه الملابسة لا تكون من نعمة الله أبداً . فنعمة الله

---

(1) يراجع فصل (التناسق الفني) في كتاب : (التصوير الفني في القرآن) .

لا تنال بالمخالفة . ولو كان ظاهرها نجاة !

إنها نعمة ! ولكن عند الذين لا يتعاملون مع الله . عند من لا يدركون لماذا خلقهم الله . ولا يعبدون الله بالطاعة والجهاد لتحقيق منهجه في الحياة . نعمة عند من لا يتطلعون إلى آفاق أعلى من مواطيء الأقدام في هذه الأرض .. كالنمال .. نعمة عند من لا يحسون أن البلاء — في سبيل الله وفي الجهاد لتحقيق منهج الله وإعلاء كلمة الله — هو فضل واختيار من الله ، يختص به من يشاء من عباده ؛ ليرفعهم في الحياة الدنيا على ضعفهم البشري ، ويطلقهم من إسار الأرض يستشرفون حياة رفيعة ، يملكونها ولا تملكهم . وليؤهلهم بهذا الانطلاق وذلك الارتفاع للقرب منه في الآخرة .. في منازل الشهداء ..

إن الناس كلهم يموتون! ولكن الشهداء - في سبيل الله - هم وحدهم الذين «يستشهدون».. وهذا فضل من الله عظيم .

فأما إذا كانت الأخرى . . فانتصر المجاهدون ؛ الذين خرجوا مستعدين لقبول كل منا يأتيهم به الله .. ونالهم فضل من الله بالنصر والغنيمة .. ندم المتخلفون أن لم يكونوا شركاء في معركة رابحة ! رابحة بحسب مفهومهم القريب الصغير للربح والخسارة !

« ولئن أصابكم فضل من الله ، ليقولن - كأن لم تكن بينكم وبينه مودة - يا ليتني كنت معهم فأفوز فوزاً عظيما » .

إنها أمنية الفوز الصغير بالغنيمة والإياب ، هي التي يقولون عنها : « فوزاً عظيما » والمؤمن لا يكره الفوز بالإياب والغنيمة ؛ بل مطلوب منه أن يرجوه من الله. والمؤمن لا يتمنى وقوع البلاء بل مطلوب منه أن يسأل الله العافية .. ولكن التصور الكلي للمؤمن غير هذا التصور ، الذى يرسمه التعبير القرآني لهذه الفئة رسماً مستنكراً منفراً ..

إن المؤمن لا يتمنى البلاء بل يسأل الله العافية . ولكنه إذا ندب للجهاد خرج — غير متثاقل — خرج يسأل الله إحدى الحسنيين : النصر أو الشهادة. وكلاهما فضل من الله؛ وكلاهما فوز عظيم . فيقسم له الله الشهادة ، فإذا هو راض بما قسم الله ؛ أو فرح بمقام الشهادة عند الله . ويقسم له الله الغنيمة والإياب ، فيشكر الله على فضله ، ويفرح بنصر الله . لا لمجرد النجاة !

وهذا هو الأفق الذي أراد الله أن يرفع المسلمين إليه ؛ وهو يرسم لهم هذه الصورة المنفرة لذلك الفريق « منهم » وهو يكشف لهم عن المندسين في الصف من المعوقين ، ليأخذوا منهم حذرهم ؛ كما يأخذون حذرهم من أعدائهم !

ومن وراء التحذير والاستنهاض للجماعة المسلمة في ذلك الزمان ، يرتسم نموذج إنساني

متكرر في بني الإنسان ، في كل زمان ومكان، في هذه الكلمات المعدودة من كلمات القرآن!

ثم تبقى هذه الحقيقة تتملاها الجماعة المسلمة أبداً . وهي أن الصف قد يوجد فيه أمثال هؤلاء . فلا ييئس من نفسه . ولكن يأخذ حذره ويمضي . ويحاول بالتربية والتوجيه والجهد، أن يكمل النقص ، ويعالج الضعف ، وينسق الخطى والمشاعر والحركات !

***

ثم يمضي السياق يحاول أن يرفع ويطلق هؤلاء المبطئين المثقلين بالطين ! وأن يوقظ في حسهم التطلع إلى ما هو خير وأبقى.. الآخرة .. وأن يدفعهم إلى بيع الدنيا وشراء الآخرة. ويعدهم على ذلك فضل الله في الحالتين ، وإحدى الحسنيين : النصر أو الشهادة :

« فليقاتل - في سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة . ومن يقاتل في سبيل الله ، فيقتل أو يغلب ، فسوف نؤتيه أجراً عظيما » ..

فليقاتل - في سبيل الله - فالإسلام لا يعرف قتالا إلا في هذا السبيل . لا يعرف القتال للغنيمة ولا يعرف القتال للسيطرة . ولا يعرف القتال للمجد الشخصي أو القومي !

إنه لا يقاتل للاستيلاء على الأرض ؛ ولا للاستيلاء على السكان .. لا يقاتل ليجد الخامات للصناعات ، والأسواق للمنتجات ؛ أو لرؤوس الأموال يستثمرها في المستعمرات وشبه المستعمرات .

إنه لا يقاتل لمجد شخص . ولا لمجد بيت . ولا لمجد طبقة . ولا لمجد دولة ، ولا لمجد أمة ، ولا لمجد جنس . إنما يقاتل في سبيل الله . لإعلاء كلمة الله في الأرض . ولتمكين منهجه من تصريف الحياة . ولتمتيع البشرية بخيرات هذا المنهج ، وعدله المطلق « بين الناس » مع ترك كل فرد حراً في اختيار العقيدة التي يقتنع بها .. في ظل هذا المنهج الرباني الإنساني العالمي العام ..

وحين يخرج المسلم ليقاتل في سبيل الله ، بقصد إعلاء كلمة الله ، وتمكين منهجه في الحياة . ثم يقتل يكون شهيداً . وينال مقام الشهداء عند الله .. وحين يخرج لأي هدف آخر - غير هذا الهدف - لا يسمى « شهيداً » ولا ينتظر أجره عند الله ، بل عند صاحب الهدف الآخر الذي خرج له .. والذين يصفونه حينئذ بأنه « شهيد » يفترون على الله الكذب ؛ ويزكون أنفسهم أو غيرهم بغير ما يزكي به الله الناس. افتراء على الله !

فليقاتل في سبيل الله - بهذا التحديد .. من يريدون أن يبيعوا الدنيا ليشتروا بها الآخرة.

ولهم — حينئذ — فضل من الله عظيم ؛ في كلتا الحالتين : سواء من يقتل في سبيل الله ؛ ومن يغلب في سبيل الله أيضاً :

« ومن يقاتل — في سبيل الله — فيقتل أو يغلب ، فسوف نؤتيه أجرا عظيما » ..

بهذه اللمسة يتجه المنهج القرآني إلى رفع هذه النفوس ؛ وإلى تعليقها بالرجاء في فضل الله العظيم ، في كلتا الحالتين . وأن يهون عليها ما تخشاه من القتل ، وما ترجوه من الغنيمة كذلك ! فالحياة أو الغنيمة لا تساوي شيئاً إلى جانب الفضل العظيم من الله . كما يتجه إلى تنفيرها من الصفقة الخاسرة إذا هي اشترت الدنيا بالآخرة ولم تشتر الآخرة بالدنيا (ولفظ يشري من ألفاظ الضد فهي غالباً بمعنى يبيع) فهي خاسرة سواء غنموا أو لم يغنموا في معارك الأرض . وأين الدنيا من الآخرة ؟ وأين غنيمة المال من فضل الله ؟ وهو يحتوي المال — فيما يحتويه — ويحتوي سواه ؟ !

***

ثم يلتفت السياق إلى المسلمين . يلتفت من أسلوب الحكاية والتصوير عن أولئك المبطئين ؛ الى أسلوب الخطاب للجماعة المسلمة كلها . يلتفت اليها لاستجاشة مروءة النفوس ، وحساسية القلوب ؛ تجاه المستضعفين من الرجال والنساء والولدان ؛ الذين كانوا يقاسون في مكة ما يقاسون على أيدي المشركين غير قادرين على الهجرة إلى دار الإسلام والفرار بدينهم وعقيدتهم ؛ وهم يتطلعون الى الخلاص ، ويدعون الله أن يجعل لهم مخرجاً من دار الظلم والعدوان .. يلتفت هذه الالتفاتة ليوحي اليهم بسمو المقصد ، وشرف الغاية ، ونبل الهدف ، في هذا القتال ، الذي يدعوهم أن ينفروا اليه ، غير متثاقلين ولا مبطئين. وذلك في أسلوب تحضيضي ؛ يستنكر البطء والقعود :

« وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله ، والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان . الذين يقولون : ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها ، واجعل لنا من لدنك ولياً . واجعل لنا من لدنك نصيرا ؟ » . .

وكيف تقعدون عن القتال في سبيل الله ؛ واستنقاذ هؤلاء المستضعفين من الرجال والنساء والولدان ؟ هؤلاء الذين ترتسم صورهم في مشهد مثير لحمية المسلم ، وكرامة المؤمن ، ولعاطفة الرحمة الإنسانية على الإطلاق ؟ هؤلاء الذين يعانون أشد المحنة والفتنة ؛ لأنهم يعانون المحنة في عقيدتهم ، والفتنة في دينهم . والمحنة في العقيدة أشد من المحنة في المال والأرض والنفس والعرض ، لأنها محنة في أخص خصائص الوجود الإنساني ، الذي تتبعه كرامة النفس

والعرض ، وحق المال والأرض !

ومشهد المرأة الكسيرة والولد الضعيف ، مشهد مؤثر مثير . لا يقل عنه مشهد الشيوخ الذين لا يملكون أن يدفعوا — وبخاصة حين يكون الدفع عن الدين والعقيدة — وهذا المشهد كله معروض في مجال الدعوة إلى الجهاد . وهو وحده يكفي . لذلك يستنكر القعود عن الاستجابة لهذه الصرخات .. وهو أسلوب عميق الوقع ، بعيد الغور في مسارب الشعور والإحساس .

ولا بد من لفتة هنا الى التصور الإسلامي للبلد والأرض والوطن : ان « هذه القرية الظالم أهلها » التي يعدها الإسلام — في موضعها ذاك — دار حرب ، يجب أن يقاتل المسلمون لاستنقاذ المسلمين المستضعفين منها هي « مكة » وطن المهاجرين ، الذين يدعون هذه الدعوة الحارة إلى قتال المشركين فيها. ويدعو المسلمون المستضعفون هذه الدعوة الحارة للخروج منه !

ان كونها بلدهم لم يغير وضعها في نظر الإسلام — حين لم تقم فيها شريعة الله ومنهجه ؛ وحين فتن فيها المؤمنون عن دينهم ، وعذبوا في عقيدتهم .. بل اعتبرت بالنسبة لهم هم أنفسهم « دار حرب » .. دار حرب ، هم لا يدافعون عنها . وليس هذا فحسب بل هم يحاربونها لإنقاذ إخوتهم المسلمين منها . . ان راية المسلم التي يحامي عنها هي عقيدته . ووطنه الذي يجاهد من أجله هو البلد الذي تقام شريعة الله فيه ؛ وارضه التي يدفع عنها هي « دار الإسلام » التي تتخذ المنهج الإسلامي منهجا للحياة . . وكل تصور آخر للوطن هو تصور غير اسلامي ، تنضح به الجاهليات ، ولا يعرفه الإسلام .

***

ثم لمسة نفسية أخرى ، لاستنهاض الهمم ، واستجاشة العزائم ، وإنارة الطريق ، وتحديد القيم والغايات والأهداف ، التي يعمل لها كل فريق :

« الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله ؛ والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت . فقاتلوا أولياء الشيطان . إن كيد الشيطان كان ضعيفاً » ..

وفي لمسة واحدة يقف الناس على مفرق الطريق . وفي لحظة ترتسم الأهداف ، وتتضح الخطوط . وينقسم الناس إلى فريقين اثنين ؛ تحت رايتين متميزتين :

« الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله » ..

« والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت » .

الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله ؛ لتحقيق منهجه ، وإقرار شريعته ، وإقامة العدل « بين الناس » باسم الله . لا تحت أي عنوان آخر . اعترافاً بأن الله وحده هو الإله ومن ثم فهو الحاكم :

والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت ، لتحقيق مناهج شتى — غير منهج الله — وإقرار شرائع شتى — غير شريعة الله — وإقامة قيم شتى — غير التي أذن بها الله — ونصب موازين شتى غير ميزان الله !

ويقف الذين آمنوا مستندين إلى ولاية الله وحمايته ورعايته .

ويقف الذين كفروا مستندين الى ولاية الشيطان بشتى راياتهم ، وشتى مناهجهم، وشتى شرائعهم ، وشتى طرائقهم ، وشتى قيمهم وشتى موازينهم .. فكلهم أولياء الشيطان .

ويأمر الله الذين آمنوا أن يقاتلوا أولياء الشيطان ؛ ولا يخشوا مكرهم ولا مكر الشيطان: « فقاتلوا أولياء الشيطان ، إن كيد الشيطان كان ضعيفا » .

وهكذا يقف المسلمون على أرض صلبة ، مسندين ظهورهم الى ركن شديد . مقتنعي الوجدان بأنهم يخوضون معركة لله ، ليس لأنفسهم منها نصيب ، ولا لذواتهم منها حظ . وليست لقومهم ، ولا لجنسهم ، ولا لقرابتهم وعشيرتهم منها شيء .. إنما هي لله وحده ، ولمنهجه وشريعته . وأنهم يواجهون قوماً أهل باطل ؛ يقاتلون لتغليب الباطل على الحق . لأنهم يقاتلون لتغليب مناهج البشر الجاهلية — وكل مناهج البشر جاهلية — على شريعة منهج الله ؛ ولتغليب شرائع البشر الجاهلية — وكل شرائع البشر جاهلية — على الله ؛ ولتغليب ظلم البشر — وكل حكم للبشر من دون الله ظلم — على عدل الله ، الذي هم مأمورون أن يحكموا به بين الناس ..

كذلك يخوضون المعركة، وهم يوقنون أن الله وليهم فيها . وأنهم يواجهون قوماً، الشيطان وليهم . فهم إذن ضعاف .. إن كيد الشيطان كان ضعيفاً ..

ومن هنا يتقرر مصير المعركة في حس المؤمنين ، وتتحدد نهايتها . قبل أن يدخلوها . وسواء بعد ذلك استشهد المؤمن في المعركة — فهو واثق من النتيجة — أم بقي حتى غلب ، ورأى بعينيه النصر ؛ فهو واثق من الأجر العظيم .

ومن هذا التصور الحقيقي للأمر في كلتا حالتيه ، انبثقت تلك الخوارق الكثيرة التي حفظها تاريخ الجهاد في سبيل الله في حياة الجماعة المسلمة الأولى ؛ والتي تناثرت على مدى التاريخ في أجيال كثيرة . وما بنا أن نضرب لها هنا الأمثال ؛ فهي كثيرة مشهورة .. ومن هذا

التصور كان ذلك المد الإسلامي العجيب ، في أقصر فترة عرفت في التاريخ ؛ فقد كان هـذا التصور جانباً من جوانب التفوق الذي حققه المنهج الرباني للجماعة المسلمة ، على المعسكرات المعادية .. ذلك التفوق الذي أشرنا اليه من قبل في هذا الجزء[1] . وبناء هذا التصور ذاته كان طرفاً من المعركة الكلية الشاملة التي خاضها القرآن في نفوس المؤمنين ، وهو يخوض بهم المعركة مع أعدائهم المتفوقين في العدد والعدة والمال ، ولكنهم في هـذا الجانب كانوا متخلفين ؛ فأمسوا مهزومين !

وها نحن أولاء نرى مدى الجهد الذي بذله المنهج في إنشاء هذا التصور وتثبيته . فلم يكن الأمر هينا . ولم يكن مجرد كلمة تقال . ولكنه كان جهداً موصولا ، لمعالجة شح النفس ، وحرصها على الحياة — بأي ثمن — وسوء التصور لحقيقة الربح والخسارة .. وفي الدرس بقية من هذا العلاج ، وذلك الجهد الموصول .

***

إن السياق يمضي — بعد هذا — الى التعجيب من أمر طائفة أو أكثر من المسلمين — قيل إن بعضهم من المهاجرين ، الذين كانت تشتد بهم الحماسة — وهم في مكة يلقون الأذى والاضطهاد — ليؤذن لهم في قتال المشركين.حيث لم يكن مأذونا لهم — بعد — في قتال،للحكمة التي يعلمها الله ؛ والتي قد نصيب طرفا من معرفتها فيما سنذكره بعد..فلما كتب عليهم القتال، بعد أن قامت للاسلام دولة في المدينة ، وعلم الله أن في هذا الإذن خيرا لهم وللبشرية .. إذا هم — كما يصورهم القرآن — « يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية ! وقالوا : ربنا لم كتبت علينا القتال ! لولا أخرتنا إلى أجل قريب ! » ممن إذا أصابتهم الحسنة قالوا: هذه من عند الله. وإن أصابتهم السيئة قالوا للرسول ﷺ هذه من عندك . وممن يقولون : طاعة حتى إذا خرجوا من عند الرسول ﷺ بيت طائفة منهم غير الذي تقول . وممـن إذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به ...

يمضي السياق ليعجب من شأن هؤلاء ، في الأسلوب القرآني ؛ الذي يصور حالة النفس ، كما لو كانت مشهداً يرى ويحس ! ويصحح لهم — ولغيرهم — سوء التصور والإدراك لحقائق الموت والحياة ، والأجل والقدر ، والخير والشر ، والنفع والضر ، والكسب والخسارة ،

(١) ص ٨٥

والموازين والقيم ؛ ويبين لهم حقائقها في أسلوب يصور الحقائق في صورتها الموحية المؤثرة :

« ألم تر إلى الذين قيل لهم : كفوا أيديكم ، وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة. فلما كتب عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية . وقالوا : ربنا لم كتبت علينا القتال ؟ لولا أخرتنا إلى أجل قريب ! قل : متاع الدنيا قليل ، والآخرة خير لمن اتقى ، ولا تظلمون فتيلا . أينما تكونوا يدرككم الموت . ولو كنتم في بروج مشيدة .

« وإن تصبهم حسنة يقولوا : هذه من عند الله . وإن تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك . قل : كل من عند الله . فمال هؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً ؟ ما أصابك من حسنة فمن الله . وما أصابك من سيئة فمن نفسك . وأرسلناك للناس رسولا ، وكفى بالله شهيدا . من يطع الرسول فقد أطاع الله ؛ ومن تولى فما أرسلناك عليهم حفيظا » .

« ويقولون : طاعة. فإذا برزوا من عندك بيت طائفة منهم غير الذي تقول ـ والله يكتب ما يبيتون ـ فأعرض عنهم ، وتوكل على الله ، وكفى بالله وكيلا . . أفلا يتدبرون القرآن ؟ ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا » .

« وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به . ولو ردوه إلى الرسول، وإلى أولي الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم .. ولولا فضل الله عليكم ورحمته لاتبعتم الشيطان إلا قليلا » ..

هؤلاء الذين تتحدث عنهم هذه المجموعات الأربعة من الآيات ؛ قد يكونون هم أنفسهم الذين تحدثت عنهم مجموعة سابقة في هذا الدرس : « وإن منكم لمن ليبطئن » ... الآيات ... ويكون الحديث كله عن تلك الطائفة من المنافقين ؛ التي تصدر منها هذه الأعمال وهذه الأقوال كلها .

وقد كدنا نرجح هذا الرأي ؛ لأن ملامح النفاق واضحة ، فيما تصفه هذه المجموعات كلها . وصدور هذه الأعمال وهذه الأقوال عن طوائف المنافقين في الصف المسلم ، أمر أقرب إلى طبيعتهم وإلى سوابقهم كذلك . وطبيعة السياق القرآني شديدة الالتحام بين الآيات جميعاً ..

ولكن المجموعة الأولى من هذه المجموعات التي تتحدث عن الذين : (قيل لهم : كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة . فلما كتب عليهم القتال ... الآيات) هي التي جعلتنا نتردد في اعتبار الآيات كلها حديثاً عن المنافقين — وإن بدت فيها صفات المنافقين وبدت فيها لحمة السياق واستطراده ـ وجعلتنا نميل إلى اعتبار هذه المجموعة واردة في طائفة من المهاجرين

ـ ضعاف الإيمان غير منافقين ـ والضعف قريب الملامح من النفاق ! ـ وأن كل مجموعة أخرى من هذه المجموعات الأربعة ربما كانت تصف طائفة بعينها من طوائف المنافقين ، المندسين في الصف المسلم . وربما كانت كلها وصفا للمنافقين عامة ؛ وهي تعدد ما يصدر عنهم من أقوال وأفعال .

والسبب في وقوفنا هذا الموقف أمام آيات المجموعة الأولى ؛ وظننا أنها تصف طائفة من المهاجرين الضعاف الإيمان ؛ أو الذين لم ينضج بعد تصورهم الإيماني ، ولم تتضح معالم الاعتقاد في قلوبهم وعقولهم ..

السبب هو أن المهاجرين هم الذين كان بعضهم تأخذه الحماسة والاندفاع ، لدفع أذى المشركين ـ وهم في مكة ـ في وقت لم يكن مأذوناً لهم في القتال ـ فقيل لهم : « كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة » ..

وحتى لو أخذنا في الاعتبار ما عرضه أصحاب بيعة العقبة الثانية الاثنان والسبعون على النبي ﷺ من ميلهم على أهل منى — أي قتلهم — لو أمرهم الرسول ﷺ ورده عليهم : « إننا لم نؤمر بقتال » . . فإن هذا لا يجعلنا ندمج هذه المجموعة من السابقين من الأنصار — أصحاب بيعة العقبة — في المنافقين ، الذين تتحدث عنهم بقية الآيات ولا في الضعاف الذين تصفهم المجموعة الأولى. فإنه لم يعرف عن هؤلاء الصفوة نفاق ولا ضعف ؛ رضي الله عنهم جميعاً .

فأقرب الاحتمالات هو أن تكون هذه المجموعة واردة في بعض من المهاجرين ، الذين ضعفت نفوسهم — وقد أمنوا في المدينة وذهب عنهم الأذى — عن تكاليف القتال .. وألا تكون بقية الأوصاف واردة فيهم ، بل في المنافقين. لأنه يصعب علينا — مهاعرفنا من ظواهر الضعف البشري — أن نسم أي مهاجر من هؤلاء السابقين بسمة رد السيئة إلى الرسول ﷺ دون الحسنة ! أو قول الطاعة وتبييت غيرها .. وإن كنا لا نستبعد أن توجد فيهم صفة الإذاعة بالأمر من الأمن أو الخوف . لأن هذه قد تدل على عدم الدربة على النظام ، ولا تدل على النفاق ..

والحق . . أننا نجد أنفسنا — أمام هذه الآيات كلها — في موقف لا تملك الجزم فيه بشيء والروايات الواردة عنها ليس فيها جزم كذلك بشيء... حتى في آيات المجموعة الأولى. التي ورد أنها في طائفة من المهاجرين ؛ كما ورد أنها في طائفة من المنافقين !

ومن ثم نأخذ بالأحوط ؛ في تبرئة المهاجرين من سمات التبطئة والانخلاع بما يصيب

المؤمنين من الخير والشر . التي وردت في الآيات السابقة . ومن سمة إسناد السيئة للرسول ﷺ دون الحسنة ، ورد هذه وحدها إلى الله ! ومن سمة تبييت غير الطاعة .. وإن كانت تجزئة سياق الآيات على هـــذا النحو ليست سهلة على من يتابع السياق القرآني ، ويدرك — بطول الصحبة — طريقة التعبير القرآنية ! والله المعين .

***

« ألم تر إلى الذين قيل لهم : كفوا أيديكم ، وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة .. فلما كتب عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية . وقالوا ربنا لم كتبت علينا القتال ؟ لولا أخرتنا إلى أجل قريب ! قل : متاع الدنيا قليل . والآخرة خير لمن اتقى ولا تظلمون فتيلا . أينما تكونوا يدرككم الموت ، ولو كنتم في بروج مشيدة .. »

يعجب الله — سبحانه — من أمر هؤلاء الناس ؛ الذين كانوا يتدافعون حماسة إلى القتال ويستعجلونه وهم في مكة ، يتلقون الأذى والاضطهاد والفتنة من المشركين . حين لم يكن مأذونا لهم في القتال للحكمة التي يريدها الله . فلما أن جاء الوقت المناسب الذي قدره الله ؛ وتهيأت الظروف المناسبة وكتب عليهم القتال — في سبيل الله — إذا فريق منهم شديد الجزع، شديد الفزع ، حتى ليخشى الناس الذين أمروا بقتالهم — وهم ناس من البشر — كخشية الله ؛ القهار الجبار ، الذي لا يعذب عذابه أحد ، ولا يوثق وثاقه أحـــد . . « أو أشد خشية » ! وإذا هم يقولون — في حسرة وخوف وجزع — « ربنا لم كتبت علينا القتال ؟ »..وهو سؤال غريب من مؤمن . وهو دلالة على عدم وضوح تصوره لتكاليف هذا الدين ؛ ولوظيفة هـذا الدين أيضاً .. ويتبعون ذلك التساؤل ، بأمنية حسيرة مسكينة ! « لولا أخرتنا إلى أجل قريب ! » وأمهلتنا بعض الوقت ، قبل ملاقاة هذا التكليف الثقيل المخيف !

إن أشد الناس حماسة واندفاعاً وتهوراً ، قد يكونون هم أشد الناس جزعا وانهيارا وهزيمة عندما يجد الجد ، وتقع الواقعة .. بل إن هذه قد تكون القاعدة! ذلك أن الاندفاع والتهور والحماسة الفائقة غالباً ما تكون منبعثة عن عدم التقدير لحقيقة التكاليف . لا عـــن شجاعة واحتمال وإصرار . كما أنها قد تكون منبعثة عن قلة الاحتمال . قلة احتمال الضيـــق والأذى والهزيمة ؛ فتدفعهم قلة الاحتمال ، إلى طلب الحركة والدفع والانتصار بأي شكل. دون تقدير لتكاليف الحركة والدفع والانتصار .. حتى إذا ووجهوا بهذه التكاليف كانت أثقل مما قدروا، وأشق مما تصوروا . فكانوا أول الصف جزعا ونكولا وانهيارا.. على حين يثبت أولئك الذين

كانوا يمسكون أنفسهم ، ويحتملون الضيق والأذى بعض الوقت ؛ ويعدون للأمر عدته ، ويعرفون حقيقة تكاليف الحركة ، ومدى احتمال النفوس لهذه التكاليف . فيصبرون ويتمهلون ويعدون للأمر عدته .. والمتهورون المندفعون المتحمسون يحسبونهم إذ ذاك ضعافا ، ولا يعجبهم تمهلهم ووزنهم للأمور ! وفي المعركة يتبين أي الفريقين أكثر احتمالا ، وأي الفريقين أبعد نظرا كذلك !

وأغلب الظن أن هذا الفريق الذي تعنيه هذه الآيات كان من ذلك الصنف ، الذي يلذعه الأذى في مكة فلا يطيقه ؛ ولا يطيق الهوان وهو ذو عزة . فيندفع يطلب من الرسول ﷺ أن يأذن له بدفع الاذى ، أو حفظ الكرامة . والرسول ﷺ يتبع في هذا أمر ربه بالتريث والانتظار ، والتربية والإعداد ، وارتقاب الأمر في الوقت المقدر المناسب . فلما أن أمن هذا الفريق في المدينة ؛ ولم يعد هناك أذى ولا إذلال ، وبعد لسع الحوادث عن الذوات والأشخاص ؛ لم يعد يرى للقتال مبرراً ؛ أو على الأقل لم يعد يرى للمسارعة به ضرورة !

« فلما كتب عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية ، وقالوا : ربنا لم كتبت علينا القتال ؟ لولا أخرتنا الى اجل قريب ! » .

وقد يكون هذا الفريق مؤمنا فعلا . بدليل اتجاههم الى الله في ضراعة وأسى ! وهذه الصورة ينبغي أن تكون في حسابنا . فالإيمان الذي لم ينضج بعد ؛ والتصور الذي لم تتضح معالمه ؛ ولم يتبين صاحبه وظيفة هذا الدين في الأرض — وأنها أكبر من حماية الاشخاص ، وحماية الأقوام ، وحماية الأوطان ، إذ أنها في صميمها إقرار منهج الله في الارض ، وإقامة نظامه العادل في ربوع العالم ؛ وإنشاء قوة عليا في هذه الأرض ذات سلطان ، يمنع أن تغلق الحدود دون دعوة الله ؛ ويمنع أن يحال بين الأفراد والاستماع للدعوة في أي مكان على سطح الأرض ؛ ويمنع أن يفتن أحد من الأفراد عن دينه إذا هو اختاره بكامل حريته — بأي لون من ألوان الفتنة — ومنها أن يطارد في رزقه أو في نشاطه حيث هو — وهذه كلها مهام خارجة عن وقوع أذى على أشخاص بعينهم أو عدم وقوعه .. وإذن فلم يكن الأمن في المدينة — حتى على فرض وجوده كاملا غير مهدد — لينهي مهمة المسلمين هناك ؛ وينهي عن الجهاد !

الإيمان الذي لم ينضج بعد ليبلغ بالنفس الى إخراج ذاتها من الأمر ؛ والاستماع فقط الى أمر الله واعتباره هو العلة والمعلول ، والسبب والمسبب ، والكلمة الأخيرة — سواء عرف المكلف حكمتها أم لم تتضح له — والتصور الذي لم تتضح معالمه بعد ليعرف المؤمن مهمة هذا الدين في الارض ؛ ومهمته هو — المؤمن — بوصفه قدرا من قدر الله ، ينفذ به الله ، ما يشاؤه

في هذه الحياة .. لا جرم ينشأ عنه مثل هذا الموقف ، الذي يصوره السياق القرآني هـذا التصوير ؛ ويعجب منه هذا التعجيب ! وينفر منه هذا التنفير .

فأما لماذا لم يأذن الله للمسلمين — في مكة — بالانتصار من الظلم ؛ والرد على العدوان ، ودفع الأذى بالقوة .. وكثيرون منهم كان يملك هذا ؛ فلم يكن ضعيفاً ولا مستضعفا ؛ ولم يكن عاجزاً عن رد الصاع صاعين .. مهما يكن المسلمون في ذلك الوقت قلة ..

أما حكمة هذا ، والأمر بالكف عن القتال ، وإقامة الصلاة وإيتـاء الزكاة ، والصبر والاحتمال .. حتى وبعض المسلمين يلقى من الأذى والعذاب مالا يطاق ، وبعضهم يتجـاوز العذاب طاقته ، فيفتن عن دينه . وبعضهم لا يحتمل الاستمرار في العـذاب فيموت تحت وطأته ..

أما حكمة هذا فلسنا في حل من الجزم بها . لأننا حينئذ نتألى على الله ما لم يبين لنا من حكمة ؛ ونفرض على أوامره أسباباً وعللاً ، قد لا تكون هي الأسباب والعلل الحقيقية . أو قد تكون ، ولكن يكون وراءها أسباب وعلل أخرى لم يكشف لنا عنها ، ويعلـم — سبحانه — أن فيها الخير والمصلحة . . وهذا هو شأن المؤمن أمام أي تكليف ، أو أي حكم في شريعة الله — لم يبين الله سببه محدداً جازماً حاسماً — فمها خطر له من الأسباب والعلل لهذا الحكم أو لذلك التكليف ؛ أو لكيفية تنفيذ هذا الحكم أو طريقة أداء ذلك التكليف ، ممـا يدركه عقله ويحسن فيه .. فينبغي أن يعتبر هذا كله مجرد احتمال . ولا يجزم — مهما بلغت ثقته بعلمه وعقله وتدبره لأحكام الله — بأن ما رآه هو حكمة ؛ هو الحكمة التي أرادها الله .. نصا .. وليس وراءها شيء، وليس من دونها شيء ! فذلك التحرج هو مقتضى الأدب الواجب مع الله . ومقتضى ما بين علم الله ومعرفة الإنسان من اختلاف في الطبيعة والحقيقة .

وبهذا الأدب الواجب نتناول حكمة عدم فرض الجهاد في مكة وفريضته في المدينة .. نذكر ما يتراءى لنا من حكمة وسبب .. على أنـه مجرد احتمال .. وندع ما وراءه لله لا نفرض على أمره أسبابا وعللا ، لا يعلمها إلا هو .. ولم يحددها هو لنا ويطلعنا عليهـا بنص صريح !

إنها أسباب .. اجتهادية .. تخطيء وتصيب . وتنقص وتزيد . ولا نبغي بهـا إلا مجرد تدبر أحكام الله . وفق ما تظهره لنا الأحداث في مجرى الزمان :

« ١ » ربما كان ذلك لأن الفترة المكية كانت فترة تربية وإعـداد ؛ في بيئة معينة ، لقوم معينين ، وسط ظروف معينة . ومن أهداف التربية والإعداد في مثل هـذه البيئة بالذات ،

تربية نفس الفرد العربي على الصبر على ما يصبر عليه عادة من الضيم يقع على شخصه أو على من يلوذون به . ليخلص من شخصه ، ويتجرد من ذاته ، ولا تعود ذاته ولا من يلوذون به ، محوراً الحياة في نظره ، ودافع الحركة في حياته .. وتربيته كذلك على ضبط أعصابه ؛ فلا يندفع لأول مؤثر – كما هي طبيعته – ولا يهتاج لأول مهيج . ليتم الاعتدال في طبيعته وحركته .. وتربيته على أن يتبع مجتمعاً منظماً له قيادة يرجع إليها في كل أمر من أمور حياته ، ولا يتصرف إلا وفق ما تأمره – مهما يكن مخالفاً لمألوفه وعادته – وقد كان هذا هو حجر الأساس في إعداد شخصية العربي ، لإنشاء « المجتمع المسلم » الخاضع لقيادة موجهة ، المترقي المتحضر ، غير الهمجي أو القبلي .

« ب » وربما كان ذلك أيضاً ، لأن الدعوة السلمية أشد أثراً وأنفذ ، في مثل بيئة قريش ، ذات العنجهية والشرف ، والتي قد يدفعها القتال معها – في مثل هذه الفترة – إلى زيادة العناد وإلى نشأة ثارات دموية جديدة ، كثارات العرب المعروفة ، التي أثارت حرب داحس والغبراء، وحرب البسوس – أعواماً طويلة، تفانت فيها قبائل برمتها – وتكون هذه الثارات الجديدة مرتبطة في أذهانهم وذكرياتهم بالإسلام . فلا تهدأ بعد ذلك ابداً . ويتحول الإسلام من دعوة ، إلى ثارات وذحول تنسى معها فكرته الأساسية ، وهو في مبدئه ، فلا تذكر أبداً !

« ج » وربما كان ذلك أيضاً ، اجتناباً لإنشاء معركة ومقتلة في داخل كل بيت . فلم تكن هناك سلطة نظامية عامة ، هي التي تعذب المؤمنين وتفتنهم . إنما كان ذلك موكولا إلى أولياء كل فرد ، يعذبونه هم ويفتنونه و « يؤدبونه » ! ومعنى الإذن بالقتال – في مثل هذه البيئة – أن تقع معركة ومقتلة في كل بيت .. ثم يقال : هذا هو الإسلام ! ولقد قيلت حتى والإسلام يأمر بالكف عن القتال ؟ فقد كانت دعاية قريش في الموسم ، في أوساط العرب القادمين للحج والتجارة: إن محمداً يفرق بين الوالد وولده ؛ فوق تفريقه لقومه وعشيرته ! فكيف لو كان كذلك يأمر الولد بقتل الوالد ، والمولى بقتل الولي .. في كل بيت وكل محلة؟

« د » وربما كان ذلك أيضاً ، لما يعلمه الله من أن كثيرين من المعاندين الذين يصدون أوائل المسلمين عن دينهم ، ويعذبونهم ويؤذونهم ؛ هم بأنفسهم سيكونون من جند الإسلام المخلص ، بل من قادته .. ألم يكن عمر بن الخطاب من بين هؤلاء ؟ !

« هـ » وربما كان ذلك ، أيضا ، لأن النخوة العربية ، في بيئة قبلية ، من عادتها أن تثور للمظلوم ، الذي يحتمل الأذى ، ولا يتراجع ! وبخاصة إذا كان الأذى واقعاً على كرام الناس

فيهم..وقد وقعت ظواهر كثيرة تثبت صحة هذه النظرة ـ في هذه البيئة ـ فابن الدغنة لم يرض أن يترك أبا بكر ـ وهو رجل كريم ـ يهاجر ويخرج من مكة،ورأى في ذلك عارا على العرب! وعرض عليه جواره وحمايته ... وآخر هذه الظواهر نقض صحيفة الحصار لبني هاشم في شعب أبي طالب ، بعد ما طال عليهم الجوع واشتدت المحنة .. بينما في بيئة أخرى من البيئات ذات الحضارة القديمة التي مردت على الذل ، قد يكون السكوت على الأذى مدعاة للهزء والسخرية والاحتقار من البيئة ؛ وتعظيم المؤذي الظالم المعتدي !

« و » وربما كان ذلك أيضاً ، لقلة عدد المسلمين حينذاك ، وانحصارهم في مكة . حيث لم تبلغ الدعوة إلى بقية الجزيرة . أو بلغت أخبارها متناثرة؛حيث كانت القبائل تقف على الحياد، من معركة داخلية بين قريش وبعض أبنائها ، حتى ترى ماذا يكون مصير الموقف.. ففي مثل هذه الحالة قد تنتهي المعركة المحدودة ، إلى قتل المجموعة المسلمة القليلة — حتى ولو قتلوا هم أضعاف من سيقتل منهم — ويبقى الشرك ، وتمحي الجماعة المسلمة. ولم يقم في الأرض للاسلام نظام ، ولا وجد له كيان واقعي .. وهو دين جاء ليكون منهج حياة،وليكون نظاماً واقعياً عمليا للحياة .

« ز » في الوقت ذاته لم يكن هناك ضرورة قاهرة ملحة ، لتجاوز هذه الاعتبارات كلها ، والأمر بالقتال ودفع الأذى. لأن الأمر الأساسي في هذه الدعوة كان قائماً ـ وقتها ـ ومحققاً.. هذا الأمر الأساسي هو « وجود الدعوة » . . . وجودها في شخص الداعية ﷺ وشخصه في حماية سيوف بني هاشم ، فلا تمتد إليه يد إلا وهي مهددة بالقطع ! والنظام القبلي السائد يجعل كل قبيلة تخشى أن تقع في حرب مع بني هاشم ، إذا هي امتدت يدها إلى محمد ﷺ فكان شخص الداعية من ثم محميا حماية كافية .. وكان الداعية يبلغ دعوته — إذن — في حماية سيوف بني هاشم ومقتضيات النظام القبلي ؛ ولا يكتمها ، ولا يخفيها ، ولا يجرؤ أحد على منعه من إبلاغها وإعلانها ، في ندوات قريش في الكعبة ، ومن فوق جبل الصفا ؛ وفي اجتماعات عامة. ولا يجرؤ أحد على سد فمه ! ولا يجرؤ أحد على خطفه وسجنه أو قتله ! ولا يجرؤ أحد على أن يفرض عليه كلاماً بعينه يقوله ؛ يعلن فيه بعض حقيقة دينه ، ويسكت عن بعضها . وحين طلبوا إليه أن يكف عن سب آلهتهم وعيبها لم يكف. وحين طلبوا إليه أن يسكت عن عيب دين آبائهم وأجدادهم وكونهم في جهنم لم يسكت . وحين طلبوا إليه أن يدهن فيدهنوا . أي أن يجاملهم فيجاملوه ؛ بأن يتبع بعض تقاليدهم ليتبعوا هم بعض عبادته ، لم يدهن . . . وعلى الجملة كان للدعوة « وجودها » الكامل ، في شخص رسول الله ﷺ محروساً بسيوف بني هاشم

وفي إبلاغه لدعوة ربه كاملة في كل مكان وفي كل صورة .. ومن ثم لم تكن هناك الضرورة القاهرة لاستعجال المعركة ، والتغاضي عن كل هذه الاعتبارات البيئية التي هي في مجموعها ، مساندة للدعوة ومساعدة في مثل هذه البيئة ..

هذه الاعتبارات كلها - فيما نحسب - كانت بعض ما اقتضت حكمة الله - معه - أن يأمر المسلمين بكف أيديهم . وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة .. لتتم تربيتهم وإعدادهم ، ولينتفع بكل إمكانيات الخطة في هذه البيئة ؛ وليقف المسلمون في انتظار أمر القيادة ، في الوقت المناسب . وليخرجوا أنفسهم من المسألة كلها ، فلا يكون لذواتهم فيها حظ . لتكون خالصة لله . وفي سبيل الله .. والدعوة لها « وجودها » وهي قائمة ومؤداة ومحمية ومحروسة .

وأيا ما كانت حكمة الله من وراء هذه الخطة ، فقد كان هناك المتحمسون يبدون لهفتهم على اللحظة التي يؤذن لهم فيها بالقتال :

« فلما كتب عليهم القتال ، إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية . وقالوا : ربنا لم كتبت علينا القتال ؟ لولا أخرتنا إلى أجل قريب ! » ..

وكان وجود هذه الطائفة في الصف المسلم ينشيء فيه حالة من الخلخلة وينشيء فيه حالة من عدم التناسق بين هذه الطائفة الجزوع الهلوع ، وبين الرجـال المؤمنين ذوي القلوب الثابتة المطمئنة ؛ المستقبلة لتكاليف الجهاد - على كل ما فيهـا من مشقة - بالطمأنينة والثقة والعزم والحماسة أيضاً . ولكن في موضعها المناسب . فالحماسة في تنفيذ الأمر حين يصدر هي الحماسة الحقيقية . أما الحماسة قبل الأمر ، فقد تكون مجرد اندفاع وتهور ؛ يتبخر عنـد مواجهة الخطر !

وكان القرآن يعالج هذه الحالة بمنهجه الرباني :

« قل : متاع الدنيا قليل ، والآخرة خير لمن اتقى ، ولا تظلمون فتيـلا . أينما تكونوا يدرككم الموت ، ولو كنتم في بروج مشيدة » . .

إنهم يخشون الموت ، ويريدون الحياة . ويتمنون في حسرة مسكينة ! لو كان الله قـد أمهلهم بعض الوقت ؛ ومد لهم - شيئاً - في المتاع بالحياة !

والقرآن يعالج هذه المشاعر في منابتها ؛ ويجلو غبش التصور لحقيقة الموت والأجل ..

« قل متاع الدنيا قليل » . .

متاع الدنيا كله . والدنيا كلها . فما بال أيام ، أو أسابيع ، أو شهور ، أو سنين؟ ما قيمة هذا الإمهال لأجل قصير . إذا كان متاع الحياة الدنيا بطولها في جملته قليلا ؟ ! مـا الذي

يملكون تحقيقه من المتاع في أيام ، أو أسابيع ، أو شهور ، أو سنين. ومتاع الدنيا كله والدنيا بطولها قليل ؟ !

« والآخرة خير لمن اتقى » . .

فالدنيا ـ أولا ـ ليست نهاية المطاف ولا نهاية الرحله .. إنها مرحلة .. ووراءها الآخرة والمتاع فيها هو المتاع ـ فضلا على أن المتاع فيها طويل كثير ـ فهي « خير » . . « خير لمن اتقى » . . وتذكر التقوى هنا والخشية والخوف في موضعها . التقوى لله . فهو الذي يتقى ، وهو الذي يخشى . وليس الناس . . الناس الذين سبق أن قال : إنهم يخشونهم كخشية الله ـ أو أشد خشية ! ـ والذي يتقي الله لا يتقي الناس . والذي يعمر قلبه الخوف من الله لا يخاف أحداً . فماذا يملك له إذا كان الله لا يريد ؟

« ولا تظلمون فتيلا » . .

فلا غبن ولا ضير ولا بخس ؛ إذا فاتهم شيء من متاع الدنيا . فهناك الآخرة . وهناك الجزاء الأوفى ؛ الذي لا يبقى معه ظلم ولا بخس في الحساب الختامي للدنيا والآخرة جميعاً !

ولكن بعض الناس قد تهفو نفسه ـ مع هذا كله ـ إلى أيام تطول به في هذه الأرض ! حتى وهو يؤمن بالآخرة ، وهو ينتظر جزاءها الخير .. وبخاصة حين يكون في المرحلة الإيمانية التي كانت في هذه الطائفة !

هنا تجيء اللمسة الأخرى . اللمسة التي تصحح التصور عن حقيقة الموت والحياة ، والأجل والقدر ؛ وعلاقة هذا كله بتكليف القتال ، الذي جزعوا له هذا الجزع ، وخشوا الناس فيه هذه الخشية !

« أينما تكونوا يدرككم الموت ، ولو كنتم في بروج مشيدة » . .

فالموت حتم في موعده المقدر . ولا علاقة له بالحرب والسلم . ولا علاقة له بحصانة المكان الذي يحتمي به الفرد أو قلة حصانته . ولا يؤخره أن يؤخر عنهم تكليف القتال إذن ؛ ولا هذا التكليف والتعرض للناس في الجهاد يعجله عن موعده . .

هذا أمر وذاك أمر ؛ ولا علاقة بينهما .. إنما العلاقة هناك بين الموت والأجل . بين الموعد الذي قدره الله وحلول ذلك الموعد . . وليست هناك علاقة أخرى . . ولا معنى إذن لتمني تأجيل القتال . ولا معنى إذن لخشية الناس في قتال أو في غير قتال !

وبهذه اللمسة الثانية يعالج المنهج القرآني كل ما يهجس في الخاطر عن هذا الأمر ؛ وكل ما ينشئه التصور المضطرب من خوف ومن ذعر . . .

إنه ليس معنى هذا ألا يأخذ الإنسان حذره وحيطته وكل ما يدخل في طوقه من استعداد وأهبة ووقاية .. فقد سبق ان أمرهم الله بأخذ الحذر . وفي مواضع أخرى أمرهم بالاحتياط في صلاة الخوف . وفي سور أخرى أمرهم باستكمال العدة والأهبة . ولكن هذا كله شيء ، وتعليق الموت والأجل به شيء آخر . . إن أخذ الحذر واستكمال العـــدة أمر يجب أن يطاع ، وله حكمته الظاهرة والخفية، ووراءه تدبير الله .. وإن التصور الصحيح لحقيقة العلاقة بين الموت والأجل المضروب — رغم كل استعداد واحتياط — أمر آخر يجب أن يطاع ؛ وله حكمته الظاهرة والخفية ، ووراءه تدبير الله . .

توازن واعتدال . وإلمام بجميع الأطراف . وتناسق بين جميع الأطراف . .

هذا هو الإسلام . وهذا هو منهج التربية الاسلامي ، للأفراد والجماعات ..

★ ★ ★

وبهذا ربما ينتهي الحديث عن تلك الطائفة من المهاجرين . ويبدأ الحديث عن طائفة أخرى من الطوائف المنبثة في المجتمع الاسلامي ، والتي يتألف منها الصف المسلم ومن سواها .. هذا وإن كان السياق لا انقطاع فيه، ولا فصل ، ولا وقفة تنبيء بأن الحديث الآتي عن طائفـــة اخرى ، وأن الحديث عن هذه الطائفة قد انتهى .. ولكننا نمضي مع الاعتبـــارات التي أسلفناها :

« وإن تصبهم حسنة يقولوا : هذه من عند الله. وإن تصبهم سيئة يقولوا : هذه من عندك ! قل : كل من عند الله . فمال هؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً ؟ ! ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك . وأرسلناك للناس رسولا . وكفى بالله شهيداً . من يطع الرسول فقد أطاع الله ، ومن تولى فما أرسلناك عليهم حفيظا » ..

إن الذين يقولون هذا القول ، وينسبون ما يصيبهم من الخير إلى الله ، ومـــا يصيبهم من الضر إلى النبي ﷺ يحتمل فيهم وجوه :

الوجه الأول : أنهم يتطيرون بالنبي ﷺ — فيظنونه — حاشاه — شؤمـــا عليهم ، يأتيهم السوء من قبله . فإن أجدبت السنة ، ولم تنسل الماشية ، أو إذا أصيبوا في موقعة ؛ تطيروا بالرسول ﷺ فأما حين يصيبهم الخير فينسبون هذا إلى الله !

الوجه الثاني : أنهم يريدون عامدين تجريح قيادة الرسول ﷺ تخلصـــاً من التكاليف التي يأمرهم بها. وقد يكون تكليف القتال منها — أو أخصها — فبدلا من أن يقولوا : إنهم ضعاف

يخشون مواجهة القتال ، يتخذون ذلك الطريق الملتوي الآخر ! ويقولون : إن الخير يأتيهم من الله ، وإن السوء لا يجيئهم إلا من قبل الرسول ﷺ ومن أوامره . وهم يعنون بالخير أو السوء النفع أو الضر القريب الظاهر !

والوجه الثالث : هو سوء التصور فعلا لحقيقة ما يجري لهم وللناس في هذه الحياة ، وعلاقته بمشيئة الله . وطبيعة أوامر النبي ﷺ لهم ؛ وحقيقة صلة الرسول بالله سبحانه وتعالى . .

وهذا الوجه الثالث — إذا صح — ربما يكون قابلاً لأن يوسم به ذلك الفريق من المهاجرين الذين كان سوء تصورهم لحقيقـــة الموت والأجل ، يجعلهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية . ويقولون : « ربنا لم كتبت علينا القتال ؟ لولا أخرتنا إلى أجل قريب ! » .. غير أننا ما نزال نميل إلى اعتبار المتحدث عنهم هنا طائفة اخرى .. تجتمع فيها تلك الأوجه كلها أو بعضها . وهذا الوجه الثالث منها ..

إن القضية التي تتناولها هذه الآيات ، هي جانب من قضية كبيرة . . القضية المعروفة في تاريخ الجدل والفلسفة في العالم كله باسم « قضية القضاء والقدر » أو « الجبر والاختيار » .. وقد وردت في أثنـــاء حكاية ذلك الفريق من الناس ؛ ثم في الرد عليهم ، وتصحيح تصورهم . والقرآن يتناولها ببساطة واضحة لا تعقيد فيها ولا غموض .. فلنعرضهـــا كما وردت وكما رد عليها القرآن الكريم :

« وإن تصبهم حسنة يقولوا : هذه من عند الله . وإن تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك . قل : كل من عند الله . فمال هؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثا ؟ » . .

إن الله هو الفاعل الأول ، والفاعل الواحد ، لكل ما يقع في الكون ، وما يقع للناس ، وما يقع من الناس . فالناس يملكون أن يتجهوا وأن يحاولوا . ولكن تحقق الفعـــل — أي فعل — لا يكون الا بإرادة من الله وقدر .

فنسبة إنشاء الحسنة أو إنشاء السيئة ، وإيقاعها بهم ، للرسول ﷺ وهو بشر منهم مخلوق مثلهم — نسبة غير حقيقية ؛ تدل على عدم فقههم لشيء ما في هذا الموضوع .

إن الإنسان قد يتجه ويحاول تحقيق الخير ؛ بالوسائل التي أرشد الله الى أنها تحقق الخير . ولكن تحقق الخير فعلا يتم بإرادة الله وقدره . لأنه ليست هناك قدرة — غـــير قدرة الله — تنشيء الأشياء والأحداث وتحقق ما يقع في هذا الكون من وقائع. وإذن يكون تحقق الخير — بوسائله التي اتخذها الإنسان وباتجاه الإنسان وجهده — عملاً من أعمال القدرة الإلهية .

وإن الإنسان قد يتجه إلى تحقيق السوء . أو يفعـــل ما من شأنه إيقاع السوء . ولكن

وقوع السوء فعلا ؛ ووجوده أصلا ، لا يتم إلا بقدرة الله وقدر الله . لأنه ليس هناك قدرة منشئة للأشياء والأحداث في هذا الكون غير قوة الله .

وفي الحالتين يكون وجود الحدث وتحققه من عند الله .. وهذا ما تقرره الآية الإولى .. أما الآية الثانية :

« ما أصابك من حسنة فمن الله ، وما أصابك من سيئة فمن نفسك .. » .

فإنها تقرر حقيقة أخرى . ليست داخلة ولا متداخلة مع مجال الحقيقة الأولى . . إنها في واد آخر .. والنظرة فيها من زاوية أخرى :

إن الله – سبحانه – قد سن منهجاً ، وشرع طريقاً ، ودل على الخير ، وحذر من الشر .. فحين يتبع الإنسان هذا المنهج ، ويسير في هذا الطريق ، ويحاول الخير ويحذر الشر .. فإن الله يعينه على الهدى كما قال : « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا » .. ويظفر الإنسان بالحسنة .. ولا يهم أن تكون من الظواهر التي يحسبها الناس من الخارج كسباً .. إنما هي الحسنة فعلا في ميزان الله تعالى .. وتكون من عند الله . لأن الله هو الذي سن المنهج وشرع الطريق ودل على الخير وحذر من الشر . . وحين لا يتبع الإنسان منهج الله الذي سنه ، ولا يسلك طريقه الذي شرعه ، ولا يحاول الخير الذي دله عليه ، ولا يحذر الشر الذي حذره منه . . حينئذ تصيبه السيئة . السيئة الحقيقية . سواء في الدنيا أو في الآخرة أو فيهما معاً .. ويكون هذا من عند نفسه . لأنه هو الذي لم يتبع منهج الله وطريقه ..

وهذا معنى غير المعنى الأول ، ومجال غير المجال الأول .. كما هو واضح فيما نحسب ..

ولا يغير هذا من الحقيقة الأولى شيئاً . وهي أن تحقق الحسنة ، وتحقق السيئة ووقوعها لا يتم إلا بقدرة الله وقدره . لأنه المنشيء لكل ما ينشأ . المحدث لكل ما يحدث . الخالق لكل ما يكون . . أيا كانت ملابسة إرادة الناس وعملهم في هذا الذي يحدث ، وهذا الذي يكون [1] .

---

(١) أما القضية التي تمثل هذه النصوص جانباً منها ، أو التي تذكر بها ، وهي قضية الجبر والاختيار ، والى أي حد تعمل ارادة الانسان فيما يحدث منه أو يحدث له ؟ وكيف تكون له ارادة يقوم عليها الحساب والجزاء ، بينما ارادة الله هي المنشئة لكل ما يحدث ، ومنه ارادة الإنسان نفسه واتجاهه وعمله ... الى آخر هذه القضية .. فالنصوص القرآنية تقول : ان كل ما يحدث يحدث بارادة الله وقدره . وتقول في الوقت ذاته : ان الانسان يريد ويعمل ويحاسب على ارادته وعمله .. والقرآن كله كلام الله . ولن يعارض بعضه بعضاً . فلا بد اذن أن تكون هناك نسبة معينة بين هذا القول وذاك . ولا بد اذن ان يكون هناك مجال –

ثم يبين لهم حدود وظيفة الرسول ﷺ وعمله وموقف الناس منه ، وموقفه من الناس . ويرد الأمر كله إلى الله في النهاية :

« وأرسلناك للناس رسولا . وكفى بالله شهيداً . من يطع الرسول فقد أطاع الله . ومن تولى فما أرسلناك عليهم حفيظا » . .

إن وظيفة الرسول هي أداء الرسالة . لا إحداث الخير ولا إحداث السوء . فهذا من أمر الله – كما سلف – والله شهيد على أنه أرسل النبي ﷺ لأداء هذه الوظيفة « وكفى بالله شهيدا » . .

وأمر الناس مع الرسول ﷺ أن من أطاعه فقد أطاع الله . فلا تفرقة بين الله ورسوله . ولا بين قول الله وقول رسوله . . ومن تولى معرضا مكذبا فأمره الى الله من ناحية حسابه وجزائه . ولم يرسل الرسول ﷺ ليجبره على الهدى ، ويكرهه على الدين ، وليس موكلا بحفظه من العصيان والضلال . فهذا ليس داخلاً في وظيفة الرسول ؛ ولا داخلاً في قدرة الرسول .

بهذا البيان يصحح تصورهم عن حقيقة ما يقع لهم . . فكله لا ينشأ ولا يتحقق إلا بإرادة الله وقدره . وما يصيبهم من حسنة أو سيئة – بأي معنى من معاني الحسنة أو السيئة ، سواء حسب ما يرونه هم في الظاهر ، أو ما هو في حقيقة الأمر والواقع – فهو من عند الله . لأنه لا ينشيء شيئاً ولا يحدثه ولا يخلقه ويوجده إلا الله . وما يصيبهم من حسنة حقيقية – في ميزان الله – فهو من عند الله ، لأنه بسبب منهجه وهدايته وما يصيبهم من سيئة حقيقية – في ميزان الله – فهو من عند أنفسهم ، لأنه بسبب تنكبهم عن منهج الله والإعراض عن هدايته . .

والرسول وظيفته الأولى والأخيرة أنه رسول . لا ينشيء ولا يحدث ولا يخلق ولا يشارك الله تعالى في خاصية الألوهية هذه : وهي الخلق والإنشاء والإحداث . وهو يبلغ ما جاء به من عند الله ، فطاعته فيما يأمر به إذن هي طاعة لله . وليس هناك طريق آخر لطاعة الله غير طاعة الرسول . والرسول ليس مكلفاً أن يحدث الهدى للمعرضين المتولين ، ولا أن يحفظهم من الإعراض والتولي . بعد البلاغ والبيان .

حقائق – هكذا – واضحة مريحة ، بينة صريحة ؛ تبني التصور ، وتريح الشعور ؛ وتمضي شوطاً مع تعليم الله لهذه الجماعة وإعدادها لدورها الكبير الخطير .

★ ★ ★

– لارادة الانسان وعمله يكفي لحسابه عليه وجزائه، دون أن يتعارض هذا مع مجال الارادة الربانية والقدر الالهي . كيف ؟ هذا ما لا سبيل لبيانه . . لأن العقل البشري غير مكلف لادراك كيفيات عمل الله !

بعد ذلك يحكي السياق عن حال طائفة أخرى ـ في الصف المسلم ـ أم لعلها هي طائفة المنافقين يذكر عنها فعلا جديداً ، وفصلا جديداً ! ومع الحكاية التنفير من الفعلة؛ومع التنفير التعليم والتوجيه والتنظيم .. كل ذلك في آيات قليلة ، وعبارات معدودة :

« ويقولون : طاعة. فإذا برزوا من عندك بيت طائفة منهم غير الذي تقول ـ والله يكتب ما يبيتون ـ فأعرض عنهم ، وتوكل على الله ، وكفى بالله وكيلا . أفلا يتدبرون القرآن ؟ ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً » ..

إن هذا الفريق من الناس إذا كان عند رسول الله ﷺ يسمع منه القرآن وما فيه من التكاليف .. قالوا : « طاعة » .. قالوها هكذا جامعة شاملة . طاعة مطلقة . لا اعتراض ولا استفهام ولا استيضاح ولا استثناء ! ولكن ما إن يخرجوا من عند رسول الله ﷺ حتى تبيت طائفة منهم غير الذي تقول ؛ وتروح في ما بينها تتآمر على عدم التنفيذ ؛ وعلى اتخاذ خطة للتخلص من التكليف .

أم لعل النص يصور حال الجماعة المسلمة كلها ؛ ويستثني منها هذه الطائفة ذات الشأن الخاص ، والتصرف الخاص .. ويكون المعنى أن المسلمين يقولون : طاعة . بجملتهم. ولكن طائفة منهم ـ وهي هذه الطائفة المنافقة ـ إذا خرجت بيت أفرادها غير ما قالوا.. وهي صورة ترسم تلك الخلخلة بعينها في الصف المسلم . فإن هؤلاء مندسون فيه على كل حال . وتصرفهم على هذا النحو يؤذي الصف ويخلخله ؛ والجماعة المسلمة تخوض المعركة في كل ميادينها وبكل قوتها !

والله ـ سبحانه ـ يطمئن النبي ﷺ والمخلصين في الصف . يطمئنهم بأن عينه على هذه الطائفة التي تبيت وتمكر . وشعور المسلمين بأن عين الله على المبيتين الماكرين يثبت قلوبهم ، ويسكب فيها الطمأنينة إلى أن هذه الطائفة لن تضرهم شيئاً بتآمرها وتبييتها . ثم هي تهديد ووعيد للمتآمرين المبيتين ؛ فلن يذهبوا مفلحين ، ولن يذهبوا ناجين :

« والله يكتب ما يبيتون » ..

وكانت الخطة التي وجه الله إليها نبيه ﷺ في معاملة المنافقين ، هي أخذهم بظاهرهم ـ لا بحقيقة نواياهم ـ والإعراض والتغاضي عما يبدو منهم..وهي خطة فتلتهم في النهاية،وأضعفتهم ، وجعلت بقاياهم تتوارى ضعفا وخجلا .. وهنا طرف من هذه الخطة :

« فأعرض عنهم » .

ومع هذا التوجيه بالإغضاء عنهم ، التطمين بكلاءة الله وحفظه مما يبيتون :

« وتوكل على الله .. وكفى بالله وكيلا » ..

نعم .. وكفى بالله وكيلا . لا يضار من كان وكيله ؛ ولا ينـــاله تآمر ولا تبييت ولا مكيدة ..

وكأنما كان الذي يدفع هذه الطائفة الى أن تقول في حضرة الرسول ﷺ مع القائلين : « طاعة » فإذا خرجت بيتت غير الذي تقول .. كأنما كان هذا بسبب شكهم في مصدر ما يأمرهم به الرسول ﷺ وظنهم أن هذا القرآن من عنده ! وحين يوجد مثل هذا الشك لحظة يتوارى سلطان الأمر والتكليف جملة . فهذا السلطان مستمد كله من الاعتقاد الجازم الكامل بأن هذا كلام الله ، وبأنه ﷺ لا ينطق عن الهوى .. ومن ثم كان هذا التوكيد الشديد الجازم المكرر على هذه الحقيقة ..

وهنا يعرض عليهم القرآن خطة ، هي غاية ما يبلغه المنهج الرباني من تكريم الانسان والعقل الإنساني ، واحترام هذا الكائن البشري وادراكه ، الذي وهبه له الخالق المنان . يعرض عليهم الاحتكام في أمر القرآن الى إدراكهم هم وتدبر عقولهم .. ويعين لهم منهج النظر الصحيح ؛ كما يعين لهم الظاهرة التي لا تخطىء إذا اتبعها ذلك المنهج . وهي ظاهرة واضحة كل الوضوح في القرآن من جهة ؛ ويمكن للعقل البشري إدراكها من جهة أخرى .. ودلالتها على أنه من عند الله دلالة لا تمارى :

« أفلا يتدبرون القرآن ؟ ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيرا » ..

وفي هذا العرض ، وهذا التوجيه ، منتهى الإكرام للانسان وإدراكه وشخصيته ــ كما قلنا ــ كما أن فيه منتهى النصفة في الاحتكام إلى هذا الإدراك في ظاهرة لا يعييه إدراكها . وهي في الوقت ذاته ذات دلالة ــ كما أسلفنا ــ لا تمارى !

والتناسق المطلق الكامل هو الظاهرة التي لا تخطئها من يتدبر هذا القرآن أبداً . ومستوياتها ومجالاتها ، مما تختلف العقول والأجيال في إدراك مداها . ولكن كل عقل وكل جيل يجـد منها ــ بحسب قدرته وثقافته وتجربته وتقواه ــ ما يملك إدراكه ، في محيط يتكيف بمدى القدرة والثقافة والتجربة والتقوى .

ومن ثم فإن كل أحد ، وكل جيل ، مخاطب بهذه الآية . ومستطيع ــ عند التدبر وفق منهج مستقيم ــ ان يدرك من هذه الظاهرة ــ ظاهرة عدم الاختلاف ، أو ظاهرة التناسق ــ ما تهيئه له قدرته وثقافته وتجربته وتقواه ..

وتلك الطائفة في ذلك الجيل كانت تخاطب بشيء تدركه ، وتملك التحقق منه بإدراكها .

في حدودها الخاصة .

تتجلى هذه الظاهرة . ظاهرة عدم الاختلاف .. أو ظاهرة التناسق . . ابتداء في التعبير القرآني من ناحية الاداء وطرائقه الفنية .. ففي كلام البشر تبدو القمم والسفوح ؛ التوفيق والتعثر . القوة والضعف . التحليق والهبوط . الرفرفة والثقلة . الإشراق والانطفاء .. إلى آخر الظواهر التي تتجلى معها سمات البشر . وأخصها سمة « التغير » والاختلاف المستمر الدائم من حال إلى حال . يبدو ذلك في كلام البشر ، واضحا عندما تستعرض أعمال الأديب الواحد ، أو المفكر الواحد ، أو الفنان الواحد ، أو السياسي الواحد ، أو القائد العسكري الواحد . . أو أي كان في صناعته ؛ التي يبدو فيها الوسم البشري واضحاً . . وهو : التغير ، والاختلاف . .

هذه الظاهرة واضح كل الوضوح أن عكسها وهو : الثبات ، والتناسق ، هو الظاهرة الملحوظة في القرآن — ونحن نتحدث فقط عن ناحية التعبير اللفظي والأداء الأسلوبي — فهناك مستوى واحد في هذا الكتاب المعجز — تختلف ألوانه باختلاف الموضوعات التي يتناولها — ولكن يتحد مستواه وأفقه ، والكمال في الأداء بلا تغير ولا اختلاف من مستوى إلى مستوى .. كما هو الحال في كل ما يصنع الإنسان . . إنه يحمل طابع الصنعة الإلهية ؛ ويدل على الصانع . يدل على الموجود الذي لا يتغير من حال إلى حال ، ولا تتوالى عليه الأحوال ! [1] .

وتتجلى ظاهرة عدم الاختلاف .. والتناسق المطلق الشامل الكامل .. بعد ذلك في ذات المنهج الذي تحمله العبارات ، ويؤديه الأداء .. منهج التربية للنفس البشرية والمجتمعات البشرية — ومحتويات هذا المنهج وجوانبه الكثيرة [2] — ومنهج التنظيم للنشاط الانساني للأفراد وللمجتمع الذي يضم الأفراد — وشتى الجوانب والملابسات التي تطرأ في حياة المجتمعات البشرية على توالي الأجيال — ومنهج التقويم للادراك البشري ذاته وتناول شتى قواه وطاقاته واعمالها معاً في عملية الإدراك ! — ومنهج التنسيق بين الكائن الإنساني بجملته — في جمع مجتمعاته وأجياله ومستوياته — وبين هذا الكون الذي يعيش فيه ؛ ثم بين دنياه وآخرته ؛ وما يشتجر في العلاقة بينهما من ملابسات لا تحصى في عالم كل فرد ؛ وفي عالم « الإنسان »

---

(١) يراجع كتاب « التصوير الفني في القرآن » .

(٢) يراجع كتاب : « منهج التربية الاسلامية » لمحمد قطب .

وهو يعيش في هذا الكون بشكل عام ..

وإذا كان الفارق بين صنعة الله وصنعة الإنسان واضحاً كل الوضوح في جانب التعبير اللفظي والأداء الفني ، فإنه أوضح من ذلك في جانب التفكير والتنظيم والتشريع . فما من نظرية بشرية، وما من مذهب بشري، إلا وهو يحمل الطابع البشري.. جزئية النظر والرؤية.. والتأثر الوقتي بالمشكلات الوقتية .. وعدم رؤية المتناقضات في النظرية أو المذهب أو الخطة ؛ التي تؤدي إلى الاصطدام بين مكوناتها — إن عاجلا وإن آجلا — كما تؤدي إلى إيذاء بعض الخصائص في الشخصية البشرية الواحدة التي لم يحسب حساب بعضها ؛ أو في مجموعة الشخصيات الذين لم يحسب حساب كل واحدة منها .. إلى عشرات ومئات من النقائص والاختلاف ، الناشئة من طبيعة الإدراك البشري المحدود ، ومن الجهل البشري بما وراء اللحظة الحاضرة ؛ فوق جهله بكل مكونات اللحظة الحاضرة — في أية لحظة حاضرة ! — وعكس ذلك كله هو ما يتسم به المنهج القرآني الشامل المتكامل ، الثابت الأصول ؛ ثبات النواميس الكونية ؛ الذي يسمح بالحركة الدائمة — مع ثباته — كما تسمح بها النواميس الكونية !

وتدبر هذه الظاهرة ، في آفاقها هذه ، قد لا يتسنى لكل إدراك ، ولا يتسنى لكل جيل . بل المؤكد أن كل إدراك سيتفاوت مع الآخر في إدراكها ؛ وكل جيل سيأخذ نصيبه في إدراكها ويدع آفاقاً منها للاجيال المترقية ، في جانب من جوانب المعرفة أو التجربة .. إلا أنه يتبقى من وراء كل الاختلاف البشري الكثير في إدراك هذه الظاهرة — كاختلافه الكثير في كل شيء آخر ! — بقية يلتقي عليها كل إدراك ، ويلتقي عليها كل جيل .. وهي أن هذه الصنعة شيء وصنعة البشر شيء آخر . وأنه لا اختلاف في هذه الصنعة ولا تفاوت ، وإنما وحدة وتناسق . ثم يختلف الناس بعد ذلك ما يختلفون في إدراك آماد وآفاق وأبعاد وأنواع ذلك التناسق ! (1) .

وإلى هذا القدر الذي لا يخطئه متدبر — حين يتدبر — يكل الله تلك الطائفة ، كما يكل كل أحد ، وكل جماعة ، وكل جيل . وإلى هذا القدر من الإدراك المشترك يكل إليهم الحكم على هذا القرآن ؛ وبناء اعتقادهم في أنه من عند الله . ولا يمكن أن يكون من عند غير الله .

ويحسن أن نقف هنا وقفة قصيرة ، لتحديد مجال الإدراك البشري في هذا الأمر وفي أمر

---

(1) يراجع كتاب : التصور الاسلامي : خصائصه ومقوماته » . وكتاب « نحو مجتمع اسلامي » وكتاب : « الاسلام ومشكلات الحضارة » وكتاب : (هذا الدين) فكل منها يتناول جانباً من جوانب هذه الحقيقة الكبيرة .

الدين كله . فلا يكون هذا التكريم الذي كرمه الله للانسان بهذا التحكيم ، سبيلا إلى الغرور وتجاوز الحد المأمون ؛ والانطلاق من السياج الحافظ من المضي في التيه بلا دليل !

إن مثل هذه التوجيهات في القرآن الكريم يساء إدراكها ، وإدراك مداها . فيذهب بها جماعة من المفكرين الإسلاميين — قديماً وحديثاً — إلى إعطاء الإدراك البشري سلطة الحكم النهائية في أمر الدين كله . ويجعلون منه ندا لشرع الله . بل يجعلونه هو المسيطر على شرع الله !

الأمر ليس كذلك .. الأمر أن هذه الأداة العظيمة — أداة الإدراك البشري — هي بلا شك موضع التكريم من الله — ومن ثم يكل اليها إدراك الحقيقة الأولى : حقيقة أن هذا الدين من عند الله . لأن هناك ظواهر يسهل إدراكها؛وهي كافية بذاتها للدلالة ـ دلالة هذا الإدراك البشري ذاته ـ على أن هذا الدين من عند الله .. ومتى أصبحت هذه القاعدة الكبيرة مسلما بها ، أصبح من منطق هذا الإدراك ذاته أن يسلم ـ بعد ذلك ـ تلقائياً بكل ما ورد في هذا الدين ـ لا يهم عندئذ أن يدرك حكمته الخفية أو لا يدركها . فالحكمة متحققة حتما ما دام من عند الله . ولا يهم عندئذ أن يرى « المصلحة » متحققة فيه في اللحظة الحاضرة . فالمصلحة حتما ما دام من عند الله .. والعقل البشري ليس ندا لشريعة الله — فضلا على أن يكون الحاكم عليها ـ لأنه لا يدرك إلا إدراكاً ناقصاً في المدى المحدود ؛ ويستحيل أن ينظر من جميع الزوايا وإلى جميع المصالح — لا في اللحظة الواحدة ولا في التاريخ كله — بينما شريعة الله تنظر هذه النظرة ؛ فلا ينبغي أن يكون الحكم فيها ، أو في حكم ثابت قطعي من أحكامها موكولا إلى الإدراك البشري .. وأقصى ما يتطلب من الإدراك البشري أن يتحرى إدراك دلالة النص وانطباقه ؛ لا أن يتحرى المصلحة أو عدم المصلحة فيه ! فالمصلحة متحققة أصلا بوجود النص من قبل الله تعالى .. إنما يكون هذا فيما لا نص فيه ، بما يجد من الأقضية ؛ وهذا سبق بيان المنهج فيه،وهو رده إلى الله والرسول .. وهذا هو مجال الاجتهاد الحقيقي.إلى جانب الاجتهاد في فهم النص ، والوقوف عنده ، لا تحكيم العقل البشري في أن مدلوله يحمل المصلحة أو لا يحملها!!! إن مجال العقل البشري الأكبر في معرفة نواميس الكون والإبداع في عالم المادة ... وهو ملك عريض !!!

يجب أن تحترم الإدراك البشري بالقدر الذي أراده الله له من التكريم في مجاله الذي يحسنه — ثم لا نتجاوز به هذا المجال . كي لا نمضي في التيه بلا دليل . إلا دليلًا يهجم علىما لا

يعرف من مجاهل الطريق .. وهو عندئذ أخطر من المضي بلا دليل[1]!!

***

ويمضي السياق يصور حال طائفة أخرى . أو يصف فعلة أخرى لطائفة في المجتمع المسلم :
« وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به . ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم ، لعلمه الذين يستنبطونه منهم . ولولا فضل الله عليكم ورحمته لا تبعتم الشيطان إلا قليلا » . . .

والصورة التي يرسمها هذا النص ، هي صورة جماعة في المعسكر الإسلامي، لم تألف نفوسهم النظام ؛ ولم يدركوا قيمة الإشاعة في خلخلة المعسكر ، وفي النتائج التي تترتب عليها ، وقد تكون قاصمة ، لأنهم لم يرتفعوا إلى مستوى الأحداث ، ولم يدركوا جدية الموقف ؛ وأن كلمة عابرة وفلتة لسان ، قد تجر من العواقب على الشخص ذاته ، وعلى جماعته كلها ما لا يخطر له ببال وما لا يتدارك بعد وقوعه بحال ! أو — ربما — لأنهم لا يشعرون بالولاء الحقيقي الكامل لهذا المعسكر ، وهكذا لا يعنيهم ما يقع له من جراء أخذ كل شائعة والجري بها هنا وهناك ، وإذاعتها ، حين يتلقاها لسان عن لسان . سواء كانت إشاعة أمن أو إشاعة خوف .. فكلتاهما قد يكون لإشاعتها خطورة مدمرة ! ـ فإن إشاعة أمر الأمن مثلاً في معسكر متأهب مستيقظ متوقع الحركة من العدو.. إشاعة أمر الأمن في مثل هذا المعسكر تحدث نوعاً من التراخي — مهما تكن الأوامر باليقظة ـ لأن اليقظة النابعة من التحفز للخطر غير اليقظة النابعة من مجرد الاوامر ! وفي ذلك التراخي قد تكون القاضية ! .. كذلك إشاعة أمر الخوف في معسكر مطمئن لقوته ، ثابت الأقدام بسبب هذه الطمأنينة . وقد تحدث إشاعة أمر الخوف فيه خلخلة وارتباكا ، وحركات لا ضرورة لها لاتقاء مظان الخوف.. وقد تكون كذلك القاضية !

وعلى أية حال فهي سمة المعسكر الذي لم يكتمل نظامه ؛ أو لم يكتمل ولاؤه لقيادته . أو هما معاً .. ويبدو أن هذه السمة وتلك كانتا واقعتين في المجتمع المسلم حينذاك ، باحتوائه على طوائف مختلفة المستويات في الإيمان ، ومختلفة المستويات في الادراك ، ومختلفة المستويات

(١) يراجع كتاب : « خصائص التصور الاسلامي ومقوماته » فصل « الربانية » وفصل « الثبات » وفصل « التوازن » .

في الولاء . . وهذه الخلخلة هي التي كان يعالجها القرآن بمنهجه الرباني .

والقرآن يدل الجماعة المسلمة على الطريق الصحيح :

« ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم ، لعلمه الذين يستنبطونه منهم » .

أي لو أنهم ردوا ما يبلغهم من أنباء الأمن أو الخوف الى الرسول ﷺ إن كان معهم ، أو الى أمرائهم المؤمنين ، لعلم حقيقته القادرون على استنباط هذه الحقيقة ؛ واستخراجها من ثنايا الأنباء المتناقضة ، والملابسات المتراكمة .

فمهمة الجندي الطيب في الجيش المسلم ؛ الذي يقوده أمير مؤمن — بشرط الإيمان ذاك وحده — حين يبلغ إلى أذنيه خبر ، أن يسارع فيخبر به نبيه أو أميره . لا أن ينقله ويذيعه بين زملائه ، أو بين من لا شأن لهم به . لأن قيادته المؤمنة هي التي تملك استنباط الحقيقة ، كما تملك تقدير المصلحة في إذاعة الخبر — حتى بعد ثبوته — أو عدم إذاعته ..

وهكذا كان القرآن يربي .. فيغرس الإيمان والولاء للقيادة المؤمنة ، ويعلم نظام الجندية في آية واحدة .. بل بعض آية .. فصدر الآية يرسم صورة منفرة للجندي وهو يتلقى نبأ الأمن أو الخوف ، فيحمله ويجري متنقلا ، مذيعا له ، من غير تثبت ، ومن غير تمحيص ، ومن غير رجعة إلى القيادة .. ووسطها يعلم ذلك التعليم .. وآخرها يربط القلوب بالله في هذا ، ويذكرها بفضله ، ويحركها إلى الشكر على هذا الفضل ، ويحذرها من اتباع الشيطان الواقف بالمرصاد ؛ الكفيل بإفساد القلوب لولا فضل الله ورحمته :

« ولولا فضل الله عليكم ورحمته لاتبعتم الشيطان إلا قليلا » ..

آية واحدة تحمل هذه الشحنة كلها ؛ وتتناول القضية من أطرافها ؛ وتتعمق السريرة والضمير ؛ وهي تضع التوجيه والتعليم !!! ذلك أنه من عند الله .. « ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيرا » ..

***

وحين يصل السياق إلى هذا الحد من تقويم عيوب الصف ؛ التي تؤثر في موقفه في الجهاد وفي الحياة — ومنذ أول الدرس وهذا التقويم مطرد لهذه العيوب — عندئذ ينتهي إلى قمة التحضيض على القتال الذي جاء ذكره في ثنايا الدرس . قمة التكليف الشخصي ، الذي لا يقعد الفرد عن تبطئة ولا تخذيل ، ولا خلل في الصف ، ولا وعورة في الطريق . حيث يوجه الخطاب إلى الرسول ﷺ بأن يقاتل — ولو كان وحيداً — فإنه لا يحمل في الجهاد إلا تبعة

شخصه ﷺ وفي الوقت ذاته يحرض المؤمنين على القتال .. وكذلك يوحي إلى النفوس بالطمأنينة ورجاء النصر : فالله هو الذي يتولى المعركة . والله أشد بأساً وأشد تنكيلا :

« فقاتل في سبيل الله – لا تكلف إلا نفسك – وحرض المؤمنين . عسى الله أن يكف بأس الذين كفروا . والله أشد بأساً وأشد تنكيلا »

ومن خلال هذه الآية – بالإضافة إلى ما قبلها – تبرز لنا ملامح كثيرة في الجماعة المسلمة يومذاك . كما تبرز لنا ملامح كثيرة في النفس البشرية في كل حين :

« ا » يبرز لنا مدى الخلخلة في الصف المسلم ؛ وعمق آثار التبطئة والتعويق والتثبيط فيه ؛ حتى لتكون وسيلة الاستنهاض والاستجاشة ، هي تكليف النبي ﷺ أن يقاتل في سبيل الله – ولو كان وحده – ليس عليه إلا نفسه ؛ مع تحريض المؤمنين . غير متوقف مضيه في الجهاد على استجابتهم أو عدم استجابتهم ! ولو أن عدم استجابتهم – جملة – أمر لا يكون . ولكن وضع المسألة هذا الوضع يدل على ضرورة إبراز هذا التكليف على هذا النحو ؛ واستجاشة النفوس له هذه الاستجاشة . فوق ما يحمله النص – طبعاً – من حقيقة أساسية ثابتة في التصور الاسلامي . وهي أن كل فرد لا يكلف إلا نفسه ..

« ب » كما يبرز لنا مدى المخاوف والمتاعب في التعرض لقتال المشركين يومذاك . . حتى ليكون أقصى ما يعلق الله به رجاء المؤمنين : أن يتولى هو سبحانه كف بأس الذين كفروا ؛ فيكون المسلمون ستاراً لقدرته في كف بأسهم عن المسلمين .. مع إبراز قوة الله – سبحانه – وأنه أشد بأساً وأشد تنكيلا .. وإيحاء هذه الكلمات واضح عن قوة بأس الذين كفروا يومذاك ؛ والمخاوف المبثوثة في الصف المسلم .. وربما كان هذا بين أحد والخندق . فهذه أحرج الأوقات التي مرت بها الجماعة المسلمة في المدينة ؛ بين المنافقين ، وكيد اليهود ، وتحفز المشركين ! وعدم اكتمال التصور الاسلامي ووضوحه وتناسقه بين المسلمين ! . . .

« ج » كذلك تبرز لنا حاجة النفس البشرية ، وهي تدفع إلى التكاليف التي تشق عليها ، إلى شدة الارتباط بالله ؛ وشدة الطمأنينة إليه ؛ وشدة الاستعانة به ؛ وشدة الثقة بقدرته وقوته .. فكل وسائل التقوية غير هذه لا تجدي حين يبلغ الخطر قمته . وهذه كلها حقائق يستخدمها المنهج الرباني ؛ والله هو الذي خلق هذه النفوس . وهو الذي يعلم كيف تربى وكيف تقوى وكيف تستجاش وكيف تستجيب ..

***

وبمناسبة تحريض الرسول ﷺ للمؤمنين على القتال الذي ورد الأمر به في آخر الدرس، وذكر المبطئين المثبطين في أوله، يقرر قاعدة عامة في الشفاعة – وهي تشمل التوجيه والنصح والتعاون :

« من يشفع شفاعة حسنة يكن له نصيب منها، ومن يشفع شفاعة سيئة يكن له كفل منها، وكان الله على كل شيء مقيتاً » ..

فالذي يشجع ويحرض ويعاون على القتال في سبيل الله، يكون له نصيب من أجر هذه الدعوة وآثارها. والذي يبطيء ويثبط تكون له تبعة فيها وفي آثارها. . وكلمة « كفل » توحي بأنه متكفل بجرائرها.

والمبدأ عام في كل شفاعة خير، أو شفاعة سوء. وقد ذكر المبدأ العام بمناسبة الملابسة الخاصة، على طريقة المنهج القرآني، في إعطاء القاعدة الكلية من خلال الحادثة الجزئيـــة، وربط الواقعة المفردة بالمبدأ العام كذلك. وربط الأمر كله بالله، الذي يرزق بكل شيء. أو الذي يمنح القدرة على كل شيء. وهو ما يفسر كلمة « مقيت » في قوله تعالى في التعقيب : « وكان الله على كل شيء مقيتا ».

ثم استطرد السياق بعد ذكر الشفاعة إلى الأمر برد التحية بخير منها أو بمثلها. والتحية في المجتمع علاقة من العلاقات التي تدور بها عجلة الحياة في يسر، إذا اتبع الأدب الواجب فيها.. والمناسبة قريبة بينها – في جو المجتمع – وبين الشفاعة التي سبق التوجيه فيها :

« وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها، أو ردوها، إن الله كان على كل شيء حسيباً»..

وقد جاء الإسلام بتحيته الخاصة، التي تميز المجتمع المسلم؛ وتجعل كل سمة فيـــه – حتى السمات اليومية العادية – متفردة متميزة؛ لا تندغم ولا تضيع في سمات المجتمعات الاخرى ومعالمها..

جعل الاسلام تحيته : « السلام عليكم » أو « السلام عليكم ورحمـــة الله » أو « السلام عليكم ورحمة الله وبركاته » .. والرد عليها بأحسن منها بالزيادة على كل منها – ما عدا الثالثة فلم تبق زيادة لمستزيد – فالرد على الأولى (وعليكم السلام ورحمـــة الله) والرد على الثانية (وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته) . والرد على الثالثة (وعليكم ..) إذ أنها استوفت كل الزيادات، فترد بمثلها .. وهكذا روى عن النبي ﷺ ..

ونقف أمام اللمسات الكامنة في آية التحية هذه :

إنها – أولا – تلك السمة المتفردة، التي يحرص المنهج الإسلامي على أن يطبع بها المجتمع

المسلم بحيث تكون له ملامحه الخاصة ، وتقاليده الخاصة - كما أن له شرائعه الخاصة ونظامه الخاص - وقد سبق أن تحدثنا عن هذه الخاصية بالتفصيل عند الكلام عن تحويل القبلة ، وتميز الجماعة المسلمة بقبلتها ، كتميزها بعقيدتها . وذلك في سورة البقرة من قبل في الظلال [1] .

وهي - ثانياً - المحاولة الدائمة لتوثيق علاقات المودة والقربى بين أفراد الجماعة المسلمة .. وإفشاء السلام ، والرد على التحية بأحسن منها ، من خير الوسائل لإنشاء هذه العلاقات وتوثيقها . وقد سئل رسول الله ﷺ أي العمل خير ؟ قال : « تطعم الطعام وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف [2] » .. هذا في إفشاء السلام بين الجماعة المسلمة ابتداء ، وهو سنة . أما الرد عليها فهو فريضة بهذه الآية .. والعناية بهذا الأمر تبدو قيمتها عند الملاحظة الواقعية لآثار هذا التقليد في إصغاء التآزب ، وتعارف غير المتعارفين ، وتوثيق الصلة بين المتصلين .. وهي ظاهرة يدركها كل من يلاحظ آثار مثل هذا التقليد في المجتمعات ، ويتدبر نتائجها العجيبة !

وهي - ثالثاً - نسمة رخية في وسط آيات القتال قبلها وبعدها .. لعل المراد منها أن يشار إلى قاعدة الإسلام الأساسية .. السلام .. فالإسلام دين السلام . وهو لا يقاتل إلا لإقرار السلام في الأرض ، بمعناه الواسع الشامل . السلام الناشيء من استقامة الفطرة على منهج الله [3] .

« اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، لَا رَيْبَ فِيهِ ، وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا ؟ (٨٧) فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ ، وَاللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوا ؟ أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ ؟ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا (٨٨) وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً ، فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ

---

(١) ص ١٠ - ١١ من الجزء الثاني : الطبعة الرابعة المنقحة.

(٢) أخرجه البخاري .

(٣) يراجع بتوسع كتاب : السلام العالمي والاسلام .

ٱللهِ. فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ ، وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيراً (٨٩) إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ ، أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَنْ يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ — وَلَوْ شَاءَ ٱللهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ — فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ ، وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ ، فَمَا جَعَلَ ٱللهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا (٩٠) سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ ، كُلَّمَا رُدُّوا إِلَى ٱلْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيهَا. فَإِنْ لَمْ يَعْتَزِلُوكُمْ ، وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ ، وَيَكُفُّوا أَيْدِيَهُمْ ، فَخُذُوهُمْ ، وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ. وَأُولَـٰئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَاناً مُبِيناً » (٩١).

«وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِناً ـ إِلَّا خَطَأً وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِناً خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ — إِلَّا أَنْ يَصَّدَّقُوا — فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ — وَهُوَ مُؤْمِنٌ — فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ. وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ ، فَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ ، وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ ؛ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ. تَوْبَةً مِنَ ٱللهِ. وَكَانَ ٱللهُ عَلِيماً حَكِيماً (٩٢) وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا ، وَغَضِبَ ٱللهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَاباً عَظِيماً » (٩٣).

« يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ ٱللهِ فَتَبَيَّنُوا ، وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ : لَسْتَ مُؤْمِناً ، تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَاةِ

الدُّنيا ! فَعِنْدَ ٱللهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ ، كَذٰلِكَ كُنتُمْ مِنْ قَبْلُ ، فَمَنَّ ٱللهُ عَلَيْكُمْ ، فَتَبَيَّنُوا ، إِنَّ ٱللهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً »(٩٤) .

يبدأ هذا الدرس بقاعدة التصور الإسلامي الأساسية .. التوحيد وإفراد الله ـ سبحانه ـ بالألوهية ؛ ثم يبني على هذه القاعدة أحكاماً شتى في معاملة المجتمع المسلم مع المعسكرات المختلفة ؛ بعد التنديد بانقسام الصف المسلم إلى فئتين ورأيين ، في معاملة المنافقين — ويبدو أنها جماعة خاصة من المنافقين من غير سكان المدينة ـ فتقوم هذه الأحكام ـ وهذا التنديد أيضاً ـ على قاعدتها الأصيلة ، التي يقوم عليها بناء النظام الإسلامي كله .. والتي يتكرر ذكرها كلما اتجه المنهج الرباني إلى تشريع أو توجيه ..

هذه الأحكام في معاملة المعسكرات المختلفة ، هي طرف من القواعد التي أنشأها الإسلام — لأول مرة في تاريخ البشرية — لتنظيم المعاملات الدولية ؛ واتخاذ قواعد أخرى لهذه المعاملات ، غير تحكيم السيف ، ومنطق القوة ، وشريعة الغاب .

إن أوربا بقانونها الدولي ـ وكل ما تفرع عنه من المنظمات الدولية ـ لم تبدأ في هذا الاتجاه إلا في القرن السابع عشر الميلادي (الحادي عشر الهجري) . ولم يزل هذا القانون — في جملته — حبراً على ورق ؛ ولم تزل هذه المنظمات — في جملتها — أدوات تختفي وراءها الأطماع الدولية ؛ ومنابر للحرب الباردة ! وليست أداة لإحقاق حق ؛ ولا لتحقيق عدل ! وقد دعت اليها منازعات بين دول متكافئة القوى . ولكن كلما اختل هذا التكافؤ لم يعد للقوانين الدولية قيمة ، ولا للمنظمات الدولية عمل ذو قيمة !

أما الإسلام — المنهج الرباني للبشر — فقد وضع أسس المعاملات الدولية في القرن السابع الميلادي (الأول الهجري) . ووضعها من عند نفسه ؛ دون أن تضطره إلى ذلك ملابسات القوى المتكافئة . فهو كان يضعها ليستخدمها هو ، وليقيم المجتمع المسلم علاقاته مع المعسكرات الأخرى على أساسها ، ليرفع للبشرية راية العدالة ، وليقيم لها معالم الطريق . ولو كانت المعسكرات الأخرى — الجاهلية — لا تعامل المجتمع المسلم بتلك المبادىء من جانبها .. فلقد كان الإسلام ينشيء هذه المبادىء إنشاء وللمرة الأولى ..

وهذه القواعد للمعاملات الدولية متفرقة في مواضعها ومناسباتها من سور القرآن ، وهي

تؤلف في مجموعها قانوناً كاملاً للتعامل الدولي . يضم حكماً لكل حالة من الحالات التي تعرض بين المعسكر الإسلامي والمعسكرات الأخرى ؛ محاربة . ومهادنة . ومحالفة . ومحايدة . ومرتبطة مع محارب ، أو مهادن ، أو محالف ، أو محايد .. الخ ..

وليس بنا هنا أن نستعرض هذه المبادىء والأحكام (فهي جديرة ببحث مستقل يتولاه متخصص في القانون الدولي) . ولكننا نستعرض ما جاء في هذه المجموعة من الآيات في هذا الدرس .. وهي تتعلق بالتعامل مع الطوائف التالية :

« ا » المنافقين غير المقيمين في المدينة .

« ب » الذين يرتبطون بقوم بينهم وبين المسلمين ميثاق ..

« ج » المحايدين الذين تضيق صدورهم بحرب المسلمين أو حرب قومهم كذلك . وهم على دينهم .

« د » المتلاعبين بالعقيدة الذين يظهرون الإسلام إذا قدموا المدينة ويظهرون الكفر إذا عادوا إلى مكة .

« هـ » حالات القتل الخطأ بين المسلمين والقتل العمد على اختلاف المواطن والأقوام ..

وسنجد أحكاماً صريحة واضحة في جميع الحالات ؛ التي تكون جانباً من مبادىء التعامل في المحيط الدولي . شأنها شأن بقية الأحكام التي تتناول شتى العلاقات الأخرى .

***

ونبدأ من حيث بدأ السياق القرآني بالقاعدة الأولية التي يقوم عليها بناء الاسلام كله . وبناء النظام الاسلامي في شتى جوانبه :

« الله لا إله إلا هو ، ليجمعنكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه . ومن أصدق من الله حديثاً ؟ » .

إنه من توحيد الله - سبحانه - وإفراده بالألوهية تبدأ خطوات المنهج الرباني - سواء في تربية النفوس أم في إقامة المجتمع ، ووضع شرائعه وتنظيمه ؛ وسواء كانت هذه الشرائع متعلقة بالنظام الداخلي للمجتمع المسلم ، أم بالنظام الدولي ، الذي يتعامل هذا المجتمع على أساسه مع المجتمعات الأخرى . ومن ثم نجد هذا الافتتاح لمجموعة الآيات المتضمنة لطائفة من قواعد التعامل الخارجية والداخلية أيضاً .

كذلك من الاعتقاد في الآخرة ، وجمع الله الواحد لعباده ، ليحاسبهم هناك على ما أتاح

لهم في الدنيا من فرص العمل والابتلاء ؛ تبدأ خطوات هذا المنهج في تربية النفوس ، وإثارة الحساسية فيها تجاه التشريعات والتوجيهات ؛ وتجاه كل حركة من حركاتها في الحياة .. فهو الابتلاء في الصغيرة والكبيرة في الدنيا ؛ والحساب على الصغيرة والكبيرة في الآخرة .. وهذا هو الضمان الأوثق لنفاذ الشرائع والانظمة ؛ لأنه كامن هناك في أعماق النفس ، حارس عليها ، سهران حيث يغفو الرقباء ويغفل السلطان !

هذا حديث الله — سبحانه — وهذا وعده :

« ومن أصدق من الله حديثا ؟ » ..

★★★

وبعد هذه اللمسة للقلوب ، وهي اللمسة الدالة على طريقة هذا المنهج في التربية ، كما هي دالة على أساس التصور الاعتقادي العملي في حياة الجماعة المسلمة ..

بعد هذه اللمسة يبدأ في استنكار حالة من التميع في مواجهة النفاق والمنافقين ؛ وقلة الحسم في موضع الحسم في معاملة الجماعة المسلمة لهم ؛ وانقسام هذه الجماعة فئتين في أمر طائفة من المنافقين ـ من خارج المدينة كما سنبين — حيث يشي هذا الاستنكار بما كان في المجتمع المسلم يومئذ من عدم التناسق ؛ كما يشي بتشدد الاسلام في ضرورة تحديد الأمور وحسمها ، وكراهة التميع في التعامل مع المنافقين والنظرة إليهم ؛ وارتكان إلى ظاهرهم .. ما لم يكن ذلك عن خطة مقررة هادفة :

« فما لكم في المنافقين فئتين ؟ والله أركسهم بما كسبوا ؛ أتريدون أن تهدوا من أضل الله ؟ ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا . ودوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء . فلا تتخذوا منهم أولياء حتى يهاجروا في سبيل الله . فإن تولوا فخذوهم ، واقتلوهم ، حيث وجدتموهم ، ولا تتخذوا منهم وليا ولا نصيرا » ..

وقد وردت في شأن هؤلاء المنافقين روايات ، أهمها روايتان :

قال الامام أحمد : حدثنا بهز ، حدثنا شعبة ، قال عدي بن ثابت : أخبرني عبد الله بن يزيد ، عن زيد بن ثابت ، أن رسول الله ﷺ خرج الى أحد ، فرجع ناس خرجوا معه . فكان أصحاب رسول الله ﷺ فيهم ، فرقتين : فرقة تقول : نقتلهم ، وفرقة تقول : لا . هم المؤمنون ! فأنزل الله : « فما لكم في المنافقين فئتين ؟ » فقال رسول الله ﷺ : « إنها طيبة . وإنها تنفي الخبث كما ينفي الكير خبث الحديد » .. (أخرجاه في الصحيحين من حديث شعبة) .

وقال العوفي عن ابن عباس : نزلت في قوم كانوا قد تكلموا بالإسلام ؛ وكانوا يظاهرون المشركين . فخرجوا من مكة يطلبون حاجة لهم . فقالوا : إن لقينا أصحاب محمد فليس علينا منهم بأس .. وإن المؤمنين لما أخبروا أنهم قدخرجوا من مكة ،قالت فئة من المؤمنين: اركبوا إلى الجبناء فاقتلوهم ، فإنهم يظاهرون عدوكم.وقالت فئة أخرى من المؤمنين : سبحان الله : - أو كما قالوا - أتقتلون قوما قد تكلموا بمثل ما تكلمتم به ؟ من أجل أنهم لم يهاجروا ، ولم يتركوا ديارهم ، نستحل دماءهم وأموالهم ؟ فكانوا كذلك فئتين ، والرسول عندهم لا ينهى واحداً من الفريقين عن شيء ، فنزلت : « فما لكم في المنافقين فئتين ؟ » . . (رواه ابن أبي حاتم ، وقد روى عن أبي سلمة بن عبد الرحمن وعكرمة ومجاهد والضحاك وغيرهم قريب من هذا) .

ومع أن الرواية الاولى أوثق من ناحية السند والإخراج إلا أننا نرجح مضمون الرواية الثانية ، بالاستناد إلى الواقع التاريخي ؛ فالثابت أن منافقي المدينة لم يرد أمر بقتالهم ؛ ولم يقاتلهم الرسول ﷺ أو يقتلهم . إنما كانت هناك خطة أخرى مقررة في التعامل معهم . هي خطة الإغضاء عنهم ، وترك المجتمع نفسه ينبذهم ، وتقطيع الأسناد من حولهم بطرد اليهود - وهم الذين يغرونهم ويعاونون لهم - من المدينة أولا.ثم من الجزيرة العربية كلها أخيرا.. أما هنا فنحن نجد أمراً جازماً بأخذهم أسرى ، وقتلهم حيث وجدوا : مما يقطع بأنهم مجموعة أخرى غير مجموعة المنافقين في المدينة .. وقد يقال : إن الأمر بأخذهم أسرى وقتلهم مشروط بقوله تعالى : « فلا تتخذوا منهم أولياء حتى يهاجروا ، فإن تولوا فخذوهم واقتلوهم حيث وجدتموهم » . . فهو تهديد ليقلعوا عما هم فيه .. وقد يكونون أقلعوا فلم ينفذ الرسول ﷺ هذا الأمر فيهم . . ولكن كلمة « يهاجروا » تقطع - في هذه الفترة - بأنهم ليسوا من أهل المدينة . وأن المقصود هو أن يهاجروا إلى المدينة ؛ فقد كان هذا قبل الفتح . ومعنى الهجرة - قبل الفتح - كان محدداً بأنه الهجرة من دار الكفر إلى دار الإسلام ؛ والانضمام للجماعة المسلمة ؛ والخضوع لنظامها . وإلا فهو الكفر أو النفاق..وسيجيء في سياق السورة - في الدرس التالي - تنديد شديد بموقف الذين بقوا - بغير عذر من الضعف - من المسلمين في مكة ؛ دار الكفر والحرب بالنسبة لهم ولو كانوا من أهلها ومواطنين فيها ! - وكل هذا يؤيد ترجيح الرواية الثانية . وأن هؤلاء المنافقين كانوا جماعة من مكة - أو ممن حولها - يقولون كلمة الإسلام بأفواههم ، ويظاهرون عدو المسلمين بأعمالهم .

ونعود إلى النص القرآني :

« فما لكم في المنافقين فئتين ، والله أركسهم بما كسبوا ؟ أتريدون أن تهدوا من أضل الله ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا . ودّوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء. فلا تتخذوا منهم أولياء حتى يهاجروا في سبيل الله . فإن تولوا فخذوهم ، واقتلوهم حيث وجدتموهم ، ولا تتخذوا منهم وليا ولا نصيرا » ..

إننا نجد في النصوص استنكاراً لانقسام المؤمنين فئتين في أمر المنافقين ؛ وتعجباً من اتخاذهم هذا الموقف ؛ وشدة وحسما في التوجيه إلى تصور الموقف على حقيقته ، وفي التعامل مع أولئك المنافقين كذلك .

وكل ذلك يشي بخطر التميع في الصف المسلم حينذاك — وفي كل موقف مماثل — التميع في النظرة إلى النفاق والمنافقين ؛ لأن فيها تميعاً كذلك في الشعور بحقيقة هذا الدين . ذلك أن قول جماعة من المؤمنين « سبحان الله — أو كما قالوا — أتقتلون قوماً قد تكلموا بمثل ما تكلمتم به من أجل أنهم لم يهاجروا ولم يتركوا ديارهم ، نستحل دماءهم وأموالهم ؟ » . . وتصورهم للامر على هذا النحو ، من أنه كلام مثل ما يتكلم المسلمون ! مع أن شواهد الحال كلها وقول هؤلاء المنافقين : « إن لقينا أصحاب محمد فليس علينا منهم بأس » . . وشهادة الفئة الإخرى من المؤمنين وقولهم : « يظاهرون عدوكم » .. تصورهم للأمر على هذا النحو فيه تميع كبير لحقيقة الإيمان ، في ظروف تستدعي الوضوح الكامل ؛ والحسم القاطع . فإن كلمة تقال باللسان ؛ مع عمل واقعي في مساعدة عدو المسلمين الظاهرين ، لا تكون إلا نفاقا . ولا موضع هنا للتسامح أو للاغضاء . لأنه تميع للتصور ذاته .. وهذا هو الخطر الذي يواجهه النص القرآني بالعجب والاستنكار والتشديد البين .

ولم يكن الحال كذلك في الاغضاء عن منافقي المدينة . فقد كان التصور واضحاً . هؤلاء منافقون .. ولكن هناك خطة مقررة للتعامل معهم . هي أخذهم بظاهرهم والاغضاء إلى حين .

وهذا أمر آخر غير أن ينافح جماعة من المسلمين عن المنافقين . لأنهم قالوا كلاما كالذي يقوله المسلمون . وأدوا بألسنتهم شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله . بينما هم يظاهرون أعداء المسلمين !

من أجل هذا التميع في فهم فئة من المسلمين . ومن أجل ذلك الاختلاف في شأن المنافقين في الصف المسلم ، كان هذا الاستنكار الشديد في مطلع الآية .. ثم تبعه الإيضاح الإلهي لحقيقة موقف هؤلاء المنافقين :

« والله أركسهم بما كسبوا » ..

مالكم فئتين في شأن المنافقين . والله أوقعهم فيما هم فيه بسبب سوء نيتهم وسوء عملهم ؟ وهي شهادة من الله حاسمة في أمرهم . بأنهم واقعون في السوء بما أضمروا وبما عملوا من سوء :

ثم استنكار آخر :

« أتريدون أن تهدوا من أضل الله؟ »..

ولعله كان في قول الفريق .. المتسامح !!.. ما يشير إلى إعطائهم فرصة ليهتدوا، ويتركوا اللجلجة ! فاستنكر الله هـــذا في شأن قوم استحقوا أن يوقعهم الله في شر أعمالهم وسوء مكاسبهم .

« ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلاً » ..

فإنما يضل الله الضالين .. أي يمد لهم في الضلالة حين يتجهون هم بجهدهم ونيتهم إلى الضلالة . وعندئذ تغلق في وجوههم سبل الهداية ؛ بما بعدوا عنها ، وسلكوا غير طريقها؛ ونبذوا العون والهدى ، وتنكروا لمعالم الطريق !

ثم يخطو السياق خطوة أخرى في كشف موقف المنافقين .. إنهم لم يضلوا أنفسهم فحسب؛ ولم يستحقوا أن يوقعهم الله في الضلالة بسعيهم ونيتهم فحسب .. إنمــا هم كذلك يبتغون إضلال المؤمنين :

« ودوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء » ..

إنهم قد كفروا .. على الرغم من أنهم تكلموا بما تكلم به المسلمون ، ونطقوا بالشهادتين نطقا يكذبه العمل في مظاهرة أعداء المسلمين . . وهم لا يريدون أن يقفوا عند هذا الحد . فالذي يكفر لا يستريح لوجود الإيمان في الأرض ووجود المؤمنين. ولا بد له من عمل وسعي، ولا بد له من جهد وكيد لرد المسلمين إلى الكفر . ليكونوا كلهم سواء .

هذا هو الإيضاح الأول لحقيقة موقف أولئك المنافقين . . وهو يحمل البيان الذي يرفع التميع في تصور الإيمان ؛ ويقيمه على أساس واضح من القول والعمــل متطابقين . وإلا فلا عبرة بكلمات اللسان ، وحولها هذه القرائن التي تشهد بالكذب والنفاق .

والقرآن يلمس مشاعر المؤمنين لمسة قوية مفزعة لهم ، وهو يقول لهم :

« ودوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء » . .

فقد كانوا حديثي عهد بتذوق حلاوة الإيمان بعـــد مرارة الكفر . وبالنقلة الضخمة التي يجدونها في أنفسهم ، بين مشاعرهم ومستواهم ومجتمعهم في الجاهلية . . ثم في الاسلام . وكان الفرق واضحاً بارزاً في مشاعرهم وفي واقعهم ، تكفي الإشارة إليه لاستثارة عداوتهم

كلها لمن يريد أن يردهم إلى ذلك السفح الهابط – سفح الجاهلية – الذي التقطهم منه الإسلام ؛ فسار بهم صعداً في المرتقى الصاعد ، نحو القمة السامقة .

ومن ثم يتكيء المنهج القرآني على هذه الحقيقة؛فيوجه إليهم الأمر في لحظة التوفز والتحفز والانتباه للخطر البشع الفظيع الذي يتهددهم من قبل هؤلاء :

« فلا تتخذوا منهم أولياء حتى يهاجروا في سبيل الله . فإن تولوا فخذوهم واقتلوهم حيث وجدتموهم ، ولا تتخذوا منهم وليا ولا نصيرا » ..

ونحس من النهي عن اتخاذ أولياء منهم .. أنه كانت ما تزال للروابط والوشائج العائلية والقبلية بقايا في نفوس المسلمين في المدينة – وربما كان للمصالح الاقتصادية أيضاً – وكان المنهج القرآني يعالج هذه الرواسب ؛ ويقرر للامة المسلمة قواعد ارتباطاتها . كما يقرر قواعد تصورها في الوقت ذاته .

كان يعلمها أن الأمة لا تقوم على روابط العشيرة والقبيلة ، أو روابط الدم والقرابة . أو روابط الحياة في أرض واحدة أو مدينة واحدة ، أو روابط المصالح الاقتصادية في التجارة وغير التجارة .. إنما تقوم الأمة على العقيدة ؛ وعلى النظام الاجتماعي المنبثق من هذه العقيدة .

ومن ثم فلا ولاية بين المسلمين في دار الاسلام ، وبين غيرهم ممن هم في دار الحرب . . ودار الحرب هي يومئذ مكة موطن المهاجرين الأول .. لا ولاية حتى يهاجر أولئك الذين يتكلمون بكلمة الاسلام ؛ وينضموا إلى المجتمع المسلم – أي إلى الأمةالمسلمة – حيث تكون هجرتهم لله وفي سبيل الله . من أجل عقيدتهم ، لا من أجل أي هدف آخر ؛ ولإقامة المجتمع المسلم الذي يعيش بالمنهج الإسلامي لا لأي غرض آخر .. بهذه النصاعة . وبهذا الحسم . وبهذا التحديد الذي لا يقبل أن تختلط به شوائب أخرى ، أو مصالح أخرى ، أو أهداف أخرى..

فإن هم فعلوا . فتركوا أهلهم ووطنهم ومصالحهم . . في دار الحرب .. وهاجروا إلى دار الإسلام ، ليعيشوا بالنظام الاسلامي ، المنبثق من العقيدة الإسلامية ، القائم على الشريعة الاسلامية .. إن هم فعلوا هذا فهم أعضاء في المجتمع المسلم ، مواطنون في الأمة المسلمة . وإن لم يفعلوا وأبوا الهجرة ، فلا عبرة بكلمات تقال فتكذبها الأفعال :

« فإن تولوا فخذوهم (أي أسرى) واقتلوهم حيث وجدتموهم ، ولا تتخذوا منهم وليا ولا نصيراً » .

وهذا الحكم – كما قلنا – هو الذي يرجح عندنا ، أنهم لم يكونوا هم منافقي المدينة . إذ قد اتبعت مع منافقي المدينة سياسة أخرى .

إن الإسلام يتسامح مع أصحاب العقائد المخالفة له ؛ فلا يكرههم أبـداً على اعتناق عقيدته . ولهم — حتى وهم يعيشون في ظل نظامه ودولته — أن يجهروا بمعتقداتهم المخالفـة للاسلام في غير ما دعوة للمسلمين ولا طعن في الدين . فقد ورد في القرآن من استنكار مثـل هذا الطعن من أهل الكتاب ما لا يدع مجالاً للشك في أن الإسلام لا يدع غير المعتقدين له ممن يعيشون في ظله يطعنون فيه ويموهون حقائقه ويلبسون الحق بالباطل كما تقول بعض الآراء المائعة في زماننا هذا ! وحسب الإسلام أنه لا يكرههم على اعتناق عقيدته . وأنـه يحافظ على حياتهم وأموالهم ودمائهم ؛ وأنه يمتعهم بخير الوطن الاسلامي بلا تمييز بينهم وبين أهل الاسلام؛ وأنه يدعهم يتحاكمون إلى شريعتهم في غير ما يتعلق بمسائل النظام العام .

إن الإسلام يتسامح هذا التسامح مع مخالفيه جهاراً نهاراً في العقيدة .. ولكنه لا يتسامح هذا التسامح مع من يقولون الإسلام كلمة باللسان تكذبها الأفعال . لا يتسامح مـع من يقولون : إنهم يوحدون الله ويشهدون أن لا إله إلا الله . ثم يعترفون لغير الله بخاصيـة من خصائص الألوهية ، كالحاكمية والتشريـع للناس ؛ فيصم أهـل الكتاب بأنهم مشركون ، لأنهم اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح ابن مريم .. لا لأنهم عبدوهم . ولكن لأنهم أحلوا لهم الحلال ، وحرموا عليهم الحرام فاتبعوهم !

ولا يتسامح هذا التسامح في وصف جماعة من المنافقين بأنهم مؤمنون . لأنهم شهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله . ثم بقوا في دار الكفر ، يناصرون أعـداء المسلمين !

ذلك أن التسامح هنا ليس تسامحاً . إنما هو تميـع . والإسلام عقيدة التسامح . ولكنه ليس عقيدة « التميـع » . إنه تصور جاد . ونظام جاد . والجد لا ينافي التسامح . ولكنه ينـافي التميـع .

وفي هذه اللفتات واللمسات من المنهج القرآني للجماعة المسلمة الأولى ، بيان وبلاغ ..

* * *

ثم استثنى من هذا الحكم — حكم الأسر والقتل — لهذا الصنف من المنافقين ، الذين يعينون أعداء المسلمين — من يلجأون إلى معسكر بينه وبين الجماعة الإسلامية عهد — عهد مهادنة أو عهد ذمة — ففي هذه الحالة يأخذون حكم المعسكر الذي يلتجئون إليه ، ويتصلون به :

« إلا الذين يصلون إلى قوم بينكم وبينهم ميثاق » . .

ويبدو في هذا الحكم اختيار الإسلام للسلم ، حيثما وجد مجالا للسلم لا يتعارض مع منهجه

الأساسي - من حرية الإبلاغ وحرية الاختيار ؛ وعدم الوقوف في وجه الدعوة ، بالقوة مع كفالة الأمن للمسلمين ؛ وعدم تعريضهم للفتنة ، أو تعريض الدعوة الإسلامية ذاتها للتجميد والخطر .

ومن ثم يجعل كل من يلجأ ويتصل ويعيش بين قوم معاهدين - عهدذمة أو عهد هدنة - شأنه شأن القوم المعاهدين . يعامل معاملتهم ، ويسالم مسالمتهم . وهي روح سلمية واضحة المعالم في مثل هذه الأحكام .

كذلك يستثني من الاسر والقتل جماعة أخرى . هي الأفراد أو القبائل أو المجموعات التي تريد أن تقف على الحياد ، فيا بين قومهم وبين المسلمين من قتال . إذ تضيق صدورهم أن يقاتلوا المسلمين مع قومهم . كما تضيق صدورهم أن يقاتلوا قومهم مع المسلمين . فيكفوا أيديهم عن الفريقين بسبب هذا التحرج من المساس بهؤلاء أو هؤلاء :

« أو جاءوكم ، حصرت صدورهم أن يقاتلوكم أو يقاتلوا قومهم » ..

وواضح كذلك في هذا الحكم الرغبة السلمية في اجتناب القتال ؛ حيثما كف الآخرون عن التعرض للمسلمين ودعوتهم ؛ واختاروا الحياد بينهم وبين المحاربين لهم . وهؤلاء الذين يتحرجون أن يحاربوا المسلمين أو يحاربوا قومهم .. كانوا موجودين في الجزيرة ؛ وفي قريش نفسها ؛ ولم يلزمهم الإسلام أن يكونوا معه أو عليه . فقد كان حسبه ألا يكونوا عليه [1] ..
كما أنه كان المرجو من أمرهم أن ينحازوا إلى الإسلام ، حينما تزول الملابسات التي تحرجهم من الدخول فيه ؛ كما وقع بالفعل .

ويحبب الله المسلمين في انتهاج هذه الخطة مع المحايدين المتحرجين . فيكشف لهم عن الفرض الثاني الممكن في الموقف ! فلقد كان من الممكن - بدل أن يقفوا هكذا على الحياد متحرجين - أن يسلطهم الله على المسلمين فيقاتلوهم مع اعدائهم المحاربين ! فأما وقد كفهم الله عنهم على هذا النحو ، فالسلم أولى ، وتركهم وشأنهم هو السبيل :

« ولو شاء الله لسلطهم عليكم فلقاتلوكم . فإن اعتزلوكم فلم يقاتلوكم ، وألقوا اليكم السلم . فما جعل الله لكم عليهم سبيلا » ..

وهكذا يلمس المنهج التربوي الحكيم نفوس المسلمين المتحمسين ، الذين قد لا يرضون

---

(١) عدلت هذه الاحكام في آيات التوبة ، حين تقرر - بعد التجارب العملية - انه لا يمكن ان يتعايش دينان في الجزيرة .

هذا الموقف من هذا الفريق . يلمسه بما في هذا الموقف من فضل الله وتدبيره ؛ ومن كف لجانب من العداء والأذى كان سيضاعف العبء على عاتق المسلمين . ويعلمهم أن يأخذوا الخير الذي يعرض فلا يرفضوه ، ويجتنبوا الشر الذي يأخذ طريقه بعيداً عنهم ، فلا يناوشوه .. طالما أن ليس في هذا كله تفريط في شيء من دينهم ، ولا تمييع لشيء من عقيدتهم ؛ ولا رضى بالدنية في طلب السلم الرخيصة !

لقد نهاهم عن السلم الرخيصة . لأنه ليس الكف عن القتال بأي ثمن هو غاية الإسلام .. إنما غاية الإسلام : السلم التي لا تحيف حقاً من حقوق الدعوة ، ولا من حقوق المسلمين .. لا حقوق أشخاصهم وذواتهم ؛ ولكن حقوق هذا المنهج الذي يحملونه ويسمون به مسلمين .

وإن من حق هذا المنهج أن تزال العقبات كلها من طريق إبلاغ دعوته وبيانه للناس في كل زاوية من زوايا الأرض . وأن يكون لكل من شاء ـ ممن بلغتهم الدعوة ـ أن يدخل فيه فلا يضار ولا يؤذى في كل زاوية من زوايا الأرض . وأن تكون هناك القوة التي يخشاها كل من يفكر في الوقوف في وجه الدعوة ـ في صورة من الصور ـ أو مضارة من يؤمن بها ـ أي لون من ألوان المضارة ـ وبعد ذلك فالسلم قاعدة . والجهاد ماض إلى يوم القيامة .

***

ولكن هناك طائفة أخرى ، لا يتسامح معها الإسلام هذا التسامح . لأنها طائفة منافقة شريرة كالطائفة الأولى . وليست مرتبطة بميثاق ولا متصلة بقوم لهم ميثاق . فالإسلام إزاءها إذن طليق . يأخذها بما أخذ به طائفة المنافقين الأولى :

« ستجدون آخرين ، يريدون أن يأمنوكم ويأمنوا قومهم . كلما ردوا إلى الفتنة أركسوا فيها . فإن لم يعتزلوكم ويلقوا إليكم السلم ، ويكفوا أيديهم ؛ فخذوهم ، واقتلوهم حيث ثقفتموهم ، وأولئكم جعلنا لكم عليهم سلطانا مبينا » ..

حكى ابن جرير عن مجاهد ، أنها نزلت في قوم من أهل مكة ، كانوا يأتون النبي ﷺ فيسلمون رياء ؛ ثم يرجعون إلى قريش فيرتكسون في الأوثان ، يبتغون بذلك أن يأمنوا هاهنا ، وها هنا . فأمر بقتلهم ـ إن لم يعتزلوا ويصلحوا ـ ولهذا قال تعالى : « فإن لم يعتزلوكم ويلقوا إليكم السلم (المهادنة والصلح) ويكفوا أيديهم (أي عن القتال) فخذوهم (أسراء) واقتلوهم حيث ثقفتموهم (أي حيث وجدتموهم) وأولئكم جعلنا لكم عليهم سلطانا مبينا ».

وهكذا نرى صفحة من حسم الاسلام وجديته ، إلى جانب سماحته وتغاضيه .. هذه في

موضعها ، وتلك في موضعها . وطبيعة الموقف ، وحقيقة الواقعة، هي التي تحدد هذه وتلك ..

ورؤية هاتين الصفحتين - على هذا النحو - كفيلة بأن تنشيء التوازن في شعور المسلم ؛ كما تنشيء التوازن في النظام الاسلامي - السمة الأساسية الأصيلة - فأما حين يجيء المتشددون فيأخذون الأمر كله عنفاً وحماسة وشدة واندفاعاً فليس هذا هو الاسلام ! وأما حين يجيء المتميعون المترفقون المعتذرون عن الجهاد في الاسلام ، كأن الإسلام في قفص الاتهام وهم يترافعون عن المتهم الفاتك الخطير ! فيجعلون الأمر كله سماحة وسلما وإغضاء وعفواً ،ومجرد دفاع عن الوطن الإسلامي وعن جماعة المسلمين - وليس دفعا عن حرية الدعوة وإبلاغها لكل زاوية في الأرض بلا عقبة . وليس تأمينا لأي فرد في كل زاوية من زوايا الأرض يريد أن يختار الإسلام عقيدة . وليس سيادة لنظام فاضل وقانون فاضل يأمن الناس كلهم في ظله ، من اختار عقيدته ومن لم يختروها سواء .. فأما حينئذ فليس هذا هو الإسلام .

وفي هذه الطائفة من أحكام المعاملات الدولية بلاغ وبيان ..

***

ذلك في علاقات المسلمين مع المعسكرات الاخرى . فأما في علاقات المسلمين بعضهم ببعض ؛ مهما اختلفت الديار - وفي ذلك الوقت كما في كل وقت كان هناك مسلمون في شتى الديار - فلا قتل ولا قتال .. لا قتل إلا في حد أو قصاص .. فإنه لا يوجد سبب يبلغ من ضخامته أن يفوق ما بين المسلم والمسلم من وشيجة العقيدة . ومن ثم لا يقتل المسلم المسلم أبداً . وقد ربطت بينهما هذه الرابطة الوثيقة . اللهم إلا أن يكون ذلك خطأ .. وللقتل الخطأ توضع التشريعات والأحكام . فأما القتل العمد فلا كفارة له . لأنه وراء الحسبان ! ووراء حدود الإسلام ! .

« وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمنا إلا خطأ . ومن قتل مؤمناً خطأ . فتحرير رقبة مؤمنة ودية مسلمة إلى أهله - إلا أن يصدقوا - فإن كان من قوم عدو لكم - وهو مؤمن - فتحرير رقبة مؤمنة . وإن كان من قوم بينكم وبينهم ميثاق فدية مسلمة إلى أهله وتحرير رقبة مؤمنة . فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين . توبة من الله . وكان الله عليما حكيما » .

« ومن يقتل مؤمنا متعمداً فجزاؤه جهنم خالدا فيها ، وغضب الله عليه ولعنه ، وأعد له عذابا عظيما » ..

وهذه الأحكام تتناول أربع حالات : ثلاث منها من حالات القتل الخطأ - وهو الأمر

المحتمل وقوعه بين المسلمين في دار واحدة ـ دار الاسلام ـ أو في ديار مختلفة بين شتى الأقوام ـ والحالة الرابعة حالة القتل العمد . وهي التي يستبعد السياق القرآني وقوعها ابتداء . فليس من شأنها أن تقع . إذ ليس في هذه الحياة الدنيا كلها ما يساوي دم مسلم يريقه مسلم عمداً . وليس في ملابسات هذه الحياة الدنيا كلها ما من شأنه أن يوهن من علاقة المسلم بالمسلم إلى حد أن يقتله عمداً . وهذه العلاقة التي أنشأها الاسلام بين المسلم والمسلم من المتانة والعمق والضخامة والغلاوة والاعزاز بحيث لا يفترض الإسلام أن تخدش هذا الخدش الخطير أبداً . . ومن ثم يبدأ حديثه عن أحكام القتل الخطأ :

« وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمنا إلا خطأ » . .

فهذا هو الاحتمال الوحيد في الحس الاسلامي . . وهو الاحتمال الحقيقي في الواقع . . فإن وجود مسلم إلى جوار مسلم مسألة كبيرة . كبيرة جداً . ونعمة عظيمة عظيمة جداً . ومن العسير تصور أن يقدم مسلم على إزالة هذه النعمة عن نفسه ؛ والاقدام على هذه الكبيرة عن عمد وقصد . . إن هذا العنصر . . المسلم . . عنصر عزيز في هذه الارض . . وأشد الناس شعوراً باعزاز هذا العنصر هو المسلم مثله . . فمن العسير أن يقدم على إعدامه بقتله . . وهذا أمر يعرفه أصحابه . يعرفونه في نفوسهم ومشاعرهم . وقد علمهم الله إياه بهذه العقيدة وبهذه الوشيجة وبهذه القرابة التي تجمعهم في رسول الله ﷺ ثم ترتقي فتجمعهم في الله سبحانه الذي ألف بين قلوبهم . ذلك التأليف الرباني العجيب .

فأما إذا وقع القتل خطأ فهناك تلك الحالات الثلاث ، التي يبين السياق أحكامها هنا :

الحالة الأولى : أن يقع القتل على مؤمن أهله مؤمنون في دار الاسلام . ويجب في هذه الحالة تحرير رقبة مؤمنة ، ودية تسلم إلى أهله . . فأما تحرير الرقبة المؤمنة ، فهو تعويض للمجتمع المسلم عن قتل نفس مؤمنة باستحياء نفس مؤمنة . وكذلك هو تحرير الرقاب في حس الاسلام . وأما الدية فتسكين لثائرة النفوس ، وشراء لخواطر المفجوعين ، وتعويض لهم عن بعض ما فقدوا من نفع المقتول . . ومع هذا يلوح الاسلام لأهل القتيل بالعفو ـ إذا اطمأنت نفوسهم اليه ـ لأنه أقرب الى جو التعاطف والتسامح في المجتمع المسلم .

« ومن يقتل مؤمنا خطأ فتحرير رقبة مؤمنة ، ودية مسلمة الى اهله إلا أن يصدقوا» . .

والحالة الثانية : أن يقع القتل على مؤمن وأهله محاربون للاسلام في دار الحرب . . وفي هذه الحالة يجب تحرير رقبة مؤمنة لتعويض النفس المؤمنة التي قتلت ، وفقدها الاسلام . ولكن لا يجوز أداء دية لقومه المحاربين ، يستعينون بها على قتال المسلمين ! ولا مكان هنا لاسترضاء أهل القتيل وكسب مودتهم ، فهم محاربون ، وهم عدو للمسلمين .

والحالة الثالثة : أن يقع القتل على مؤمن قومه معاهدون ـ عهد هدنة أو عهد ذمة ـ ولم ينص على كون المقتول مؤمناً في هذه الحالة . مما جعل بعض المفسرين والفقهاء يرى النص على إطلاقه : ويرى الحكم بتحرير رقبة مؤمنة ودية مسلمة إلى أهله ـ المعاهدين ـ ولو لم يكن مؤمناً . لأن عهدهم مع المؤمنين يجعل دماءهم مصونة كدماء المسلمين .

ولكن الذي يظهر لنا أن الكلام ابتداء منصب على قتل المؤمن . « وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمنا إلا خطأ » .. ثم بيان للحالات المتنوعة التي يكون فيها القتيل مؤمناً . وإذا كان قد نص في الحالة الثانية فقال : « وإن كان من قوم عدو لكم ـ وهو مؤمن » فقد كان هذا الاحتراز مرة أخرى بسبب ملابسة أنه من قوم عدو . ويؤيد هذا الفهم النص على تحرير رقبة مؤمنة في هذه الحالة الثالثة . مما يوحي بأن القتيل مؤمن فأعتقت رقبة مؤمنة تعويضاً عنه . وإلا لكفى عتق رقبة إطلاقا دون شرط الايمان ..

وقد ورد أن النبي ﷺ ودى بعض القتلى من المعاهدين : ولكن لم يرد عتق رقاب مؤمنة بعددهم . مما يدل على أن الواجب في هذه الحالة هو الدية . وأن هذا ثبت بعمل رسول الله ﷺ لا بهذه الآية ، وأن الحالات التي تتناولها هذه الآية كلها هي حالات وقوع القتل على مؤمن . سواء كان من قوم مؤمنين في دار الاسلام ، أو من قوم محاربين عدو للمسلمين في دار الحرب ، أو من قوم بينهم وبين المسلمين ميثاق .. ميثاق هدنة أو ذمة .. وهذا هو الأظهر في السياق .

***

ذلك القتل الخطأ . فأما القتل العمد ، فهو الكبيرة التي لا ترتكب مع إيمان ؛ والتي لا تكفر عنها دية ولا عتق رقبة ؛ وإنما يوكل جزاؤها إلى عذاب الله :

« ومن يقتل مؤمنا متعمداً فجزاؤه جهنم خالدا فيها ، وغضب الله عليه ولعنه . وأعد له عذابا عظيما » .

إنها جريمة قتل لا لنفس فحسب — بغير حق — ولكنها كذلك جريمة قتل للوشيجة العزيزة الحبيبة الكريمة العظيمة ، التي أنشأها الله بين المسلم والمسلم . إنها تنكر للايمان ذاته والعقيدة نفسها .

ومن ثم قرنت بالشرك في مواضع كثيرة ؛ واتجه بعضهم — ومنهم ابن عباس — إلى أنه لا توبة منها .. ولكن البعض الآخر استند إلى قوله تعالى : « إن الله لا يغفر أن يشرك به ، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء » .. فرجا للقاتل التائب المغفرة .. وفسر الخلود بأنه الدهر الطويل .

والذين تربوا في مدرسة الإسلام الأولى ، كانوا يرون قاتلي آبائهم وأبنائهم وإخوانهم ، — قبل إسلامهم — يمشون على الأرض — وقد دخلوا في الاسلام — فيهيج في نفوس بعضهم ما يهيج من المرارة . ولكنهم لا يفكرون في قتلهم . لا يفكرون مرة واحدة ؛ ولا يخطر لهم هذا الخاطر في أشد الحالات وجداً ولذعاً ومرارة . بل إنهم لم يفكروا في إنقاصهم حقاً واحداً من حقوقهم التي يخولها لهم الاسلام .

واحتراساً من وقوع القتل ولو كان خطأ ؛ وتطهيراً لقلوب المجاهدين حتى ما يكون فيها شيء إلا لله ، وفي سبيل الله .. يأمر الله المسلمين إذا خرجوا غزاة ، ألا يبدأوا بقتال أحد أو قتله حتى يتبينوا ؛ وأن يكتفوا بظاهر الإسلام في كلمة اللسان (إذ لا دليل هنا يناقض كلمة اللسان) .

« يا أيها الذين آمنوا إذا ضربتم في سبيل الله فتبينوا ؛ ولا تقولوا لمن ألقى اليكم السلام لست مؤمناً . تبتغون عرض الحياة الدنيا . فعند الله مغانم كثيرة . كذلك كنتم من قبل فمن الله عليكم . فتبينوا . إن الله كان بما تعملون خبيرا » . .

وقد وردت روايات كثيرة في سبب نزول الآية : خلاصتها أن سرية من سرايا المسلمين لقيت رجلاً معه غنم له . فقال السلام عليكم . يعني أنه مسلم . فأعتبر بعضهم أنها كلمة يقولها لينجو بها فقتله .

ومن ثم نزلت الآية ، تحرج على مثل هذا التصرف ؛ وتنفض عن قلوب المؤمنين كل شائبة من طمع في الغنيمة ؛ أو تسرع في الحكم .. وكلاهما يكرهه الاسلام .

إن عرض الحياة الدنيا لا يجوز أن يدخل للمسلمين في حساب ؛ إذا خرجوا يجاهدون في سبيل الله . إنه ليس الدافع إلى الجهاد ولا الباعث عليه .. وكذلك التسرع بإهدار دم قبل التبين . وقد يكون دم مسلم عزيز ، لا يجوز أن يراق .

والله سبحانه يذكر الذين آمنوا بجاهليتهم القريبة وما كان فيها من تسرع ورعونة ؛ وما كان فيها من طمع في الغنيمة .. ويمن عليهم أن طهر نفوسهم ورفع أهدافهم ، فلم يعودوا يغزون ابتغاء عرض الحياة الدنيا كما كانوا في جاهليتهم . ويمن عليهم أن شرع لهم حدوداً وجعل لهم نظاماً ؛ فلا تكون الهيجة الأولى هي الحكم الآخر . كما كانوا في جاهليتهم كذلك .. وقد يتضمن النص إشارة إلى أنهم هم كذلك كانوا يخفون إسلامهم — على قومهم — من الضعف والخوف،فلا يظهرونه إلا عند الأمن مع المسلمين ، وأن ذلك الرجل القتيل كان يخفي إسلامه على قومه ، فلما لقي المسلمين أظهر لهم إسلامه وأقرأهم سلام المسلمين :

« كذلك كنتم من قبل . فمن الله عليكم . فتبينوا . إن الله كان بما تعملون خبيرا » .

وهكذا يلمس المنهج القرآني القلوب لتحيا وتتحرج وتتذكر نعمة الله . . وعلى هذه الحساسية والتقوى ، يقيم الشرائع والأحكام ؛ بعد بيانها وإيضاحها .

وهكذا يتناول هذا الدرس تلك الجوانب من قواعد المعاملات الدولية بمثل هذا الوضوح، ومثل هذه النظافة . منذ أربعة عشر قرناً . .

« لَا يَسْتَوِي ٱلْقَاعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ - غَيْرُ أُولِي ٱلضَّرَرِ - وَٱلْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ. فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَاعِدِينَ دَرَجَةً. وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَى. وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَاهِدِينَ عَلَى ٱلْقَاعِدِينَ أَجْراً عَظِيماً (٩٥) دَرَجَاتٍ مِنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً » (٩٦) .

« إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ ٱلْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا : فِيمَ كُنْتُمْ ؟ قَالُوا : كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي ٱلْأَرْضِ ! قَالُوا : أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا ؟ ! فَأُولَـٰئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ، وَسَاءَتْ مَصِيراً (٩٧) إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَاءِ وَٱلْوِلْدَانِ ، لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً ، وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا (٩٨) فَأُولَـٰئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ . وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُوراً » (٩٩) .

« وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَاغَماً كَثِيراً وَسَعَةً ، وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ ، مُهَاجِراً إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ، ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ ، فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى ٱللَّهِ ، وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً » (١٠٠) .

« وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ

ٱلصَّلَاةِ ـ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا . إِنَّ ٱلْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُبِيناً (١٠١) وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ : فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ ، وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ ، فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ ، وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا ، فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ ، وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ . وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً . وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذًى مِنْ مَطَرٍ ، أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ ، وَخُذُوا حِذْرَكُمْ . إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً مُهِيناً (١٠٢) فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَاةَ فَاذْكُرُوا ٱللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً ، وَعَلَى جُنُوبِكُمْ . فَإِذَا ٱطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا ٱلصَّلَاةَ . إِنَّ ٱلصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَاباً مَوْقُوتاً » (١٠٣) .

« وَلَا تَهِنُوا فِي ٱبْتِغَاءِ ٱلْقَوْمِ . إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ، وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً » (١٠٤) .

هذا الدرس وثيق الصلة ، شديد اللحمة بالدرس السابق والدرس الذي قبله كذلك . فهو تكملة موضوعية لموضوع الدرسين السابقين . ولولا الرغبة في إقرار مبادىء المعاملات الدولية ـ كما يقررها الإسلام ـ لاعتبرناهما معاً مع هذا الدرس درساً واحداً متصلا . إنما هي حلقات في خط واحد .

إن موضوعه الأساسي هو الهجرة إلى دار الاسلام؛ والحث على انضمام المسلمين المتخلفين في

دار الكفر والحرب ، إلى الصف المسلم المجاهد في سبيل الله بالنفس والمال . وإطراح الراحة النسبية والمصلحة كذلك في البقاء بمكة ، إلى جوار الأهل والمال !

ولعل هذا هو المقصود بقوله تعالى في مطلع هذا الدرس : « لا يستوي القاعدون من المؤمنين — غير أولي الضرر — والمجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم . فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة — وكلا وعد الله الحسنى — وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيما .. » فما كان في المدينة قاعدون — إلا المنافقين المعوقين الذين تحدث عنهم بلهجة غير هذه اللهجة في الدرس الماضي !

وقد تلا هذه الفقرة فقرة أخرى فيها تحذير وتهديد لمن يظلون قاعدين هنالك في دار الكفر — هم قادرون على الهجرة منها بدينهم وعقيدتهم — حتى تتوفاهم الملائكة « ظالمي أنفسهم » .. « فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيرا » . .

ثم تلتها فقرة أخرى عن ضمان الله سبحانه لمن يهاجر في سبيله ، منذ اللحظة التي يخرج فيها من بيته ، قاصداً الهجرة الى الله خالصة . عالج فيها كل المخاوف التي تهجس في النفس البشرية وهي تقدم على هذه المخاطرة ، المحفوفة بالخطر ، الكثيرة التكاليف في الوقت ذاته ..

فالحديث مطرد عن الجهاد والهجرة إلى دار المجاهدين ، وأحكام التعامل بين المسلمين في دار الهجرة وبقية الطوائف خارج هذه الدار — بما في ذلك المسلمون الذين لم يهاجروا — والحديث موصول .

كذلك يلم هذا الدرس بكيفية الصلاة عند الخوف — في ميدان القتال أو في أثناء طريق الهجرة — وتدل هذه العناية بالصلاة في هذه الآونة الحرجة ، على طبيعة نظرة الاسلام الى الصلاة ـ كما أسلفنا ـ كما يجيء لإيجاد حالة تعبئة نفسية كاملة ؛ في مواجهة الخطر الحقيقي المحدق بالجماعة المسلمة ؛ من أعدائها الذين يتربصون بها لحظة غفلة أو غرة !

وينتهي الدرس بلمسة قوية عميقة التأثير ؛ في التشجيع على الجهاد في سبيل الله ؛ في وجه الآلام والمتاعب التي تصيب المجاهدين . وذلك في تصوير ناصع لحال المؤمنين المجاهدين ، وحال أعدائهم المحاربين ؛ على مفرق الطريق :

« ولا تهنوا في ابتغاء القوم .. إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون . وترجون من الله ما لا يرجون .. »

وبهذا التصوير يفترق طريقان ؛ ويبرز منهجان ؛ ويصغر كل ألم ، وتهون كل مشقة . ولا يبقى مجال للشعور بالضنى وبالكلال .. فالآخرون كذلك يألمون . ولكنهم يرجون من الله

مالا يرجون !

ويرسم هذا الدرس ـ بجملة الموضوعات التي يعالجها ، وبطرائق العلاج التي يسلكها ـ ما كان يعتمل في جسم الجماعة المسلمة ، وهي تواجه مشاق التكوين الواقعية ؛ ومشكلات التكوين العملية . وما كان يشتجر في النفوس من عوامل الضعف البشري ؛ ومن رواسب الماضي الجاهلي ، ومن طبيعة الفطرة البشرية وهي تواجه التكاليف بمشاقها وآلامها ؛ مع ما يصاحب هذه المشاق والآلام من أشواق ومن تطلع إلى الوفاء كذلك ؛ يستثيرها المنهج الحكيم ، ويستجيشها في الفطرة لتنهض بهذا الأمر العظيم .

ونرى ذلك كله مرتسما من خلال الوصف للواقع ؛ ومن خلال التشجيع والاستجاشة ؛ ومن خلال المعالجة للمخاوف الفطرية والآلام الواقعية ؛ ومن خلال التسليح في المعركة بالصلاة! وبالصلاة خاصة ـ إلى جانب التسلح بالعدة واليقظة ـ وبالثقة في ضمانة الله للمهاجرين ، وثوابه للمجاهدين ، وعونه للخارجين في سبيله ، وما أعده للكافرين من عذاب مهين .

ونرى طريقة المنهج القرآني الرباني في التعامل مع النفس البشرية في قوتها وضعفها ؛ وفي التعامل مع الجماعة الانسانيه في أثناء تكوينها وإنضاجها . ونرى شتى الخيوط التي يشدها منها في الوقت الواحد وفي الآية الواحدة .. ونرى ـ على الأخص كيف يملأ مشاعر الجماعة المسلمة بالتفوق على عدوها ، في الوقت الذي يملأ نفوسها بالحذر واليقظة والتهيؤ الدائم للخطر ، وفي الوقت الذي يدلها كذلك على مواطن الضعف فيها ، ومواضع التقصير ، ويحذرها إياها أشد التحذير .

إنه منهج عجيب في تكامله وفي تقابله مع النفس البشرية ؛ وفي عدد الأوتار التي يلمسها في اللمسة الواحدة ، وعدد الخيوط التي يشدها في هذه النفس ، فتصوت كلها وتستجيب !

لقد كان التفوق في منهج التربية ، والتفوق في التنظيم الاجتماعي الذي قام عليه ؛ هو الأمر البارز الظاهر فيما بين المجتمع المسلم وسائر المجتمعات حوله من فروق .. ولقد كان هذا التفوق البارز هو كذلك أوضح الأسباب ـ التي يراها البشر ـ لتمكن هذا المجتمع الناشيء الشاب ـ بكل ما كان في حياته من ملابسات ومن ضعف أحياناً وتقصير ـ من طي تلك المجتمعات الاخرى ، والغلبة عليها . لا غلبة معركة بالسلاح فحسب ؛ ولكن غلبة حضارة فتية على حضارات شاخت . غلبة منهج على مناهج ، ونموذج من الحياة على نماذج ؛ ومولد عصر جديد على مولد إنسان جديد ..

ونكتفي بهذا القدر حتى نواجه النصوص بالتفصيل :

***

« لا يستوي القاعدون من المؤمنين — غير أولى الضرر — والمجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم . فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة ، وكلا وعد الله الحسنى . وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيما . درجات منه ومغفرة ورحمة . وكان الله غفوراً رحيما » ..

إن هذا النص القرآني كان يواجه حالة خاصة في المجتمع المسلم وما حوله ؛ وكان يعالج حالة خاصة في هذا المجتمع من التراخي — من بعض عناصره — في النهوض بتكاليف الجهاد بالأموال والأنفس . سواء كان المقصود أولئك الذين تخلفوا عن الهجرة احتفاظاً بأموالهم ، إذ لم يكن المشركون يسمحون لمهاجر أن يحمل معه شيئاً من ماله ؛ أو توفيراً لعناء الهجرة وما فيها من مخاطر،إذ لم يكن المشركون يتركون المسلمين يهاجرون،وكثيراً ما كانوا يحبسونهم ويؤذونهم — أو يزيدون في إيذائهم بتعبير أدق — إذا عرفوا منهم نية الهجرة .. سواء كان المقصود هم أولئك الذين تخلفوا عن الهجرة — وهو ما نرجحه — أو كان المقصود بعض المسلمين في دار الإسلام ، الذين لم ينشطوا للجهاد بالأموال والأنفس — من غير المنافقين المبطئين الذين ورد ذكرهم في درس سابق — أو كان المقصود هؤلاء وهؤلاء ممن لم ينشطوا للجهاد بالأموال والأنفس في دار الحرب ودار الإسلام سواء .

إن هذا النص كان يواجه هذه الحالة الخاصة ؛ ولكن التعبير القرآني يقرر قاعدة عامة ؛ يطلقها من قيود الزمان ، وملابسات البيئة ؛ ويجعلها هي القاعدة التي ينظر الله بها إلى المؤمنين في كل زمان وفي كل مكان — قاعدة عدم الاستواء بين القاعدين من المؤمنين عن الجهاد بالأموال والأنفس — غير أولي الضرر الذين يقعدهم العجز عن الجهاد بالنفس ، أو يقعدهم الفقر والعجز عن الجهاد بالنفس والمال — عدم الاستواء بين هؤلاء القاعدين والآخرين الذين يجاهدون بأموالهم وأنفسهم .. قاعدةعامة على الاطلاق :

« لا يستوي القاعدون من المؤمنين — غير أولى الضرر — والمجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم » ..

ولا يتركها هكذا مبهمة، بل يوضحها ويقررها،ويبين طبيعة عدم الاستواء بين الفريقين:

« فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة » ..

وهذه الدرجة يمثلها رسول الله ﷺ في مقامهم في الجنة .

في الصحيحين عن أبي سعيد الخدري ، أن رسول الله ﷺ قال : « إن في الجنة مئة درجة أعدها الله للمجاهدين في سبيله . وما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض » . .

وقال الأعمش عن عمرو بن مرة ، عن أبي عبيدة ، عن عبدالله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ « من رمى بسهم فله أجره درجة » . . فقال رجل : يا رسول الله ، وما الدرجة ؟ فقال : « أما إنها ليست بعتبة أمك . ما بين الدرجتين مئة عام » .

وهذه المسافات التي يمثل بها رسول الله ﷺ نحسب أننا اليوم أقدر على تصورها ؛ بعد الذي عرفناه من بعض أبعاد الكون . حتى إن الضوء ليصل من نجم إلى كوكب في مئات السنين الضوئية ! وقد كان الذين يسمعون رسول الله ﷺ يصدقونه بما يقول . ولكنا — كما قلت — ربما كنا أقدر — فوق الإيمان — على تصور هذه الأبعاد بما عرفناه من بعض أبعاد الكون العجيب !

ثم يعود السياق بعد تقرير هذا الفارق في المستوى بين القاعدين من المؤمنين — غير أولي الضرر — والمجاهدين بأموالهم وأنفسهم، فيقرر أن الله وعد جميعهم الحسنى :

« وكلا وعد الله الحسنى » . .

فللإيمان وزنه وقيمته على كل حال؛ مع تفاضل أهله في الدرجات وفق تفاضلهم في النهوض بتكاليف الإيمان ؛ فيما يتعلق بالجهاد بالأموال والأنفس . . وهذا الاستدراك هو الذي نفهم منه أن هؤلاء القاعدين ليسوا هم المنافقين المبطئين . إنما هم طائفة أخرى صالحة في الصف المسلم ومخلصة ؛ ولكنها قصرت في هذا الجانب ؛ والقرآن يستحثها لتلافي التقصير ؛ والخير مرجو فيها ، والأمل قائم في أن تستجيب .

فإذا انتهى من هذا الاستدراك عاد لتقرير القاعدة الأولى ؛ مؤكداً لها ، متوسعاً في عرضها ؛ ممعناً في الترغيب فيما وراءها من أجر عظيم :

« وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيما . درجات منه ومغفرة ورحمة . وكان الله غفورا رحيما » .

وهذا التوكيد . . وهذه الوعود . . وهذا التمجيد للمجاهدين . . والتفضيل على القاعدين . . والتلويح بكل ما تهفو له نفس المؤمن من درجات الأجر العظيم . . ومن مغفرة الله ورحمته للذنوب والتقصير . .

هذا كله يشي بحقيقتين هامتين :

الحقيقة الأولى : هي أن هذه النصوص كانت تواجه حالات قائمة في الجماعة المسلمة كما أسلفنا وتعالجها . وهذا كفيل بأن يجعلنا أكثر إدراكاً لطبيعة النفس البشرية ، ولطبيعة الجماعات البشرية ، وأنها مهما بلغت في مجموعها من التفوق في الإيمان والتربية فهي دائماً في حاجة إلى علاج ما يطرأ عليها من الضعف والحرص والشح والتقصير في مواجهة التكاليف ، وبخاصة تكاليف الجهاد بالأموال والأنفس ، مع خلوص النفس لله ، وفي سبيل الله . وظهور هذه الخصائص البشرية — من الضعف والحرص والشح والتقصير — لا يدعو لليأس من النفس أو الجماعة ، ولا إلى نفض اليد منها ، وازدرائها ؛ طالما أن عناصر الإخلاص والجد والتعلق بالصف والرغبة في التعامل مع الله موفورة فيها .. ولكن ليس معنى هذا هو إقرار النفس أو الجماعة على ما بدا منها من الضعف والحرص والشح والتقصير ؛ والهتاف لها بالانبطاح في السفح ، باعتبار أن هذا كله جزء من « واقعها » ! بل لا بد لها من الهتاف لتنهض من السفح والحداء لتسير في المرتقى الصاعد ، إلى القمة السامقة . بكل ألوان الهتاف والحداء .. كما نرى هنا في المنهج الرباني الحكيم .

والحقيقة الثانية : هي قيمة الجهاد بالأموال والأنفس في ميزان الله واعتبارات هذا الدين. وأصالة هذا العنصر في طبيعة هذه العقيدة وهذا النظام . لما يعلمه الله — سبحانه — من طبيعة الطريق ؛ وطبيعة البشر ، وطبيعة المعسكرات المعادية للاسلام في كل حين .

إن « الجهاد » ليس ملابسة طارئة من ملابسات تلك الفترة . إنما هو ضرورة مصاحبة لركب هذه الدعوة ! وليست المسأله — كما توهم بعض المخلصين — أن الإسلام نشأ في عصر الإمبراطوريات ؛ فاندس في تصورات أهله — اقتباساً مما حولهم — أنه لا بد لهم من قوة قاهرة لحفظ التوازن !

هذه المقررات تشهد — على الأقل — بقلة ملابسة طبيعة الإسلام الأصيلة لنفوس هؤلاء القائلين بهذه التكهنات والظنون .

لو كان الجهاد ملابسة طارئة في حياة الأمة المسلمة ما استغرق كل هذه الفصول من صلب كتاب الله ؛ في مثل هذا الأسلوب ! ولما استغرق كذلك كل هذه الفصول من سنة رسول الله ﷺ وفي مثل هذا الأسلوب . .

لو كان الجهاد ملابسة طارئة ما قال رسول الله ﷺ تلك الكلمة الشاملة لكل مسلم إلى قيام الساعة : « من مات ولم يغز ولم يحدث نفسه بغزو مات على شعبة من النفاق »[1] .

---

(١) اخرجه صاحب مصابيح السنة في الصحاح .

ولئن كان ﷺ رد في حالات فردية بعض المجاهدين ، لظروف عائلية لهم خاصة ، كالذي جاء في الصحيح أن رجلاً قال للنبي ﷺ أجاهد . قال : « لك أبوان ؟ » قال : نعم . قال : « ففيهما جاهد » .. لئن كان ذلك فإنما هي حالة فردية لا تنقض القاعدة العامة ؛ وفرد واحد لا ينقص المجاهدين الكثيرين . ولعله ﷺ على عادته في معرفة كل ظروف جنوده فرداً فردا ، كان يعلم من حال هذا الرجل وأبويه ؛ ما جعله يوجهه هذا التوجيه . .

فلا يقولن أحد – بسبب ذلك – إنما كان الجهاد ملابسة طارئة بسبب ظروف . وقد تغيرت هذه الظروف !

وليس ذلك لأن الإسلام يجب أن يشهر سيفه ويمشي به في الطريق يقطع به الرؤوس ! ولكن لأن واقع حياة الناس وطبيعة طريق الدعوة تلزمه أن يمسك بهذا السيف ويأخذ حذره في كل حين !

إن الله – سبحانه – يعلم أن هذا أمر تكرهه الملوك ! ويعلم أن لابد لأصحاب السلطان أن يقاوموه . لأنه طريق غير طريقهم ، ومنهج غير منهجهم . ليس بالأمس فقط . ولكن اليوم وغداً . وفي كل أرض ، وفي كل جيل !

وإن الله – سبحانه – يعلم أن الشر متبجح ، ولا يمكن أن يكون منصفاً . ولا يمكن أن يدع الخير ينمو – مهما يسلك هذا الخير من طرق سلمية موادعة ! – فإن مجرد نمو الخير يحمل الخطورة على الشر . ومجرد وجود الحق يحمل الخطر على الباطل . ولا بد أن يجنح الشر إلى العدوان ، ولا بد أن يدافع الباطل عن نفسه بمحاولة قتل الحق وخنقه بالقوة !

هذه جبلة ! وليست ملابسة وقتية ..

هذه فطرة ! وليست حالة طارئة ..

ومن ثم لا بد من الجهاد .. لا بد منه في كل صورة . . ولا بد أن يبدأ في عالم الضمير . ثم يظهر فيشمل عالم الحقيقة والواقع والشهود . ولا بد من مواجهة الشر المسلح بالخير المسلح . ولا بد من لقاء الباطل المتترس بالعدد بالحق المتوشح بالعدة .. وإلا كان الأمر انتحاراً . أو كان هزلاً لا يليق بالمؤمنين !

ولا بد من بذل الأموال والأنفس . كما طلب الله من المؤمنين . وكما اشترى منهم أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة .. فأما أن يقدر لهم الغلب ؛ أو يقدر لهم الاستشهاد ؛ فذلك شأنه – سبحانه – وذلك قدره المصحوب بحكمته .. أما هم فلهم إحدى الحسنيين عند ربهم .. والناس كلهم يموتون عندما يجيء الأجل .. والشهداء وحدهم هم الذين يستشهدون ..

هناك نقط ارتكاز أصيلة في هذه العقيدة ، وفي منهجها الواقعي ، وفي خط سيرها المرسوم، وفي طبيعة هذا الخط وحتمياته الفطرية ، التي لا علاقة لها بتغير الظروف .

وهذه النقط لا يجوز أن تتميع في حس المؤمنين – تحت أي ظرف من الظروف . ومن هذه النقط .. الجهاد .. الذي يتحدث عنه الله سبحانه هذا الحديث .. الجهاد في سبيل الله وحده . وتحت رايته وحدها .. وهذا هو الجهاد الذي يسمى من يقتلون فيه « شهداء » ويتلقاهم الملأ الأعلى بالتكريم . .

***

بعد ذلك يتحدث عن فريق من القاعدين ؛ أولئك الذين يظلون قاعدين في دار الكفر لا يهاجرون ؛ تمسك بهم أموالهم ومصالحهم ، أو يمسك بهم ضعفهم عن مواجهة متاعب الهجرة وآلام الطريق – وهم قادرون لو أرادوا واعتزموا التضحية – أن يهاجروا .. حتى يجين أجلهم ؛ وتأتي الملائكة لتتوفاهم . يتحدث عنهم فيصورهم صورة زرية منكرة ؛ تستنهض كل قاعد منهم للفرار بدينه وعقيدته ، وبمصيره عند ربه ؛ من هذا الموقف الذي يرسمه لهم :

« إن الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم .. قالوا : فيم كنتم ؟ قالوا : كنا مستضعفين في الأرض . قالوا : ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها ؟ فأولئك مأواهم جهنم ، وساءت مصيراً . إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان ، لا يستطيعون حيلة ، ولا يهتدون سبيلًا . فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم ، وكان الله عفوا غفورا » . .

لقد كان هذا النص يواجه حالة واقعة في الجزيرة العربية – في مكة وغيرها – بعد هجرة رسول الله ﷺ وقيام الدولة المسلمة . فقد كان هناك مسلمون لم يهاجروا . حبستهم أموالهم ومصالحهم – حيث لم يكن المشركون يدعون مهاجراً يحمل معه شيئا من ماله – أو حبسهم إشفاقهم وخوفهم من مشاق الهجرة – حيث لم يكن المشركون يدعون مسلما يهاجر حتى يمنعوه ويرصدوا له في الطريق .. وجماعة حبسهم عجزهم الحقيقي ،من الشيوخ والنساء والولدان الذين لا يستطيعون حيلة للهرب ولا يجدون سبيلًا للهجرة . .

وقد اشتد أذى المشركين لهؤلاء الباقين من أفراد المسلمين ؛ بعد عجزهم عن إدراك الرسول ﷺ وصاحبه ، ومنعهما من الهجرة . وبعد قيام الدولة المسلمة . وبعد تعرض الدولة المسلمة لتجارة قريش في بدر ، وانتصار المسلمين ذلك الانتصار الحاسم . فأخذ المشركون يسومون هذه البقية المتخلفة ألوانا من العذاب والنكال ، ويفتنونهم عن دينهم في

غيظ شديد .

وقد فتن بعضهم عن دينهم فعـلاً ؛ واضطر بعضهم إلى إظهار الكفرتقية ، ومشاركة المشركين عبادتهم .. وكانت هذه التقية جائزة لهم يوم أن لم تكن لهم دولة يهاجرون اليهـا — متى استطاعوا — فأما بعد قيـام الدولة ، ووجود دار الإسلام،فإن الخضوع للفتنة ، أو الالتجاء للتقية ، وفي الوسع الهجرة والجهر بالإسلام ، والحيـاة في دار الاسلام .. أمر غير مقبول .

وهكذا نزلت هذه النصوص ؛ تسمي هؤلاء القـاعدين محافظة على أموالهم ومصالحهم ، أو إشفاقاً من مشاق الهجرة ومتـاعب الطريق .. حتى يحين أجلهم .. تسميهم : « ظالمي أنفسهم » .. بما أنهم حرموها الحياة في دار الاسلام ، تلك الحياة الرفيعة النظيفة الكريمة الحرة الطليقة . وألزموها الحياة في دار الكفر تلك الحياة الذليلة الخانسة الضعيفة المضطهدة . وتوعدهم « جهنم وساءت مصيرا » .. مما يدل على أنها تعني الذين فتنوا عن دينهم بالفعل هناك !

ولكن التعبير القرآني — على أسلوب القرآن — يعبر في صورة ، ويصور في مشهد حي نابض بالحركة والحوار :

« إن الذين توفاهم الملائكة .. ظالمي أنفسهم.. قالوا : فيم كنتم ؟ قالوا: كنا مستضعفين في الأرض ! قالوا : ألم تكن أرض الله واسعة ، فتهاجروا فيها ؟ ! » ..

إن القرآن يعالج نفوساً بشرية ؛ ويهدف إلى استجاشة عناصر الخير والمروءة والعزة فيها؛ وإلى مطاردة عوامل الضعف والشح والحرص والثقلة .. لذلك يرسم هذا المشهد .. إنه يصور حقيقة . ولكنه يستخدم هذه الحقيقة في موضعها أحسن استخدام ، في علاج النفس البشرية..

ومشهد الاحتضار بذاته مشهد ترتجف له النفس البشرية ، وتتحفز لتصور ما فيه . وإظهار الملائكة في المشهد يزيد النفس ارتجافاً وتحفزاً وحساسية .

وهم — القاعدون — ظالمو أنفسهم . وقد حضرت الملائكة لتتوفاهم وهذا حالهم . . ظالمي أنفسهم . وهذا وحده كفيل بتحريك النفس وارتجافها . إذ يكفي أن يتصـور المرء نفسه والملائكة تتوفاه وهو ظالم لنفسه ؛ وليس أمامه من فرصة أخرى لإنصاف نفسه ، فهذه هي اللحظة الأخيرة .

ولكن الملائكة لا يتوفونهم — ظالمي أنفسهم — في صمت.بل يقلبون ماضيهم، ويستنكرون أمرهم ! ويسألونهم : فيم أضاعوا أيامهم ولياليهم ؟ وماذا كان شغلهم وهمهم في الدنيا :

« قالوا : فيم كنتم ؟ » ..

فإن ما كانوا فيه ضياع في ضياع ؛ كأن لم يكن لهم شغل إلا هذا الضياع !

ويجيب هؤلاء المحتضرون ، في لحظة الاحتضار ، على هذ الاستنكار ، جواباً كله مذلة ، ويحسبونه معذرة على ما فيه من مذلة .

« قالوا : كنا مستضعفين في الأرض » ..

كنا مستضعفين . يستضعفنا الأقوياء . كنا أذلاء في الأرض لا نملك من أمرنا شيئاً .

وعلى كل ما في هذا الرد من مهانة تدعو إلى الزراية ؛ وتنفر كل نفس من أن يكون هذا موقفها في لحظة الاحتضار ، بعد أن يكون هذا موقفها طوال الحياة .. فإن الملائكة لا يتركون هؤلاء المستضعفين الظالمي أنفسهم . بل يجبهونهم بالحقيقة الواقعة؛ ويؤنبونهم على عدم المحاولة ، والفرصة قائمة :

« قالوا : ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها ؟ ! »

إنه لم يكن العجز الحقيقي هو الذي يحملهم - إذن - على قبول الذل والهوان والاستضعاف ، والفتنة عن الايمان .. إنما كان هناك شيء آخر .. حرصهم على أموالهم ومصالحهم وأنفسهم يمسكهم في دار الكفر ، وهناك دار الإسلام . ويمسكهم في الضيق وهناك أرض الله الواسعة . والهجرة إليها مستطاعة ؛ مع احتمال الآلام والتضحيات .

وهنا ينهي المشهد المؤثر ، بذكر النهاية المخيفة :

« فأولئك مأواهم جهنم ، وساءت مصيراً » ..

ثم يستثني من لا حيلة لهم في البقاء في دار الكفر ؛ والتعرض للفتنة في الدين ، والحرمان من الحياة في دار الإسلام من الشيوخ الضعاف ، والنساء والأطفال ؛ فيعلقهم بالرجاء في عفو الله ومغفرته ورحمته . بسبب عذرهم البين وعجزهم عن الفرار :

« إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان ، لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا . فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم ، وكان الله عفوا غفوراً » ..

ويمضي هذا الحكم إلى آخر الزمان ؛ متجاوزاً تلك الحالة الخاصة التي كان يواجهها النص في تاريخ معين ، وفي بيئة معينة . يمضي حكما عاماً ؛ يلحق كل مسلم تناله الفتنة في دينه في أية أرض ؛ وتمسكه أمواله ومصالحه ، أو قراباته وصداقاته ؛ أو إشفاقه من آلام الهجرة ومتاعبها . متى كان هناك — في الأرض في أي مكان — دار للاسلام ؛ يأمن فيها على دينه ، ويجهر فيها بعقيدته ، ويؤدي فيها عباداته ؛ ويحيا حياة إسلامية في ظل شريعة الله ، ويستمتع بهذا المستوى

الرفيع من الحياة ..

***

أما السياق القرآني فيمضي في معالجة النفوس البشرية ، التي تواجه مشاق الهجرة ومتاعبها ومخاوفها ؛ وتشفق من التعرض لها . وقد عالجها في الآيات السابقة بذلك المشهد المثير للاشمئزاز والخوف معاً . فهو يعالجها بعد ذلك ببث عوامل الطمأنينة — سواء وصل المهاجر إلى وجهته أو مات في طريقه — في حالة الهجرة في سبيل الله ؛ وبضمان الله للمهاجر منذ أن يخرج من بيته مهاجراً في سبيله . ووعده بالسعة والمتنفس في الأرض والمنطلق ، فلا تضيق به الشعاب والفجاج :

« ومن يهاجر — في سبيل الله — يجد في الأرض مراغماً كثيراً وسعة . ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله — ثم يدركه الموت — فقد وقع أجره على الله . وكان الله غفوراً رحيماً » ..

إن المنهج الرباني القرآني يعالج في هذه الآية مخاوف النفس المتنوعة ؛ وهي تواجه مخاطر الهجرة ؛ في مثل تلك الظروف التي كانت قائمة ؛ والتي قد تتكرر بذاتها او بما يشابهها من المخاوف في كل حين .

وهو يعالج هذه النفس في وضوح وفصاحة ؛ فلا يكتم عنها شيئاً من المخاوف ؛ ولا يداري عنها شيئاً من الأخطار — بما في ذلك خطر الموت — ولكنه يسكب فيها الطمأنينة بحقائق أخرى وبضمانة الله سبحانه وتعالى ..

فهو أولا يحدد الهجرة بأنها « في سبيل الله » .. وهذه هي الهجرة المعتبرة في الإسلام . فليست هجرة للثراء ، أو هجرة للنجاة من المتاعب ، أو هجرة للذائذ والشهوات ، أو هجرة لأي عرض من أعراض الحياة . ومن يهاجر هذه الهجرة — في سبيل الله — يجد في الأرض فسحة ومنطلقا فلا تضيق به الأرض ، ولا يعدم الحيلة والوسيلة . للنجاة وللرزق والحياة :

« ومن يهاجر في سبيل الله يجد في الأرض مراغما كثيراً وسعة » ..

وإنما هو ضعف النفس وحرصها وشحها ؛ يخيل اليها أن وسائل الحياة والرزق ، مرهونة بأرض ، ومقيدة بظروف ، ومرتبطة بملابسات لو فارقتها لم تجد للحياة سبيلا .

وهذا التصور الكاذب لحقيقة أسباب الرزق وأسباب الحياة والنجاة ؛ هو الذي يجعل النفوس تقبل الذل والضيم ، وتسكت على الفتنة في الدين ، ثم تتعرض لذلك المصير البائس ..

مصير الذين تتوفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم . والله يقرر الحقيقة الموعودة لمن يهاجر في سبيل الله .. إنه سيجد في أرض الله منطلقا وسيجد فيها سعة . وسيجد الله في كل مكان يذهب اليه ، يحييه ويرزقه وينجيه ..

ولكن الأجل قد يوافي في أثناء الرحلة والهجرة في سبيل الله .. والموت - كما تقدم في سياق السورة - لا علاقة له بالأسباب الظاهرة ؛ إنما هو حتم محتوم عندما يجين الأجل المرسوم وسواء أقام أم هاجر ، فإن الأجل لا يستقدم ولا يستأخر .

غير أن النفس البشرية لها تصوراتها ولها تأثراتها بالملابسات الظاهرة .. والمنهج يراعي هذا ويعالجه . فيعطي ضمانة الله بوقوع الاجر على الله منذ الخطوة الأولى . من البيت في الهجرة إلى الله ورسوله :

« ومن يخرج من بيته مهاجراً الى الله ورسوله - ثم يدركه الموت - فقد وقع أجره على الله » ..

أجره كله . أجر الهجرة والرحلة والوصول إلى دار الإسلام والحياة في دار الاسلام .. فماذا بعد ضمان الله من ضمان ؟

ومع ضمانة الأجر التلويح بالمغفرة للذنوب والرحمة في الحساب . وهـــذا فوق الصفقة الأولى .

« وكان الله غفورا رحيما » .

إنها صفقة رابحة دون شك . يقبض فيها المهاجر الثمن كله منذ الخطوة الأولى - خطوة الخروج من البيت مهاجراً إلى الله ورسوله - والموت هو الموت . في موعده الذي لا يتأخر . والذي لا علاقة له بهجرة أو إقامة . ولو أقام المهاجر ولم يخرج من بيته لجاءه الموت في موعده . ولخسر الصفقة الرابحة . فلا أجر ولا مغفرة ولا رحمة . بل هنالك الملائكة تتوفاه ظالمـــا لنفسه !

وشتان بين صفقة وصفقة ! وشتان بين مصير ومصير ! .

★ ★ ★

ويخلص لنا من هذه الآيات التي استعرضناها من هذا الدرس - إلى هذا الموضع - عـــدة اعتبارات ، نجملها قبل أن نعبر إلى بقية الدرس وبقية ما فيه من موضوعات .

يخلص لنا منها مدى كراهية الإسلام للقعود عن الجهاد في سبيل الله ؛ والقعود عن الانضمام

الصف المسلم المجاهد .. اللهم إلا من عذرهم الله من أولي الضرر ، ومن العاجزين عن الهجرة لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلاً ..

ويخلص لنا منها مدى عمق عنصر الجهاد وأصالته في العقيدة الإسلامية ، وفي النظام الإسلامي ، وفي المقتضيات الواقعية لهذا المنهج الرباني .. وقد عدته الشيعة ركنا من أركان الاسلام — ولهم من قوة النصوص ومن قوة الواقع ما يفسر اتجاههم هذا . لولا ما ورد في حديث : « بني الإسلام على خمس ... » ولكن قوة التكليف بالجهاد ؛ وأصالة هذا العنصر في خطر الحياة الإسلامية ، وبروز ضرورته في كل وقت وفي كل أرض — الضرورة التي تستند إلى مقتضيات فطرية لا ملابسات زمنية — كلها تؤيد هذا الشعور العميق بجدية هذا العنصر وأصالته .

ويخلص لنا كذلك أن النفس البشرية هي النفس البشرية ؛ وأنها قد تحجم أمام الصعاب ، أو تخاف أمام المخاطر ، وتكسل أمام العقبات ، في خير الأزمنة وخير المجتمعات . وأن منهج العلاج في هذه الحالة ، ليس هو اليأس من هذه النفوس . ولكن استجاشتها ، وتشجيعها ، وتحذيرها ، وطمأنتها في آن واحد . وفق هذا المنهج القرآني الرباني الحكيم .

وأخيراً يخلص لنا كيف كان هذا القرآن يواجه واقع الحياة ، ويقود المجتمع المسلم ، ويخوض المعركة — في كل ميادينها — وأول هذه الميادين هو ميدان النفس البشرية ؛ وطبائعها الفطرية ، ورواسبها كذلك من الجاهلية . وكيف ينبغي أن نقرأ القرآن ، ونتعامل معه ونحن نواجه واقع الحياة والنفس بالدعوة إلى الله .

★★★

بعد ذلك يستطرد إلى رخصة ، يبيحها الله للمهاجرين ، أو الضاربين في الأرض للجهاد أو للتجارة . في حالة خوفهم أن يأخذهم الذين كفروا أسارى . فيفتنوهم عن دينهم . وهي رخصة القصر من الصلاة — وهو غير القصر المرخص به للمسافر إطلاقا سواء خاف فتنة الذين كفروا أو لم يخف — فهذا قصر خاص .

« وإذا ضربتم في الأرض ، فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة — إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا — إن الكافرين كانوا لكم عدوا مبينا » ..

إن الضارب في الأرض في حاجة ماسة إلى الصلة الدائمة بربه ، تعينه على ما هو فيه ، وتكمل

عدته وسلاحه فيما هو مقدم عليه ، وما هو مرصود له في الطريق .. والصلاة أقرب الصلات إلى الله . وهي العدة التي يدعى المسلمون للاستعانة بها في الشدائد والملمات . فكلما كان هناك خوف أو مشقة قال لهم : « واستعينوا بالصبر والصلاة » ..

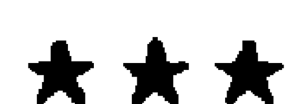
ومن ثم يجيء ذكرها هنا في إبانها المناسب ، وفي وقت الحاجة اليها والاضطرار . فما أحوج الخائف في الطريق إلى أن يطمئن قلبه بذكر الله . وما أحوج المهاجر من أرضه الى ان يلتجيء الى حمى الله .. غير ان الصلاة الكاملة ـ وما فيها من قيام وركوع وسجود ـ قد تعوق الضارب في الأرض عن الافلات من كمين قريب . أو قد تلفت اليه أنظار عدوه فيعرفوه . أو قد تمكن لهم منه وهو راكع أو ساجد فيأخذوه .. ومن ثم هذه الرخصة للضارب في الأرض أن يقصر من الصلاة عند مخافة الفتنة .

والمعنى الذي نختاره في القصر هنا هو المعنى الذي اختاره الإمام الجصاص[1] . وهو أنه ليس القصر في عدد الركعات بجعلها اثنتين في الصلاة الرباعية . فهذا مرخص به للمسافر إطلاقاً ، بلا تخصيص حالة الخوف من الفتنة . بل هذا هو المختار في الصلاة للمسافر ـ كفعل رسول الله ﷺ في كل سفر ـ بحيث لا يجوز إكمال الصلاة في السفر في أرجح الأقوال .

وإذن فهذه الرخصة الجديدة ـ في حالة خوف الفتنة ـ تعني معنى جديداً غير مجرد القصر المرخص به لكل مسافر . إنما هو قصر في صفة الصلاة ذاتها . كالقيام بلا حركة ولا ركوع ولا سجود ولا قعود للتشهد . حيث يصلي الضارب في الأرض قائماً وسائراً وراكباً ، ويومىء للركوع والسجود .

وكذلك لا يترك صلته بالله في حالة الخوف من الفتنة ، ولا يدع سلاحه الأول في المعركة ، ويأخذ حذره من عدوه :

« إن الكافرين كانوا لكم عدوا مبينا » .



وبمناسبة الحديث عن صلاة الضارب في الأرض ، الخائف من فتنة الذين كفروا ، يجيء حكم صلاة الخوف في أرض المعركة ؛ وتحتشد جنبات هذا الحكم الفقهي بلمسات نفسية وتربوية شتى :

---

(١) أحكام القرآن للجصاص . الجزء الثاني طبعة المطبعة البهية ص ٣٠٧ ، ٣٠٨ .

« وإذا كنت فيهم ، فأقمت لهم الصلاة ، فلتقم طائفة منهم معك ، وليأخذوا أسلحتهم ، فإذا سجدوا فليكونوا من ورائكم . ولتأت طائفة اخرى لم يصلوا فليصلوا معك، وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم . ود الذين كفروا لو تغفلون عن أسلحتكم وأمتعتكم ، فيميلون عليكم ميلة واحدة . ولا جناح عليكم - إن كان بكم أذى من مطر ، أو كنتم مرضى - أن تضعوا أسلحتكم . وخذوا حذركم ، إن الله أعد للكافرين عذابا مهينا . فإذا قضيتم الصلاة فاذكروا الله قياما وقعودا وعلى جنوبكم . فإذا أطمأننتم فأقيموا الصلاة ، إن الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا » ..

إن المتأمل في أسرار هذا القرآن ؛ وفي أسرار المنهج الرباني للتربية ، المتمثل فيه ، يطلع على عجب من اللفتات النفسية ، النافذة إلى أعماق الروح البشرية . ومنها هذه اللفتة في ساحة المعركة إلى الصلاة ..

إن السياق القرآني لا يجيء بهذا النص هنا لمجرد بيان الحكم « الفقهي » في صفة صلاة الخوف . ولكنه يحشد هذا النص في حملة التربية والتوجيه والتعليم والاعداد للصف المسلم وللجماعة المسلمة .

وأول ما يلفت النظر هو الحرص على الصلاة في ساحة المعركة ! ولكن هذا طبيعي بل بديهي في الاعتبار الإيماني . إن هذه الصلاة سلاح من أسلحة المعركة . بل إنها السلاح ! فلا بد من تنظيم استخدام هذا السلاح ، بما يتناسب مع طبيعة المعركة ، وجو المعركة !

ولقد كان أولئك الرجال - الذين تربوا بالقرآن وفق المنهج الرباني - يلقون عدوهم بهذا السلاح الذي يتفوقون فيه قبل أي سلاح . لقد كانوا متفوقين في إيمانهم بإله واحد يعرفونه حق المعرفة ويشعرون أنه معهم في المعركة متفوقين كذلك في إيمانهم بهدف يقاتلون من أجله ؛ ويشعرون أنه أرفع الأهداف جميعاً . متفوقين أيضاً في تصورهم للكون والحياة والغاية وجودهم الانساني ، تفوقهم في تنظيمهم الاجتماعي الناشىء من تفوق منهجهم الرباني .. وكانت الصلاة رمزاً لهذا كله ، وتذكيراً بهذا كله . ومن ثم كانت سلاحاً في المعركة . بل كانت هي السلاح !

والأمر الثاني الذي يلفت النظر في هذا النص هو هذه التعبئة الروحية الكاملة تجاه العدو . وهذا الحذر الذي يوصى للمؤمنون به تجاه عدوهم الذي يتربص بهم لحظة غفلة واحدة عن أسلحتهم وأمتعتهم ، ليميل عليهم ميلة واحدة ! ومع هذا التحذير والتخويف التطمين والتثبيت ؛ إذ يخبرهم أنهم إنما يواجهون قوما كتب الله عليهم الهوان : «إن الله أعد للكافرين عذاباً مهينا » .. وهذا التقابل بين التحذير والتطمين ؛ وهذا التوازن بين استثارة حاسة

الحذر وسكب فيض الثقة ؛ هو طابع هذا المنهج في تربية النفس المؤمنة والصف المسلم ، في مواجهة العدو الماكر العنيد اللئيم !

أما كيفية صلاة الخوف ؛ فتختلف فيها آراء الفقهاء ، أخــذاً من هذا النص ، ولكننا نكتفي بالصفة العامة ، دون دخول في تفصيل الكيفيات المتنوعة .

« وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة ، فلتقم طائفة منهم معك وليأخذوا أسلحتهم ، فاذا سجدوا فليكونوا من ورائكم . ولتأت طائفة أخرى لم يصلوا فليصلوا معك. وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم » ..

والمعنى : إذا كنت فيهم فأممتهم في الصلاة، فلتقم طائفة منهم تصلي معك الركعة الأولى. على حين تقف طائفة أخرى بأسلحتها من ورائكم لحمايتكم . فإذا أتمت الطائفة الأولى الركعة الأولى رجعت فأخذت مكان الحراسة ، وجاءت الطائفة التي كانت في الحراسة ولم تصــل ، فلتصل معك ركعة كذلك . (وهنا يسلم الإمام إذ يكون قد أتم صلاته ركعتين) .

عندئذ تجيء الطائفة الأولى فتقضي الركعة الثانية التي فاتتها مع الإمـام . وتسلم — بينما تحرسها الطائفة الثانية — ثم تجيء الثانية فتقضي الركعة الأولى التي فاتتها وتسلم — بينما تحرسها الطائفة الأولى ..

وبذلك تكون الطائفتان قد صلتا بإمامة الرسول ﷺ وكذلك مع خلفـائه وامرائه ، وأمراء المسلمين (منهم) في كل معركة .

« وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم . ود الذين كفروا لو تغفلون عن أسلحتكم وأمتعتكم ، فيميلون عليكم ميلة واحدة » . .

وهي رغبة في نفوس الكفار تجاه المؤمنين دائمة . والسنون تتوالى ، والقرون تمر ، فتؤكد هذه الحقيقة ، التي وضعها الله في قلوب المجموعة المؤمنة الأولى . وهو يضع لها الخطط العامة للمعركة . كما يضع لها الخطة الحركية أحياناً . على هذا النحو الذي رأينافي صلاة الخوف.

على أن هذا الحذر ، وهذه التعبئة النفسية ، وهذا الاستعداد بالسلاح المستمر ، ليس من شأنه أن يوقع المسلمين في المشقة . فهم يأخذون منه بقدر الطاقة :

« ولا جناح عليكم إن كان بكم أذى من مطر ، أو كنتم مرضى ، أن تضعوا أسلحتكم » فحمل السلاح في هذه الحالة يشق ، ولا يفيد ويكفي أخذ الحذر ؛ وتوقع عون الله ونصره:

« وخذوا حذركم . إن الله أعد للكافرين عذابا مهينا » ..

ولعل هذا الاحتياط ، وهذه اليقظة ، وهذا الحذر يكون أداة ووسيلة لتحقيق العذاب

المهين الذي أعده الله للكافرين . فيكون المؤمنون هم ستار قدرته ؛ وأداة مشيئته . . وهي الطمأنينة مع ذلك الحذر ؛ والثقة في النصر على قوم أعد الله لهم عذاباً مهينا . . .

« فإذا قضيتم الصلاة فاذكروا الله قياما وقعودا وعلى جنوبكم . فاذا اطمأنتم فأقيموا الصلاة . إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً » . .

وهكذا يوجههم إلى الاتصال بالله في كل حال ، وفي كل وضع ، إلى جانب الصلاة . . فهذه هي العدة الكبرى ، وهذا هو السلاح الذي لا يبلى . .

فأما حين الاطمئنان « فأقيموا الصلاة » . . أقيموها كاملة تامة بلا قصر — قصر الخوف الذي تحدثنا عنه — فهي فريضة ذات وقت محدد لأدائها . ومتى زالت أسباب الرخصة في صفة من صفاتها عادت إلى صفتها المفروضة الدائمة .

ومن قوله تعالى : « إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتا » . . يأخذ الظاهرية رأيهم في عدم قضاء الفائتة من الصلاة لأنها لا تجزى ولا تصح . لأن الصلاة لا تصح . إلا في ميقاتها المعين فمتى فات الميقات ، فلا سبيل لاقامة الصلاة . . والجمهور على صحة قضاء الفوائت . وعلى تحسين التبكير في الأداء ، والكراهية في التأخير . . ولا ندخل بعد هذا في تفصيلات الفروع . .

***

ويختم هذا الدرس بالتشجيع على المضي في الجهاد ؛ مع الألم والضنى والكلال . ويلمس القلوب المؤمنة لمسة عميقة موحية ، تمس أعماق هذه القلوب ، وتلقي الضوء القوي على المصائر والغايات والاتجاهات :

« ولا تهنوا في ابتغاء القوم . إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون . وترجون من الله ما لا يرجون . وكان الله عليما حكيما » . .

إنهن كلمات معدودات . يضعن الخطوط الحاسمة ، ويكشفن عن الشقة البعيدة ، بين جبهتي الصراع . .

إن المؤمنين يحتملون الألم والقرح في المعركة . . ولكنهم ليسوا وحدهم الذين يحتملونه : إن أعداءهم كذلك يتألمون وينالهم القرح واللأواء . . ولكن شتان بين هؤلاء وهؤلاء . . إن المؤمنين يتوجهون الى الله بجهادهم ، ويرتقبون عنده جزاءهم . . فأما الكفار فهم ضائعون مضيعون ، لا يتجهون لله ، ولا يرتقبون عنده شيئاً في الحياة ولا بعد الحياة . .

فإذا أصر الكفار على المعركة ، فما أجدر المؤمنين أن يكونوا هم أشد إصراراً ، وإذا احتمل الكفار آلامها ، فما أجدر المؤمنين بالصبر على ما ينالهم من آلام . وما أجدرهم كذلك أن لا يكفوا عن ابتغاء القوم ومتابعتهم بالقتال ، وتعقب آثارهم ، حتى لا تبقى لهم قوة ، وحتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله .

وإن هذا لموفضل العقيدة في الله في كل كفاح . فهناك اللحظات التي تعلو فيها المشقة على الطاقة ، ويربو الألم على الاحتمال . ويحتاج القلب البشري إلى مدد فائض وإلى زاد . هنالك يأتي المدد من هذا المعين ، ويأتي الزاد من ذلك الكنف الرحيم .

ولقد كان هذا التوجيه في معركة مكشوفة متكافئة . معركة يألم فيها المتقاتلون من الفريقين . لأن كلا الفريقين يحمل سلاحه ويقاتل .

ولربما أتت على العصبة المؤمنة فترة لا تكون فيها في معركة مكشوفة متكافئة .. ولكن القاعدة لا تتغير . فالباطل لا يكون بعافية أبداً ، حتى ولو كان غالباً ! إنه يلاقي الآلام من داخله . من تناقضه الداخلي ؛ ومن صراع بعضه مع بعض . ومن صراعه هو مع فطرة الأشياء وطبائع الأشياء .

وسبيل العصبة المؤمنة حينئذ أن تحتمل ولا تنهار . وأن تعلم أنها إن كانت تألم ، فإن عدوها كذلك يألم . والألم أنواع . والقرح ألوان .. « وترجون من الله ما لا يرجون » .. وهذا هو العزاء العميق . وهذا هو مفرق الطريق ..

« وكان الله عليما حكيما » ..

يعلم كيف تعتلج المشاعر في القلوب . ويصف للنفس ما يطب لها من الألم والقرح ..

« إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ ، لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ ، وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيماً (١٠٥) وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً (١٠٦) وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ ، إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّاناً أَثِيماً (١٠٧) يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ ، وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ ــ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا

يَعْمَلُونَ مُحِيطاً (١٠٨) هَا أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، فَمَنْ يُجَادِلُ اللهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ؟ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً ؟ (١٠٩) .

« وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءاً أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ، ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللهَ ، يَجِدِ اللهَ غَفُوراً رَحِيماً (١١٠) وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْماً فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ ، وَكَانَ اللهُ عَلِيماً حَكِيماً (١١١) وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْماً ، ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئاً ، فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَاناً وَإِثْماً مُبِيناً » (١١٢) .

« وَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ ، وَمَا يُضِلُّونَ ، إِلَّا أَنفُسَهُمْ ، وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ ، وَأَنزَلَ اللهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ، وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ ، وَكَانَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ عَظِيماً » (١١٣) .

هذه الآية تحكي قصة لا تعرف لها الارض نظيراً ، ولا تعرف لها البشرية شبيهاً .. وتشهد ـ وحدها ـ بأن هذا القرآن وهذا الدين لا بد أن يكون من عند الله ؛ لأن البشر ـ مهما ارتفع تصورهم ، ومهما صفت أرواحهم ، ومهما استقامت طبائعهم ـ لا يمكن أن يرتفعوا ـ بأنفسهم ـ إلى هذا المستوى الذي تشير اليه هذه الآيات ؛ إلا بوحي من الله .. هذا المستوى الذي يرسم خطاً على الأفق لم تصعد إليه البشرية ـ إلا في ظل هذا المنهج ـ ولا تملك الصعود اليه أبداً إلا في ظل هذا المنهج كذلك !

إنه في الوقت الذي كان اليهود في المدينة يطلقون كل سهامهم المسمومة ، التي تحويها جعبتهم اللئيمة ، على الإسلام والمسلمين ؛ والتي حكت هذه السورة وسورة البقرة وسورة آل عمران جانباً منها ومن فعلها في الصف المسلم ..

في الوقت الذي كانوا فيه ينشرون الأكاذيب ؛ ويؤلبون المشركين ؛ ويشجعون المنافقين ، ويرسمون لهم الطريق ؛ ويطلقون الإشاعات ؛ ويضللون العقول ؛ ويطعنون في القيادة

النبوية ، ويشككون في الوحي والرسالة ؛ ويحاولون تفسيخ المجتمع المسلم من الداخل ، في الوقت الذي يؤلبون عليه خصومه ليهاجموه من الخارج.. والإسلام ناشيء في المدينة ، ورواسب الجاهلية ما تزال لها آثارها في النفوس ؛ ووشائج القربى والمصلحة بين بعض المسلمين وبعض المشركين والمنافقين واليهود أنفسهم ، تمثل خطراً حقيقياً على تماسك الصف المسلم وتناسقه..

في هذا الوقت الحرج ، الخطر ، الشديد الخطورة .. كانت هذه الآيات كلها تتنزل ، على رسول الله ﷺ وعلى الجماعة المسلمة ، لتنصف رجلاً يهودياً ، اتهم ظلماً بسرقة ؛ ولتدين الذين تآمروا على اتهامه ، وهم بيت من الأنصار في المدينة . والأنصار يومئذ هم عدة الرسول ﷺ وجنده ، في مقاومة هـــذا الكيد الناصب من حوله ، ومن حول الرسالة والدين والعقيدة الجديدة . . !

أي مستوى هذا من النظافة والعدالة والتسامي ! ثم أي كلام يمكن أن يرتفع ليصف هذا المستوى ؟ وكل كلام، وكل تعليق،وكل تعقيب يتهاوى دون هذه القمة السامقة،التي لا يبلغها البشر وحدهم . بل لا يعرفها البشر وحدهم . إلا أن يقادوا بمنهج الله ، إلى هذا الأفق العلوي الكريم الوضيء ؟ !

والقصة التي رويت من عدة مصادر في سبب نزول هــذه الآيات أن نفراً من الأنصـار — قتادة بن النعمان وعمه رفاعة — غزوا مع رسول الله — ﷺ في بعض غزواته . فسرقت درع لأحدهم (رفاعة) . فحامت الشبهة حول رجل من الأنصار من أهل بيت يقـــال لهم : بنو أبيرق . فأتى صاحب الدرع رسول الله ﷺ فقـــال : إن طعمة بن أبيرق سرق درعي . (وفي رواية : إنه بشير بن أبيرق .. وفي هــذه الرواية : أن بشيرا هذا كان منافقـــاً يقول الشعر في ذم الصحابة وينسبه لبعض العرب !) فلما رأى السارق ذلك عمد الى الدرع فألقاها في بيت رجل يهودي (اسمه زيد بن السمين) . وقال لنفر من عشيرته : إني غيبت الدرع ، وألقيتها في بيت فلان . وستوجد عنده . فانطلقوا الى رسول الله ﷺ فقـالوا : يا نبي الله : إن صاحبنا بريء ، وإن الذي سرق الدرع فلان . وقد أحطنا بذلك علماً . فاعذر صاحبنا على رؤوس الناس ، وجادل عنه ، فإنه إن لم يعصمه الله بك يهلك .. ولما عرف رسول الله ﷺ أن الدرع وجدت في بيت اليهودي ، قام فبرأ ابن أبيرق وعذره على رؤوس الناس . وكان أهله قد قالوا للنبي ﷺ قبل ظهور الدرع في بيت اليهودي — إن قتادة بن النعمان وعمه عمدا إلى أهل بيت منا أهل إسلام وصلاح يرمونهم بالسرقة من غير بينة ولا ثبت ! قال قتـــادة : فأتيت رسول الله ﷺ فكلمته . فقال : « عمدت إلى أهل بيت يذكر منهم إسلام وصـــلاح

وترميهم بالسرقة على غير ثبت ولا بينة ؟ » قال : فرجعت ، ولوددت أني خرجت من بعض مالي ولم أكلم رسول الله ﷺ في ذلك. فأتاني عمي رفاعة فقال : يا ابن أخي ما صنعت ؟ فأخبرته بما قال لي رسول الله ﷺ فقال : الله المستعان .. فلم نلبث أن نزلت : « إنا أنزلنا اليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ، ولا تكن للخائنين خصيما » — أي بني أبيرق — وخصيما : أي محاميا ومدافعاً ومجادلا عنهم — « واستغفر الله » — أي مما قلت لقتادة — « إن الله كان غفوراً رحيما » .. « ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم» — إلى قوله تعالى : « رحيما » — أي لو استغفروا الله لغفر لهم — « ومن يكسب إثما فإنما يكسبه على نفسه » — إلى قوله : « إثما مبينا » . . « ولولا فضل الله عليك ورحمته » . إلى قوله : « فسوف نؤتيه أجرا عظيما » .. فلما نزل القرآن أتى رسول الله ﷺ بالسلاح فرده إلى رفاعة .. قال قتادة : لما أتيت عمي بالسلاح — وكان شيخاً قد عمى — أو عشى — في الجاهلية ، وكنت أرى إسلامه مدخولا ، فلما أتيته بالسلاح قال: يا ابن أخي هي في سبيل الله. فعرفت أن إسلامه كان صحيحاً ! فلما نزل القرآن لحق بشير بالمشركين ، فأنزل الله تعالى : « ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ، ويتبع غير سبيل المؤمنين ، نوله ما تولى ، ونصله جهنم وساءت مصيراً. إن الله لا يغفر أن يشرك به ، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء . ومن يشرك بالله فقد ضل ضلالا بعيدا » .

إن المسألة لم تكن مجرد تبرئة بريء ، تآمرت عليه عصبة لتوقعه في الاتهام — وإن كانت تبرئة بريء أمراً هائلا ثقيل الوزن في ميزان الله — إنما كانت أكبر من ذلك . كانت هي إقامة الميزان الذي لا يميل مع الهوى ، ولا مع العصبية ، ولا يتأرجح مع المودة والشنآن أيا كانت الملابسات والأحوال .

وكانت المسألة هي تطهير هذا المجتمع الجديد ، وعلاج عناصر الضعف البشري فيه مع علاج رواسب الجاهلية والعصبية — في كل صورها حتى في صورة العقيدة ، إذا تعلق الأمر بإقامة العدل بين الناس — وإقامة هذا المجتمع الجديد ، الفريد في تاريخ البشرية ، على القاعدة الطيبة النظيفة الصلبة المتينة التي لا تدنسها شوائب الهوى والمصلحة والعصبية ، والتي لا تترجرج مع الأهواء والميول والشهوات !

ولقد كان هناك أكثر من سبب للأغضاء عن الحادث ، أو عدم التشديد فيه والتنديد به وكشفه هكذا لجميع الأبصار . بل فضحه بين الناس — على هذا النحو العنيف المكشوف . .

كان هناك أكثر من سبب ، لو كانت الاعتبارات الأرضية هي التي تتحكم وتحكم . ولو كانت موازين البشر ومقاييسهم هي التي يرجع اليها هذا المنهج !

كان هناك سبب واضح عريض .. أن هذا المتهم « يهودي » .. من « يهود » .. يهود التي لا تدع سهما مسموما تملكه إلا أطلقته في حرب الإسلام وأهله . يهود التي يذوق منها المسلمون الأمرين في هذه الحقبة (ويشاء الله أن يكون ذلك في كل حقبة !) يهود التي لا تعرف حقا ولا عدلا ولا نصفة ، ولا تقيم اعتباراً لقيمة واحدة من قيم الاخلاق في التعامل مع المسلمين على الإطلاق !

وكان هنالك سبب آخر ؛ وهو أن الأمر في الأنصار . الانصار الذين آووا ونصروا . والذين قد يوجد هذا الحادث بين بعض بيوتهم ما يوجد من الضغائن . بينما أن اتجاه الاتهام إلى يهودي ، يبعد شبح الشقاق !

وكان هنالك سبب ثالث . هو عدم إعطاء اليهود سهما جديدا يوجهونه إلى الأنصار . وهو أن بعضهم يسرق بعضاً ، ثم يتهمون اليهود ! وهم لا يدعون هذه الفرصة تفلت للتشهير بها والتغرير !

ولكن الأمر كان أكبر من هذا كله . كان أكبر من كل هذه الاعتبارات الصغيرة . الصغيرة في حساب الإسلام . كان أمر تربية هذه الجماعة الجديدة لتنهض بتكاليفها في خلافة الأرض وفي قيادة البشرية . وهي لا تقوم بالخلافة في الأرض ولا تنهض بقيادة البشرية حتى يتضح لها منهج فريد متفوق على كل ما تعرف البشرية ؛ وحتى يثبت هذا المنهج في حياتها الواقعية . وحتى يمحص كيانها تمحيصا شديداً ؛ وتنفض عنه كل خبيئة من ضعف البشر ومن رواسب الجاهلية . وحتى يقام فيها ميزان العدل — لتحكم به بين الناس — مجرداً من جميع الاعتبارات الأرضية ، والمصالح القريبة الظاهرة ، والملابسات التي يراها الناس شيئاً كبيراً لا يقدرون على تجاهله !

واختار الله — سبحانه — هذا الحادث بذاته ، في ميقاته . . مع يهودي . . من يهود التي يذوق منها المسلمون الأمرين إذ ذاك في المدينة ؛ والتي تؤلب عليهم المشركين ، وتؤيد بينهم المنافقين ، وترصد كل ما في جعبتها من مكر وتجربة وعلم لهذا الدين ! وفي فترة حرجة من حياة المسلمين في المدينة ؛ والعداوات تحيط بهم من كل جانب.ووراء كل هذه العداوات يهود !

اختار الله هذا الحادث في هذا الظرف ، ليقول فيه — سبحانه — للجماعة المسلمة ما أراد

أن يقول، وليعلمها به ما يريد لها أن تتعلم !

ومن ثم لم يكن هناك مجال للباقة ! ولا للكياسة ! ولا للسياسة ! ولا للمهارة في إخفاء ما يحرج ، وتغطية ما يسوء !

ولم يكن هناك مجال لمصلحة الجماعة المسلمة الظاهرية ! ومراعاة الظروف الوقتية المحيطة بها !

هنا كان الأمر جداً خالصاً ، لا يحتمل الدهان ولا التمويه ! وكان هذا الجد هو أمر هذا المنهج الرباني وأصوله . وأمر هذه الأمة التي تعدلتنهض بهذا المنهج وتنشره . وأمر العدل بين الناس. العدل في هذا المستوى الذي لا يرتفع إليه الناس ـ بل لا يعرفه الناس ـ إلا بوحي من الله ، وعون من الله .

وينظر الإنسان من هذه القمة السامقة على السفوح الهابطة ـ في جميع الأمم على مـــدار الزمان ـ فيراها هنالك .. هنالك في السفوح .. ويرى بين تلك القمة السامقة والسفوح الهابطة صخوراً متردية ، هنا وهناك ، من الدهاء ، والمراء . والسياسة ، والكياسة ، والبراعـــة ، والمهارة ، ومصلحة الدولة ، ومصلحة الوطن ، ومصلحة الجمـــاعة . . . إلى آخر الأسماء والعنوانات .. فإذا دقق الإنسان فيها النظر رأى من تحتها .. الدود .. !!!

وينظر الانسان مرة أخرى فيرى نماذج الأمة المسلمة ــ وحدها ــ صاعدة من السفح إلى القمة . تتناثر على مدار التاريخ ، وهي تتطلع إلى القمة ، التي وجهها إليها المنهج الفريد .

. . أما العفن الذي يسمونه « العدالة » في أمم الجاهلية الغابرة والحاضرة ، فلا يستحق أن نرفع عنه الغطاء ، في مثل هذا الجو النظيف الكريم ..

***

والآن نواجه نصوص الدرس بالتفصيل ..

« إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق ، لتحكم بين الناس بمـــا أراك الله ، ولا تكن للخائنين خصيما . واستغفر الله إن الله كان غفورا رحيما . ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم، إن الله لا يحب من كان خوانا أثيما . يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله.وهو معهم إذ يبيتون مالا يرضى من القول ـ وكان الله بما يعملون محيطاً . ها أنتم هؤلاء جادلتم عنهم في الحيـــاة الدنيا ، فمن يجادل الله عنهم يوم القيامة ؟ أم من يكون عليهم وكيلًا ؟ » .

إننا نحس في التعبير صرامة ، يفوح منها الغضب للحق ، والغيرة على العدل ؛ وتشيع في جو الآيات وتفيض منها :

وأول ما يبدو هذا في تذكير رسول الله ﷺ بتنزيل الكتاب إليه بالحق ليحكم بين الناس بما أراه الله. وإتباع هذا التذكير بالنهي عن أن يكون خصيما للخائنين، يدافع عنهم ويجادل. وتوجيهه لاستغفار الله ـ سبحانه ـ عن هذه المجادلة.

« إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله. ولا تكن للخائنين خصيما. واستغفر الله إن الله كان غفوراً رحيما » ..

ثم تكرار هذا النهي؛ ووصف هؤلاء الخائنين، الذين جادل عنهم ﷺ بأنهم يختانون أنفسهم. وتعليل ذلك بأن الله لا يحب من كان خوانا أثيما :

« ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم . إن الله لا يحب من كان خوانا أثيما » .

وهم خانوا غيرهم في الظاهر . ولكنهم في الحقيقة خانوا أنفسهم . فقد خانوا الجماعة ومنهجها، ومبادئها التي تميزها وتفردها . وخانوا الامانة الملقاة على الجماعة كلها، وهم منها . . ثم هم يختانون أنفسهم في صورة أخرى . صورة تعريض أنفسهم للاثم الذي يجازون عليه شر الجزاء . حيث يكرههم الله، ويعاقبهم بما أثموا . وهي خيانة للنفس من غير شك . . وصورة ثالثة لخيانتهم لأنفسهم،هي تلويث هذه الأنفس وتدنيسها بالمؤامرة والكذب والخيانة.

« إن الله لا يحب من كان خوانا أثيما » . . .

وهذه عقوبة أكبر من كل عقوبة . . وهي تلقي إلى جانبها إيحاء آخر . فالذين لا يحبهم الله لا يجوز أن يجادل عنهم أحد، ولا أن يحامي عنهم أحد . وقد كرههم الله للاثم والخيانة !

ويعقب الوصف بالإثم والخيانة تصوير منفر لسلوك هؤلاء الخونة الآثمين :

« يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله ـ وهو معهم إذ يبيتون مالا يرضى من القول » . . .

وهي صورة زرية داعية إلى الاحتقار والسخرية . زرية بما فيها من ضعف والتواء، هم يبيتون ما يبيتون من الكيد والمؤامرة والخيانـــة؛ ويستخفون بها عن الناس . والناس لا يملكون لهم نفعاً ولا ضرا. بينما الذي يملك النفع والضر معهم وهم يبيتون ما يبيتون؛ مطلع عليهم وهم يخفون نياتهم ويستخفون . وهم يزورون من القول ما لا يرضاه ! فأي موقف يدعو إلى الزراية والاستهزاء أكثر من هذا الموقف ؟

« وكان الله بكل شيء محيطا » . .

إجمالا واطلاقا . . فأين يذهبون بما يبيتون . والله معهم إذ يبيتون . والله بكل شيء محيط

وهم تحت عينه وفي قبضته ؟

وتستمر الحملة التي يفوح منها الغضب ؛ على كل من جادل عن الخائنين :

« ها أنتم هؤلاء جادلتم عنهم في الحياة الدنيا . فمن يجادل الله عنهم يوم القيامة ؟ أم من يكون عليهم وكيلا ؟ » . .

واللهم لا مجادل عنهم يوم القيامة ولا وكيل . فما جدوى الجدال عنهم في الدنيا وهي لا تدفع عنهم ذلك اليوم الثقيل ؟

***

وبعد هذه الحملة الغاضبة على الخونة الأثمة ، والعتاب الشديد للمنافحين عنهم والمجادلين . يجيء تقرير القواعد العامة لهذه العلة وآثارها . وللحساب عليها والجزاء . ولقاعدة الجزاء عامة. القاعدة العادلة التي يعامل بها الله العباد. ويطلب اليهم أن يحاولوا محاكاتها في تعاملهم فيما بينهم، وأن يتخلقوا بخلق الله — خلق العدل — فيها :

« ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ، ثم يستغفر الله يجد الله غفورا رحيما .. ومن يكسب إثما فإنما يكسبه على نفسه . وكان الله عليما حكيما .. ومن يكسب خطيئة أو إثما ، ثم يرم به بريئا فقد احتمل بهتانا وإثما مبينا » . .

إنها آيات ثلاث تقرر المبادىء الكلية التي يعامل بها الله عباده ؛ والتي يملك العباد أن يعاملوا بعضهم بعضاً بها ويعاملوا الله على أساسها فلا يصيبهم السوء .

الآية الأولى تفتح باب التوبة على مصراعيه ، وباب المغفرة على سعته ؛ وتطمع كل مذنب تائب في العفو والقبول :

« ومن يعمل سوءا أو يظلم نفسه ، ثم يستغفر الله يجد الله غفورا رحيما » .. إنه — سبحانه — موجود للمغفرة والرحمة حيثما قصده مستغفر منيب .. والذي يعمل السوء يظلم غيره . ويظلم نفسه . وقد يظلم نفسه وحدها إذا عمل السيئة التي لا تتعدى شخصه .. وعلى أية حال فالغفور الرحيم يستقبل المستغفرين في كل حين ؛ ويغفر لهم ويرحمهم متى جاءوه تائبين . هكذا بلا قيد ولا شرط ولا حجاب ولا بواب ! حيثما جاءوا تائبين مستغفرين وجدوا الله غفورا رحيما . .

والآية الثانية تقرر فردية التبعة . وهي القاعدة التي يقوم عليها التصور الاسلامي في

الجزاء ، والتي تثير في كل قلب شعور الخوف وشعور الطمأنينة . الخوف من عمله وكسبه . والطمأنينة من أن لا يحمل تبعة غيره .

« ومن يكسب إثما فإنما يكسبه على نفسه . وكان الله عليما حكيما » ..

ليست هناك خطيئة موروثة في الإسلام ، كالتي تتحدث عنها تصورات الكنيسة . كما أنه ليست هناك كفارة غير الكفارة التي تؤديها النفس عن نفسها .. وعندئذ تنطلق كل نفس حذرة مما تكسب . مطمئنة إلى أنها لا تحاسب إلا على ما تكسب .. توازن عجيب ، في هذا التصور الفريد . هو إحدى خصائص التصور الإسلامي وأحد مقوماته [1] ، التي تطمئن الفطرة ، وتحقق العدل الإلهي المطلق ؛ المطلوب أن يحاكيه بنو الإنسان .

والآية الثالثة تقرر تبعة من يكسب الخطيئة ثم يرمي بها البريء .. وهي الحالة المنطبقة على حالة العصابة التي يدور عليها الكلام :

« ومن يكسب خطيئة أو إثما ، ثم يرم به بريئا ، فقد احتمل بهتانا وإثما مبينا » ..

البهتان في رميه البريء . والإثم في ارتكابه الذنب الذي رمى به البريء .. وقد احتملها معه . وكأنما هما حمل يحمل . على طريقة التجسيم التي تبرز المعنى وتؤكده في التعبير القرآني المصور [2] .

وبهذه القواعد الثلاثة يرسم القرآن ميزان العدالة الذي يحاسب كل فرد على ما اجترح . ولا يدع المجرم يمضي ناجياً إذا ألقى جرمه على سواه .. وفي الوقت ذاته يفتح باب التوبة والمغفرة على مصراعيه ؛ ويضرب موعداً مع الله – سبحانه – في كل لحظة للتائبين المستغفرين ، الذين يطرقون الأبواب في كل حين . بل يلجونها بلا استئذان فيجدون الرحمة والغفران !

* * *

وأخيراً يمن الله على رسوله ﷺ أن عصمه من الانسياق وراء المتآمرين المبيتين ؛ فأطلعه على مؤامراتهم التي يستخفون بها من الناس ولا يستخفون بها من الله – وهو معهم إذ يبيتون مالا يرضى من القول – ثم يمن عليه المنة الكبرى في إنزال الكتاب والحكمة وتعليمه ما لم يكن يعلم .. وهي المنة على البشرية كلها ، ممثلة ابتداء في شخص أكرمها على الله

(1) يراجع كتاب : « خصائص التصور الاسلامي ومقوماته » .
(2) يراجع كتاب : « التصوير الفني في القرآن » .

وأقربها لله :

« ولولا فضل الله عليك ورحمته لهمت طائفة منهم أن يضلوك . وما يضلون إلا أنفسهم . وما يضرونك من شيء . وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة . وعلمك ما لم تكن تعلم . وكان فضل الله عليك عظيما » .

إن هذه المحاولة ليست إلا واحدة من محاولات كثيرة ، شتى الألوان والأنواع ؛ مما بذله أعداء هذا الرسول الكريم ليضلوه عن الحق والعدل والصواب . ولكن الله - سبحانه - كان يتولاه بفضله ورحمته في كل مرة . وكان الكائدون المتآمرون هم الذين يضلون ويقعون في الضلالة .. وسيرة رسول الله ﷺ حافلة بتلك المحاولات ؛ ونجاته وهدايته ؛ وضلال المتآمرين وخيبتهم .

والله — سبحانه — يمتن عليه بفضله ورحمته هذه ؛ ويطمئنه في الوقت ذاته أنهم لا يضرونه شيئاً . بفضل من الله ورحمة .

وبمناسبة المنة في حفظه من هذه المؤامرة الأخيرة ؛ وصيانة أحكامه من أن تتعرض لظلم بريء وتبرئة جارم ، وكشف الحقيقة له وتعريفه بالمؤامرة .. تجيء المنة الكبرى .. منة الرسالة :

« وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم . وكان فضل الله عليك عظيما » .

وهي منة الله على « الإنسان » في هذه الأرض . المنة التي ولد الإنسان معها ميلاداً جديداً . ونشأ بها « الإنسان » كما نشأ أول مرة بنفخة الروح الأولى ..

المنة التي التقطت البشرية من سفح الجاهلية ، لترقى بها في الطريق الصاعد ، إلى القمة السامقة . عن طريق المنهج الرباني الفريد العجيب ..

المنة التي لا يعرف قدرها إلا الذي عرف الاسلام وعرف الجاهلية — جاهلية الغابر والحاضر — وذاق الإسلام وذاق الجاهلية ..

وإذا كانت منة يذكر الله بها رسوله ﷺ فلأنه هو أول من عرفها وذاقها . وأكبر من عرفها وذاقها . وأعرف من عرفها وذاقها ..

« وعلمك ما لم تكن تعلم . وكان فضل الله عليك عظيماً » .

« لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ ، إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ ، أَوْ

مَعْرُوفٍ ، أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ ٱلنَّاسِ . وَمَنْ يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَاءَ مَرْضَاةِ ٱللَّهِ ، فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً (١١٤) وَمَنْ يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ ، وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ ، وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ ، وَسَاءَتْ مَصِيراً (١١٥) إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ ، وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ، وَمَنْ يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالاً بَعِيداً (١١٦) إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَاثاً ، وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَاناً مَرِيداً (١١٧) لَعَنَهُ ٱللَّهُ ، وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيباً مَفْرُوضاً (١١٨) وَلَأُضِلَّنَّهُمْ ، وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ ، وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ ٱلْأَنْعَامِ ، وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ . وَمَنْ يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَانَ وَلِيّاً مِنْ دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَاناً مُبِيناً (١١٩) يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ، وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُوراً (١٢٠) أُولَـٰئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ، وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصاً (١٢١) وَٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً ، وَعْدَ ٱللَّهِ حَقّاً ، وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلاً ؟ » (١٢٢).

« لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَابِ . مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ ، وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّاً وَلَا نَصِيراً (١٢٣) وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّالِحَاتِ ، مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَـٰئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ ، وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيراً » (١٢٤).

« وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ ، وَهُوَ مُحْسِنٌ ، وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً ، وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً (١٢٥) وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ، وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطاً » . (١٢٦)

يتصل هذا الدرس بالدرس السابق ، بأكثر من صلة . فهو أولا نزلت بعض آياته تعليقاً وتعقيباً على الأحداث التي تلت حادثة اليهودي . من ارتداد « بشير بن أبيرق » ومشاقته للرسول ﷺ وعودته إلى الجاهلية ؛ التي تحدث هذا الدرس عنها ، وعن تصوراتها وحماقاتها وعلاقاتها بالشيطان، ودور الشيطان فيها ! ويقرر أن الله لا يغفر أن يشرك به،ويغفر ما دون ذلك — لمن يشاء . وهو ثانياً يتحدث عن النجوى والتآمر ؛ وأنه لا خير في كثير مما يتناجون به ، من أمثال ما بيتوا في ذلك الحادث وتناجوا. ويحدد أنواع النجوى التي يحبها الله ؛ وهي التناجي في فعل الخير والمعروف والإصلاح بين الناس . ويقرر جزاء هذه النجوى وتلك عند الله .. وأخيراً يقرر القواعد العادلة التي يجازي بها الله على الأعمال ؛ وانها ليست تابعة لرغبات أحد من الناس وتمنياتهم . لا أماني المسلمين ولا أماني أهل الكتاب . إنما هي ترجع إلى عدل الله المطلق ؛ وإلى الحق الذي لو اتبع أهواءهم لفسدت السماوات والأرض ..

فالدرس كله ، موضوعاً واتجاهاً ، موصول الأسباب بالدرس السابق من هذه الناحية . .

ثم هو حلقة من حلقات المنهج التربوي الحكيم ، في إعداد هذه الجماعة لتكون الامة التي تقود البشرية ؛ بتفوقها التربوي والتنظيمي ؛ وليعالج فيها مواضع الضعف البشري ورواسب المجتمع الجاهلي ؛ وليخوض بها المعركة في ميادينها كلها .. وهو الهدف الذي تتوخاه السورة بشتى موضوعاتها ؛ ويتولاه المنهج القرآني كله .

* * *

«ولا خير في كثير من نجواهم . إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس. ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضاة الله ، فسوف نؤتيه أجراً عظيما » ..

لقد تكرر في القرآن النهي عن النجوى ؛ وهي أن تجتمع طائفة بعيداً عن الجماعة المسلمة وعن القيادة المسلمة ، لتبيت أمراً .. وكان اتجاه التربية الإسلامية واتجاه التنظيم الاسلامي كذلك أن يأتي كل إنسان بمشكلته أو بموضوعه ، فيعرضه على النبي ﷺ مسارة إن كان أمراً شخصياً لا يريد أن يشيع عنه شيء في الناس . أو مساءلة علنية إن كان من الموضوعات ذات الصبغة

العامة ، التي ليست من خصوصيات هذا الشخص .

والحكمة في هذه الخطة ، هو ألا تكون « جيوب » في الجماعة المسلمة ؛ وألا تعزل مجموعات منها بتصوراتها ومشكلاتها ، أو بأفكارها واتجاهاتها . وألا تبيت مجموعة من الجماعة المسلمة أمراً بليل وتواجه به الجماعة أمراً مقرراً من قبل ؛ أو تخفيه عن الجماعة وتستخفي به عن أعينها — وإن كانت لا تختفي به عن الله وهو معهم إذ يبيتون ما لا يرضى من القول .

وهذا الموضع أحد المواضع التي ورد فيها هذا النهي عن التناجي والتبييت بمعزل عن الجماعة المسلمة وقيادتها . .

ولقد كان المسجد هو ندوة الجماعة المسلمة ، تتلاقى فيه وتتجمع للصلاة ولشؤون الحياة . وكان المجتمع المسلم كله مجتمعاًمفتوحاً؛تعرض مشكلاته ـ التي ليست بأسرارالقيادة في المعارك وغيرها ؛ والتي ليست بمسائل شخصية بحتة لا يحب أصحابها أن تلوكها الألسن ـ عرضاً عاماً . وكان هذا المجتمع المفتوح من ثم مجتمعا نظيفاً طلق الهواء . لا يتجنبه ليبيت من وراء ظهره ، إلا الذين يتآمرون عليه ! أو على مبدأ من مبادئه ـ من المنافقين غالباً ـ وكذلك اقترنت النجوى بالمنافقين في معظم المواضع .

وهذه حقيقة تنفعنا . فالمجتمع المسلم يجب أن يكون بريئاً من هذه الظاهرة ، وأن يرجع أفراده اليه وإلى قيادتهم العامة بما يخطر لهم من الخواطر، أو بما يعرض لهم من خطط واتجاهات أو مشكلات !

والنص القرآني هنا يستثني نوعاً من النجوى . . هو في الحقيقة ليس منها ، وإن كان له شكلها :

« إلا من أمر بصدقة أو معروف ، أو إصلاح بين الناس » . .

وذلك أن يجتمع الرجل الخير بالرجل الخير ، فيقول له : هلم نتصدق على فلان فقد علمت حاجته في خفية عن الأعين . أو هلم إلى معروف معين نفعله أو نحض عليه . أو هلم نصلح بين فلان وفلان فقد علمت أن بينها نزاعا . . وقد تكون العصبة من الخيرين لأداء أمر من هذه الأمور ، وتتفق فيما بينها سراً على النهوض بهذا الأمر . فهذا ليس نجوى ولا تآمراً . ومن ثم سماه « أمراً » وإن كان له شكل النجوى ، في مسارة الرجل الخير للخيرين أمثاله بأمر في معروف يعلمه أو خطر له . .

على شرط أن يكون الباعث هو ابتغاء مرضاة الله :

« ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضاة الله فسوف نؤتيه أجراً عظيماً » . .

فلا يكون لهوى في الصدقة على فلان ، أو الإصلاح بين فلان وعلان . ولا يكون ليشتهر الرجل بأنه — والله رجل طيب — ! يحض على الصدقة والمعروف ، ويسعى في الإصلاح بين الناس ! ولا تكون هناك شائبة تعكر صفاء الاتجاه الى الله ، بهذا الخير . فهـذا هو مفرق الطريق بين العمل يعمله المرء فيرضى الله عنه ويثيبه به . والعمل نفسه يعمله المرء فيغضب الله عليه ، ويكتبه له في سجل السيئات !

***

« ومن يشاقق الرسول — من بعد ما تبين له الهدى — ويتبع غير سبيل المؤمنين ، نوله ما تولى ، ونصله جهنم وساءت مصيرا . إن الله لا يغفر أن يشرك به ، ويغفر ما دون ذلك ـ لمن يشاء — ومن يشرك بالله فقد ضل ضلالا بعيدا » .

وقد ذكر في سبب نزول هذه المجموعة من الآيات ، أن بشير بن أبيرق قد ارتد والتحق بالمشركين .. « من بعد ما تبين له الهدى » .. فقد كان في صفوف المسلمين ، ثم أتبع غير سبيل المؤمنين .. ولكن النص عام ، ينطبق على كل حالة ، ويواجه كل حالة من مشاقة الرسول ﷺ ومشاقته كفر وشرك وردة ، ينطبق عليها ما ينطبق على ذلك الحادث القديم .

والمشاقة — لغة — أن يأخذ المرء شقا مقابلا للشق الذي يأخذه الآخر . والذي يشاق الرسول ﷺ هو الذي يأخذ له شقا وجانبا وصفا غير الصف والجانب والشق الذي يأخذه النبي ﷺ ومعنى هذا أن يتخذ له منهجا للحياة كلها غير منهجه، وأن يختار له طريقاً غيرطريقه. فالرسول ﷺ جاء يحمل من عند الله منهجا كاملًا للحياة يشتمل على العقيدة والشعائر التعبدية ، كما يشتمل على الشريعة والنظام الواقعي لجوانب الحياة البشرية كلها .. وهذه وتلك كلتاهما جسم هذا المنهج ، بحيث تزهق روح هذا المنهج إذا شطر جسمه فأخذ منه شق وطرح شق ! والذي يشاق الرسول ﷺ هو كل من ينكر منهجه جملة ، أو يؤمن ببعض ويكفر ببعض ، فيأخذ بشق منه ويطرح شقا !

وقد اقتضت رحمة الله بالناس ، ألا يحق عليهم القول ، ولا يصلوا جهنم وساءت مصيرا، إلا بعد أن يرسل اليهم رسولا . وبعد أن يبين لهم . وبعد أن يتبينوا الهدى ثم يختاروا الضلالة . وهي رحمة الله الواسعة الحانية على هذا المخلوق الضعيف . فإذا تبين له الهدى . أي إذا علم أن هذا المنهج من عند الله . ثم شاق الرسول ﷺ فيه ، ولم يتبعه ويطعه ، ولم يرض بمنهج الله الذي

تبين له ؛ فعندئذ يكتب الله عليه الضلال ، ويوليه الوجهة التي تولاهـا ، ويلحقه بالكفار والمشركين الذين توجه إليهم . ويحق عليه العذاب المذكور في الآية بنصه :

« ومن يشاقق الرسول – من بعد ما تبين له الهدى – ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ، ونصله جهنم وساءت مصيرا ! » . .

ويعلل النص هذا المصير البائس السيء ، بأن مغفرة الله – سبحانه – تتناول كل شيء.. إلا أن يشرك به .. فهذه لا مغفرة لمن مات عليها :

« إن الله لا يغفر أن يشرك به . ويغفر ما دون ذلك – لمن يشاء – ومن يشرك بالله فقد ضل ضلالا بعيداً » . .

والشرك بالله – كما أسلفنا في هذا الجزء عند تفسير مثل هذه الآية من قبل – يتحقق باتخاذ آلهة مع الله اتخاذاً صريحاً – على طريقة الجاهلية العربية وغيرها من الجاهليات القديمة – كما يتحقق بعدم إفراد الله بخصائص الالوهية ؛ والاعتراف لبعض البشر بهذه الخصائص. كإشراك اليهود والنصارى الذي حكاه القرآن من أنهم « اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله » ولم يكونوا عبدوهم مع الله . ولكن كانوا فقط اعترفوا لهم بحق التشريع لهم من دون الله . فحرموا عليهم وأحلوا لهم . فاتبعوهم في هذا . ومنحوهم خاصية من خصائص الالوهية ! فحق عليهم وصف الشرك . وقيل عنهم إنهم خالفوا ما أمروا به من التوحيد«وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً » . . فيقيموا له وحده الشعائر ، ويتلقوا منه وحده الشرائع والأوامر .

ولا غفران لذنب الشرك – متى مات صاحبه عليه – بينما باب المغفرة مفتوح لكل ذنب سواه . . عندما يشاء الله . . والسبب في تعظيم جريمة الشرك ، وخروجها من دائرة المغفرة ، أن من يشرك بالله يخرج عن حدود الخير والصلاح تماماً ؛وتفسد كل فطرته بحيث لا تصلح أبداً:

« ومن يشرك بالله فقد ضل ضلالا بعيداً » . .

ولو بقي خيط واحد صالح من خيوط الفطرة لشده إلى الشعور بوحدانية ربه ؛ ولو قبل الموت بساعة . . فأما وقد غرغر – وهو على الشرك – فقد انتهى أمره وحق عليه القول :

« ونصله جهنم . وساءت مصيراً ! » .

* * *

ثم يصف بعض أوهام الجاهلية العربية في شركها . وأساطيرها حول اتخاذ الله بنات – هن الملائكة – وحول عبادتهم للشيطان – وقد عبدوه كما عبدوا الملائكة وتماثيلها الأصنام – كما

يصف بعض شعائرهم في تقطيع أو تشقيق آذان الانعام المنذورة للآلهة ! وفي تغييرهم خلق الله . والشرك بالله . وهو يخالف للفطرة التي فطر الله الناس عليها :

« إن يدعون من دونه إلا إناثا ، وإن يدعون إلا شيطانا مريدا ، لعنه الله وقال: لأتخذن من عبادك نصيبا مفروضا ، ولاضلنهم ، ولأمنينهم ، ولآمرنهم فليبتكن آذان الانعام ؛ ولآمرنهم فليغيرن خلق الله .. ومن يتخذ الشيطان وليا من دون الله فقد خسر خسرانا مبينا. يعدهم ويمنيهم وما يعدهم الشيطان إلا غرورا » .

لقد كان العرب ـ في جاهليتهم ـ يزعمون أن الملائكة بنات الله . ثم يتخذون لهـذه الملائكة تماثيل يسمونها أسماء الإناث : « اللات . والعزى . ومناة » وأمثالها ثم يعبدون هذه الاصنام ـ بوصفها تماثيل لبنات الله ـ يتقربون بها إلى الله زلفى .. كان هـذا على الأقل في مبدأ الأمر .. ثم ينسون أصل الاسطورة ، ويعبدون الأصنام ذاتها ، بـل يعبدون جنس الحجر ، كما بينا ذلك في الجزء الرابع .

كذلك كان بعضهم يعبد الشيطان نصاً . . قال الكلبي : كانت بنو مليح من خزاعة يعبدون الجن ..

على ان النص هنا أوسع مدلولا ، فهم في شركهم كله إنما يدعون الشيطان ، ويستمدون منه : هذا الشيطان صاحب القصة مع أبيهم آدم ؛ الذي لعنه الله ، بسبب معصيته وعـدائه للبشر . والذي بلغ من حقده بعد طرده ولعنته ، أن يأخذ من الله ـ سبحانه ـ إذنا بأن يغوي من البشر كل من لا يلجأ إلى حمى الله :

« إن يدعون من دونه إلا إناثا . وإن يدعون إلا شيطانا مريداً.لعنه الله.وقال : لأتخذن من عبادك نصيباً مفروضـا . ولأضلنهم ، ولأمنينهم ، ولآمرنهم فليبتكن آذان الأنعام ، ولآمرنهم فليغيرن خلق الله » .

إنهم يدعون الشيطان ـ عدوهم القديم ـ ويستوحونه ويستمدون منه هذا الضلال . ذلك الشيطان الذي لعنه الله . والذي صرح بنيته في إضلال فريق من بني آدم ، وتمنيتهم بالأمنيات الكاذبة في طريق الغواية ، من لذة كاذبة ، وسعادة موهومة ، ونجاة من الجزاء في نهـاية المطاف ! كما صرح بنيته في أن يدفع بهم إلى أفعـال قبيحة ، وشعائر سخيفة ، من نسج الأساطير . كتمزيق آذان بعض الأنعام ، ليصبح ركوبها بعد ذلك حرامـاً ، أو أكلها حراما ـ دون أن يحرمها الله ـ ومن تغيير خلق الله وفطرته بقطع بعض اجزاء الجسد أو تغيير شكلها في الحيوان أو الانسان ، كخصاء الرقيق ، ووشم الجلود ... وما إليها مـن

التغيير والتشويه الذي حرمه الاسلام .

وشعور الانسان بأن الشيطان - عدوه القديم - هو الذي يأمر بهذا الشرك وتوابعه من الشعائر الوثنية ، يثير في نفسه - على الأقل - الحذر من الفخ الذي ينصبه العدو . وقد جعل الاسلام المعركة الرئيسية بين الانسان والشيطان . ووجه قوى المؤمن كلها لكفاح الشيطان والشر الذي ينشئه في الارض ؛ والوقوف تحت راية الله وحزبه، في مواجهة الشيطان وحزبه: وهي معركة دائمة لا تضع أوزارها . لأن الشيطان لا يمل هذه الحرب التي أعلنها منذ لعنه وطرده . والمؤمن لا يغفل عنها ، ولا ينسحب منها .وهو يعلم أنه إما أن يكون وليا لله، وإما أن يكون وليا للشيطان ؛ وليس هنالك وسط .. والشيطان يتمثل في نفسه وما يبثه في النفس من شهوات ونزوات ؛ ويتمثل في أتباعه من المشركين وأهل الشر عامة . والمسلم يكافحه في ذات نفسه ، كما يكافحه في أتباعه .. معركة واحدة متصلة طوال الحياة .

ومن يجعل الله مولاه فهو ناج غانم . ومن يجعل الشيطان مولاه فهو خاسر هالك :

« ومن يتخذ الشيطان ولياً من دون الله فقد خسر خسرانا مبينا » ..

ويصور السياق القرآني فعل الشيطان مع أوليائه ، في مثل حالة الاستهواء .

« يعدهم ويمنيهم ، وما يعدهم الشيطان إلا غرورا » .

إنها حالة استهواء معينة هي التي تنحرف بالفطرة البشرية عن الإيمان والتوحيد، إلى الكفر والشرك . ولولا هذا الاستهواء لمضت الفطرة في طريقها ، ولكان الإيمان هو هاديها الفطرة وحاديها .

وإنها حالة استهواء معينة هي التي يزين فيها الشيطان للانسان سوء عمله ، فيراه حسناً ! ويعده الكسب والسعادة في طريق المعصية ، فيعدو معه في الطريق ! ويمنيه النجاة من عاقبة ما يعمل فيطمئن ويمضي في طريقه إلى المهلكة !

« وما يعدهم الشيطان إلا غروراً » ..

وحين يرتسم المشهد على هذا النحو ، والعدو القديم يفتل الحبال ، ويضع الفخ ، ويستدرج الفريسة ، لا تبقى إلا الجبلات الموكوسة المطموسة هي التي تظل سادرة لا تستيقظ ، ولا تتلفت ولا تحاول أن تعرف إلى أي طريق تساق ، وإلى أية هوة تستهوى !

وبينما هذه اللمسة الموقظة تفعل فعلها في النفوس ، وتصور حقيقة المعركة، وحقيقة الموقف، يجيء التعقيب ببيان العاقبة في نهاية المطاف : عاقبة من يستهويهم الشيطان، ويصدق عليهم ظنه، وينفذ فيهم ما صرح به من نيته الشريرة .. وعاقبة من يفلتون من حباله، لأنهم آمنوا بالله حقاً.

والمؤمنون بالله حقا في نجوة من هذا الشيطان لأنه – لعنة الله عليه – وهو يستأذن في إغواء الضالين ، لم يؤذن له في المساس بعباد الله المخلصين . فهو إزاءهم ضعيف ضعيف ؛ كلما اشتدت قبضتهم على حبل الله المتين :

« ومن يتخذ الشيطان وليا من دون الله فقد خسر خسراناً مبيناً . يعدهم ويمنيهم ، وما يعدهم الشيطان إلا غرورا . أولئك مأواهم جهنم ، ولا يجدون عنها محيصا . والذين آمنوا وعملوا الصالحات سندخلهم جنات تجري من تحتها الانهار ، خالدين فيها أبداً ، وعد الله حقا ، ومن أصدق من الله قيلا ؟ » ..

فهي جهنم ولا محيص عنها لأولياء الشيطان .. وهي جنات الخلد لا خروج منها لأولياء الله .. وعد الله :

« ومن أصدق من الله قيلا » ؟

والصدق المطلق في قول الله هنا ؛ يقابل الغرور الخادع ، والأماني الكاذبة في قول الشيطان هناك ! وشتان بين من يثق بوعد الله ، ومن يثق بتغرير الشيطان !

***

ثم يعقب السياق بقاعدة الاسلام الكبرى في العمل والجزاء .. إن ميزان الثواب والعقاب ليس موكولا إلى الأماني . إنه يرجع إلى أصل ثابت ، وسنة لا تتخلف ، وقانون لا يحابي . قانون تستوي أمامه الأمم – فليس أحد يمت إلى الله سبحانه بنسب ولا صهر – وليس أحد تخرق له القاعدة ، وتخالف من أجله السنة ، ويعطل لحسابه القانون .. إن صاحب السوء مجزي بالسوء ؛ وصاحب الحسنة مجزي بالحسنة . ولا محاباة في هذا ولا مماراة :

« ليس بأمانيكم ولا أماني أهل الكتاب . من يعمل سوءا يجز به ، ولا يجد له من دون الله وليا ولا نصيرا .. ومن يعمل من الصالحات – من ذكر أو أنثى وهو مؤمن – فأولئك يدخلون الجنة ، ولا يظلمون نقيرا . ومن أحسن دينا ممن أسلم وجهه لله – وهو محسن – واتبع ملة إبراهيم حنيفا ، واتخذ الله إبراهيم خليلا » .

ولقد كان اليهود والنصارى يقولون : « نحن أبناء الله وأحباؤه » .. وكانوا يقولون : « لن تمسنا النار إلا أياماً معدودة » .. وكان اليهود ولا يزالون يقولون : إنهم شعب الله المختار !

ولعل بعض المسلمين كانت تراود نفوسهم كذلك فكرة أنهم خير أمة أخرجت للناس .

وأن الله متجاوز عما يقع منهم .. بما أنهم المسلمون ..

فجاء هذا النص يرد هؤلاء وهؤلاء إلى العمل ، والعمل وحـــده . ويرد الناس كلهم إلى ميزان واحد . هو إسلام الوجه لله — مع الإحسان — واتباع مـــلة إبراهيم.وهي الاسلام . إبراهيم الذي اتخذه الله خليلا ..

فأحسن الدين هو هذا الإسلام — مـــلة إبراهيم — وأحسن العمل هو « الإحسان » .. والإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك . وقد كتب الإحسان في كل شيء حتى في إراحة الذبيحة عند ذبحها ، وحد الشفرة ، حتى لا تعذب وهي تذبح !

وفي النص تلك التسوية بين شقي النفس الواحدة ، في موقفها من العمل والجزاء ؛ كما أن فيه شرط الإيمان لقبول العمل ، وهو الإيمان بالله :

« ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى — وهو مؤمن — فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيرا » ..

وهو نص صريح على وحدة القاعدة في معاملة شقي النفس الواحدة — من ذكر أو أنثى — كما هو نص صريح في اشتراط الإيمان لقبول العمل . وأنه لا قيمة عند الله لعمل لا يصدر عن الإيمان . ولا يصاحبه الإيمان . وذلك طبيعي ومنطقي . لأن الإيمان بالله هو الذي يجعل العمل الصالح يصدر عن تصور معين وقصد معلوم ؛ كما يجعله حركة طبيعية مطردة ، لا استجابة لهوى شخصي ، ولا فلتة عابرة لا تقوم على قاعدة ..

وهذه الألفاظ الصريحة تخالف ما ذهب إليه الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده رحمه الله في تفسير جزء « عم » عند قوله تعالى : « فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره » . . إذ رأى النص لعمومه هذا يشمل المسلم وغير المسلم . بينما النصوص الصريحة الأخرى تنفي هذا تماماً. وكذلك ما رآه الأستاذ الشيخ المراغي — رحمه الله — وقد أشرنا إلى هـــذه القصة في الطبعة الرابعة من جزء عم (الجزء الثلاثين من الظلال) .

ولقد شق على المسلمين قول الله لهم :

« ومن يعمل سوءا يجز به ، ولا يجد له من دون الله وليا ولا نصيرا » ..

فقد كانوا يعرفون طبيعة النفس البشرية ؛ ويعرفون أنها لا بد أن تعمـــل سوءا . مهما صلحت ، ومهما عملت من حسنات .

كانوا يعرفون النفس البشرية — كما هي في حقيقتها — وكانوا من ثم يعرفون أنفسهم .. لم يخدعوا أنفسهم عن حقيقتها ؛ ولم يخفوا عن أنفسهم سيئاتها ؛ ولم يتجاهلوا ما يحتوي نفوسهم

من ضعف أحياناً ، ولم ينكروا أو يغطوا هذا الضعف الذي يجـــدونه . ومن ثم ارتجفت نفوسهم ، وهم يواجهون بأن كل سوء يعملونه يجزون به . ارتجفت نفوسهم كالذي يواجـــه العاقبة فعلاً ويلامسها ، وهذه كانت ميزتهم . أن يحسوا الآخرة على هذا النحو ، ويعيشوا فيها فعلا بمشاعرهم كأنهم فيها . لا كأنها آتية لا ريب فيها فحسب ! ومن ثم كانت رجفتهم المزلزلة لهذا الوعيد الأكيد !

قال الامام أحمد : حدثنا عبد الله بن نمير ، حدثنا إسماعيل ، عن أبي بكر بن أبي زهير ، قال : « أخبرت أن أبا بكر ــ رضي الله عنه ــ قال : يا رسول الله ، كيف الفلاح بعد هذه الآية ؟ « ليس بأمانيكم ولا أماني أهل الكتاب ، من يعمل سوءاً يجز به » .. فكل سوء عملناه جزينا به .. فقال النبي ﷺ : « غفر الله لك يا أبا بكر . ألست تمرض ؟ ألست تنصب ؟ ألست تحزن ؟ ألست تصيبك اللأواء ؟ » قال بلى ! قال : « فهو بما تجزون به » .. ورواه الحاكم عن طريق سفيان الثوري عن إسماعيل .

وروى أبو بكر بن مردويه ـ بإسناده ـ إلى ابن عمر ، يحدث عن أبي بكر الصديق . قال : كنت عند النبي ﷺ فنزلت هذه الآية : « من يعمل سوءاً يجز بـــه ، ولا يجد له من دون الله ولياً ولا نصيراً » فقال رسول الله ﷺ : « يا أبا بكر ، ألا أقرئك آية نزلت علي ؟ » قال : قلت يا رسول الله فأقرأنيها . فلا أعلم أني قد وجدت انفصامـــاً في ظهري ، حتى تمطيت لها ! فقال رسول الله ﷺ : « مالك يا أبا بكر ؟ » فقلت : بأبي أنت وأمي يا رسول الله ! وأينا لم يعمل السوء ، وإنا لمجزيون بكل سوء عملناه ! فقال رسول الله ﷺ : « أمـــا أنت يا أبا بكر وأصحابك المؤمنون فإنكم تجزون بذلك في الدنيا ، حتى تلقوا الله ليس لكم ذنوب . وأما الآخرون فيجمع ذلك لهم حتى يجزوا بـــه يوم القيامة » . (وكذا رواه الترمذي) .

وروى ابن أبي حاتم ـ بإسناده ـ عن عائشة قالت : قلت يا رسول الله إني لأعلم أشد آية في القرآن . فقال ما هي يا عائشة ؟ » قلت : « من يعمل سوءاً يجز به » . فقال . « ما يصيب العبد المؤمن ، حتى النكبة ينكبها » . (ورواه ابن جرير) .

وروى مسلم والترمذي والنسائي من حديث سفيان بن عيينة بإسناده ـ عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال لما نزلت : « من يعمل سوءاً يجز به » شق ذلك على المسلمين فقال لهم رسول الله ﷺ : « سددوا وقاربوا فإن في كل ما يصاب به المسلم كفارة . حتى الشوكة يشاكهـــا والنكبة ينكبها » ..

على أية حال لقد كانت هذه حلقة في إنشاء التصور الإيماني الصحيح عن العمل والجزاء . ذات أهمية كبرى في استقامة التصور من ناحية ، واستقامة الواقع العملي من ناحية أخرى . ولقد هزت هذه الآية كيانهم ، ورجفت لها نفوسهم ، لأنهم كانوا يأخذون الأمر جـــداً . ويعرفون صدق وعد الله حقاً . ويعيشون هذا الوعد ويعيشون الآخرة وهم بعد في الدنيا .

وفي الختام يجيء التعقيب على قضية العمل والجزاء ، وقضية الشرك قبلها والإيمان ، برد كل ما في السماوات والأرض لله ، وإحاطة الله بكل شيء في الحياة وما بعد الحياة :

« ولله ما في السماوات وما في الأرض ، وكان الله بكل شيء محيطاً » .

وإفراد الله سبحانه بالألوهيـــة يصاحبه في القرآن كثيراً إفراده سبحانه بالملك والهيمنة والسلطان والقهر ، فالتوحيد الإسلامي ليس مجرد توحيد ذات الله . وإنما هو توحيد إيجابي . توحيد الفاعلية والتأثير في الكون ، وتوحيد السلطان والهيمنة أيضاً (١) .

ومتى شعرت النفس أن لله ما في السموات وما في الأرض . وأنه بكل شيء محيط ، لا يند شيء عن علمه ولا عن سلطانه .. كان هذا باعثها القوى إلى إفراد الله سبحانه بالألوهيـــة والعبادة ؛ وإلى محاولة إرضائه باتباع منهجه وطاعة أمره .. وكل شيء ملكه . وكل شيء في قبضته . وهو بكل شيء محيط .

وبعض الفلسفات تقرر وحدانية الله . ولكن بعضها ينفي عنه الإرادة . وبعضها ينفي عنه العلم . وبعضها ينفي عنه السلطان . وبعضها ينفي عنه الملك .. إلى آخر هذا الركام الذي يسمى « فلسفات ! » .. ومن ثم يصبح هذا التصور سلبياً لا فاعلية له في حياة الناس ، ولا أثر له في سلوكهم وأخلاقهم ؛ ولا قيمة له في مشاعرهم وواقعهم .. كلام ! مجرد كلام !

إن الله في الإسلام ، له ما في السموات ومـــا في الأرض . فهو مالك كل شيء .. وهو بكل شيء محيط . فهو مهيمن على كل شيء .. وفي ظل هـــذا التصور يصلح الضمير . ويصلح السلوك . وتصلح الحياة ..

« وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي ٱلنِّسَاءِ . قُلِ : ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ ، وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَابِ فِي يَتَامَى ٱلنِّسَاءِ ، ٱللَّاتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَـــا كُتِبَ لَهُنَّ ،

---

(١) يراجع فصل الايجابية في كتاب « خصائص التصور الاسلامي ومقوماته » القسم الأول .

وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ ، وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ ، وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَى بِالْقِسْطِ . وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيماً »(١٢٧) .

« وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزاً أَوْ إِعْرَاضاً فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحاً — وَالصُّلْحُ خَيْرٌ — وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ — وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا ، فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً(١٢٨) وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ — وَلَوْ حَرَصْتُمْ — فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ ، فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ . وَإِنْ تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً(١٢٩) وَإِنْ يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلّاً مِنْ سَعَتِهِ ، وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعاً حَكِيماً »(١٣٠) .

« وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ . وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ : أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ . وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ، وَكَانَ اللَّهُ غَنِيّاً حَمِيداً(١٣١) وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ . وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً(١٣٢) إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ — أَيُّهَا النَّاسُ — وَيَأْتِ بِآخَرِينَ . وَكَانَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيراً(١٣٣) مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعاً بَصِيراً »(١٣٤) .

هذا الدرس تكملة لما بدأت به السورة من علاج رواسب المجتمع الجاهلي ، فيما يختص بالمرأة والأسرة ؛ وفيما يختص بمعاملة الضعاف في المجتمع كاليتامى والأطفال . وتنقية المجتمع المسلم من هذه الرواسب ؛ وإقامة البيت فيه على أساس من كرامة شطري النفس الواحدة ؛ ورعاية مصالحهما معاً ، وبتقوية روابط الأسرة وإصلاح ما يشجر في جوها من خلاف ، قبل أن

يستفحل ، فيؤدي إلى تقطيع هذه الروابط ، وتحطيم البيوت على من فيها ، وبخاصة على الذرية الضعيفة الناشئة في المحاضن .. وإقامة المجتمع كذلك على أساس من رعاية الضعاف فيه ؛ كي لا يكون الأمر للأغلب ؛ وتكون شريعة الغاب هي التي تتحكم !

وهذا الدرس يعالج بعض هذه الشؤون ، ويربطها بنظام الكون كله .. مما يشعر معه المخاطب بهذه الآيات ، أن أمر النساء والبيوت والأسرة والضعاف في المجتمع ، هو أمر خطير كبير .. وهو في حقيقته أمر خطير كبير .. وقد تحدثنا في ثنايا هذا الجزء ، وفي مقدمات السورة في الجزء الرابع ، بما فيه الكفاية عن نظرة الإسلام الى الأسرة ؛ وعن الجهد المبذول في هذا المنهج لتخليص المجتمع المسلم من رواسب الجاهلية ، ومن رفع مستواه النفسي والاجتماعي والخلقي ، بما يكفل تفوقه على المجتمعات كلها من حوله ، وعلى كل مجتمع آخر لا يدين بهذا الدين ، ولا يتربى بهذا المنهج ، ولا يخضع لنظامه الفريد .

والآن نواجه نصوص هذا الدرس بالتفصيل :

***

«ويستفتونك في النساء . قل : الله يفتيكم فيهن ، وما يتلى عليكم في الكتاب في يتامى النساء اللاتى لا تؤتونهن ما كتب لهن وترغبون أن تنكحوهن ، والمستضعفين من الولدان ؛ وأن تقوموا لليتامى بالقسط . وما تفعلوا من خير فإن الله كان به عليما » ..

لقد أثارت الآيات التي نزلت في أوائل السورة عن النساء أسئلة واستفتاءات في بعض شأنهن .. وظاهرة سؤال المسلمين واستفتائهم في بعض الأحكام ، ظاهرة لها دلالتها في المجتمع المسلم الناشيء ؛ وفي رغبة المسلمين في معرفة أحكام دينهم في شؤون حياتهم . فقد كانت الهزة التي أحدثتها النقلة من الجاهلية الى الإسلام في نفوسهم هزة عميقة ، بحيث أصبحوا يشكون ويشفقون من كل أمر كانوا يأتونه في الجاهلية ، مخافة أن يكون الإسلام قد نسخه ، أو عدله . ويتطلبون أن يعرفوا حكم الإسلام في كل ما يعرض لهم في حياتهم اليومية من الشؤون . وهذه اليقظة وهذه الرغبة في مطابقة أحوالهم لأحكام الإسلام ، هي العنصر البارز في هذه الفترة — على الرغم من بقاء بعض رواسب الجاهلية في حياتهم — فالمهم هو رغبتهم الحقيقية القوية في مطابقة أحوالهم لأحكام الإسلام ؛ والاستفسار عن بعض الأحكام بهذه الروح . لا لمجرد الاستفتاء ولا لمجرد العلم والمعرفة والثقافة ! كمعظم ما يوجه إلى المفتين في هذه الأيام من استفتاءات !

لقد كانت بالقوم حاجـــة إلى معرفة أحكام دينهم ، لأنها هي التي تكوّن نظام حياتهم الجديدة . وكانت بهم حرارة لهذه المعرفة ، لأن الغرض منها هو إيجاد التطابق بين واقــع حياتهم وأحكام دينهم . وكان بهم انخلاع من الجاهلية ، وإشفاق من كل ما كان فيها من تقاليد وعادات وأوضاع وأحكام . مع شدة إحساسهم بقيمة هذا التغيير الكامل الذي أنشأه الإسلام في حياتهم : أو بتعبير أدق بقيمة هذا الميلاد الجديد الذي ولدوه على يدي الإسلام .

وهنا نجد جزاء تطلعهم لله ، وجزاء حرارتهم ، وصدق عزيمتهم على الاتباع .. نجد جزاء هذا كله عناية من الله ورعاية .. بأنه سبحانه – بذاته العلية – يتولى إفتاءهم فيما يستفتون فيه:

« ويستفتونك في النساء . قل الله يفتيكم فيهن . . » ..

فهم كانوا يستفتون الرسول ﷺ والله – سبحانه – يتفضل فيقول للنبي ﷺ قل : إن الله يفتيكم فيهن وفي بقية الشؤون التي جاء ذكرها في الآية . وهي لفتة لها قيمتها التي لا تقدر ، في عطف الله سبحانه ، وتكريمه للجماعة المسلمة ؛ وهو يخاطبها بذاته ؛ ويرعاها بعينه ؛ ويفتيها فيما تستفتي ، وفيما تحتاج اليه حياتها الجديدة .

وقد تناولت الفتوى هنا تصوير الواقع المترسب في المجتمع المسلم من الجاهلية التي التقطه المنهج الرباني منها . كما تناولت التوجيه المطلوب ، لترفع حياة المجتمع المسلم وتطهيرهـــا من الرواسب :

« قل الله يفتيكم فيهن ؛ وما يتلى عليكم في الكتاب في يتامى النساء اللاتي لا تؤتونهن مـــا كتب لهن ، وترغبون أن تنكحوهن . والمستضعفين من الولدان . وأن تقوموا لليتـــامى بالقسط .. » .

قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في هذه الآية : كان الرجل في الجاهلية تكون عنده اليتيمة فيلقي عليها ثوبه . فإذا فعل ذلك فلم يقدر أحد أن يتزوجها أبداً . وإن كانت جميلة وهويها تزوجها ، وأكل مالها . وإن كانت دميمة منعها الرجال أبداً حتى تموت . فإذا ماتت ورثها . فحرم الله ذلك ونهى عنه . . وقال في قوله : « والمستضعفين من الولدان » كانوا في الجاهلية لا يورثون الصغار ولا البنات . وذلك قوله : « ولا تؤتونهن ما كتب لهن » .. فنهى الله عن ذلك ؛ وبين لكل ذي سهم سهمه فقال : للذكر مثـــل حظ الأنثيين ، صغيراً أو كبيراً . .

وقال سعيد بن جبير في قوله : « وأن تقوموا لليتامى بالقسط » .. كما إذا كانت ذات جمـــال وقال نكحتها وأستأثرت بها ، كذلك وإذا لم تكن ذات مال ولا جمال فأنكحها

واستأثر بها .

وعن عائشة — رضي الله عنها — : «ويستفتونك في النساء . قل : الله يفتيكم فيهن» — إلى قوله : « وترغبون أن تنكحوهن » قالت عائشة : هو الرجل تكون عنده اليتيمة ، هو وليها ووارثها ، فأشركته في ماله ، حتى في العذق ، فيرغب أن ينكحها [1] ويكره أن يزوجها رجلا فيشركه في ماله بما شركته ، فيعضلها فنزلت الآية (أخرجه البخاري ومسلم) .

وقال ابن أبي حاتم : قرأت مع محمد بن عبد الله بن عبد الحكم ، أخبرنا ابن وهب ، أخبرني يونس عن ابن شهاب ، أخبرني عروة بن الزبير قالت عائشة : « ثم إن الناس استفتوا رسول الله ﷺ بعد هذه الآية فيهن . فأنزل الله : « ويستفتونك في النساء قل : الله يفتيكم فيهن ، وما يتلى عليكم في الكتاب » . . الآية . . قالت . والذي ذكر الله أنه يتلى في الكتاب : الآية الأولى التي قال الله : « وإن خفتم ألا تقسطوا في اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء . . » . وبهذا الإسناد عن عائشة قالت : « وقول الله عز وجل : « وترغبون أن تنكحوهن » . . رغبة أحدكم عن يتيمته التي تكون في حجره حين تكون قليلة المال والجمال . فنهوا أن ينكحوا من رغبوا في مالها وجمالها من يتامى النساء — إلا بالقسط — من أجل رغبتهم عنهن » .

وظاهر من هذه النصوص ، ومن النص القرآني . ما كان عليه الحال في الجاهلية ؛ فيما يختص بالفتيات اليتيمات . فقد كانت اليتيمة تلقى من وليها الطمع والغبن : الطمع في مالها ، والغبن في مهرها — إن هو تزوجها — فيأكل مهرها ويأكل مالها . والغبن إن لم يتزوجها كراهية لها لأنها دميمة . ومنعها أن تتزوج حتى لا يشاركه زوجها فيما تحت يده من مالها !

كذلك كان الحال في الولدان الصغار والنساء ، إذ كانوا يحرمونهم من الميراث لأنهم لا يملكون القوة التي يدفعون بها عن ميراثهم ؛ أو أنهم غير محاربين ، فلا حق لهم في الميراث ، تحت تأثير الشعور القبلي ، الذي يجعل للمحاربين في القبيلة كل شيء ، ولا شيء للضعاف !

وهذه التقاليد الشائهة البدائية ، هي التي أخذ الإسلام يبدلها ، وينشيء مكانها تقاليد انسانية راقية لا تعد — كما قلنا — مجرد وثبة ، أو نهضة ، في المجتمع العربي . إنما هي في حقيقتها نشأة أخرى ؛ وميلاد جديد ، وحقيقة أخرى لهذه الأمة غير حقيقتها الجاهلية !

والمهم الذي يجب أن نسجله : هو أن هذه النشأة الجديدة ، لم تكن تطوراً مسبوقا بأية

---

(١) اي يرغب عن نكاحها ولا يريد ان يتزوجها لدمامتها .

خطوات تمهيدية له ؛ أو أنه انبثق من واقع مادي تغير فجأة في حياة هذا الشعب !

فالنقلة من إقامة حقوق الإرث والملك على أساس حق المحاوب إلى إقامتها على أساس الحق الإنساني ، وإعطاء الطفل واليتيمة والمرأة حقوقهم بصفتهم الإنسانية، لا بصفتهم محاربين .. هذه النقلة لم تنشأ لأن المجتمع قد انتقل إلى أوضاع مستقرة لا قيمة فيها للمحاربين . ومن ثم قضى على الحقوق المكتسبة للمحاربين ، لأنه لم يعد في حاجة إلى تمييزهم !

كلا ! فقد كان للمحاربين في العهد الجديد قيمتهم كلها ؛ وكانت الحاجة اليهم ماسة !ولكن كان هناك .. الإسلام .. كان هناك هذا الميلاد الجديد للانسان . الميلاد الذي انبثق من خلال كتاب ؛ ومن خلال منهج ؛ فأقــــام مجتمعا جديداً وليداً . على نفس الأرض . وفي ذات الظروف . وبدون حدوث انقلاب لا في الإنتاج وأدواته ! ولا في المادة وخواصها ! وإنما مجرد انقلاب في التصور هو الذي انبثق منه الميلاد الجديد .

وحقيقة أن المنهج القرآني قد كافح . وكافح طويلا لطمس ومحو معالم الجاهلية في النفوس والأوضاع ، وتخطيط وتثبيت المعالم الإسلامية في النفوس والأوضاع .. وحقيقة كذلك أن رواسب الجاهلية ظلت تقاوم ، وظلت تعاود الظهور في بعض الحالات الفردية ؛ أو تحاول أن تعبر عن نفسها في صور شتى . .

ولكن المهم هنا : هو أن المنهج المتنزل من السماء،والتصور الذي أنشأه هذا المنهج كذلك، هو الذي كان يكافح « الواقع المادي » ويعدله ويبدله . . ولم يكن قط أن الواقع المادي أو « النقيض » (١) الكامن فيه؛أو تبدل وسائل الإنتاج..أو شيء من هذا « الهوس الماركسي»! هو الذي اقتضى تغير التصورات ومناهج الحياة ، وأوضاعها ، لتلائم هذا التبدل الذي تفرضه وسائل الإنتاج !

كان هناك فقط شيء جديد واحد في حياة هذا الشعب .. شيء هبط عليه من الملأ الأعلى.. فاستجابت له نفوس ، لأنه يخاطب فيها وصيد الفطرة ، الذي أودعه الله فيها .. ومن ثم وقع هذا التغيير . بل تم هذا الميلاد الجديد للانسان . الميلاد الذي تغيرت فيه ملامح الحياة كلها .. في كل جانب من جوانبها .. عن الملامح المعهودة في الجاهلية !!

ومهما يكن هناك من صراع قد وقع بين الملامح الجديدة والملامح القديمة . ومهما يكن هناك من آلام للمخاض وتضحيات .. فقد تم هذا كله . لأن هناك رسالة علويـــة ؛ وتصوراً

---

(١) تعبير المادية الجدلية - الذي تفسر به التغيرات التاريخية !

اعتقاديا ؛ هو الذي كان له الأثر الأول والأثر الأخير في هذا الميلاد الجديد . الذي لم تقتصر موجته على المجتمع الإسلامي ؛ ولكن تعدته كذلك إلى المجتمع الإنساني كله [1] .

ومن ثم ينتهي هذا النص القرآني الذي يفتي فيه الله المؤمنين ، فيما يستفتون فيه الرسول ﷺ في أمر النساء ، وبقص عليهم حقوق اليتيمات ، وحقوق الولدان الضعاف .. ينتهي بربط هذه الحقوق وهذه التوجيهات كلها ، بالمصدر الذي جاء من عنده هذا المنهج :

« وما تفعلوا من خير فإن الله كان به عليما » .

فهو غير مجهول ، وهو غير ضائع .. وهو مسجل عند الله . ولن يضيع خير سجل عند الله .

وهذا هو المرجع الأخير الذي يعود اليه المؤمن بعمله ؛ والجهة الوحيدة التي يتعامل معها في نيته وجهده . وقوة هذا المرجع ، وسلطانه ، هي التي تجعل لهذه التوجيهات ولهذا المنهج قوته وسلطانه في النفوس ، وفي الأوضاع وفي الحياة .

إنه ليس المهم أن تقال توجيهات ، وأن تبتدع مناهج ؛ وأن تقام أنظمة .. إنما المهم هو السلطان الذي ترتكن اليه تلك التوجيهات والمناهج والأنظمة . السلطان الذي تستمد منه قوتها ونفاذها وفاعليتها في نفوس البشر .. وشتان بين توجيهات ومناهج ونظم يتلقاها البشر من الله ذي الجلال والسلطان ، وتوجيهات ومناهج ونظم يتلقونها من العبيد أمثالهم من البشر ! ذلك على فرض تساوي هذه وتلك في كل صفة أخرى وفي كل سمة ؛ وبلوغهما معاً أوجا واحداً — وهو فرض ظاهر الاستحالة . ألا إنه ليكفي أن أشعر ممن صدرت هذه الكلمة ، لأعطيها في نفسي ما تستحقه من مكان .. ولتفعل في نفسي ما تفعله كلمة الله العلي الأعلى . أو كلمة الإنسان ابن الإنسان !

***

ثم نمضي خطوة أخرى مع التنظيم الاجتماعي — في محيط الأسرة — في هذا المجتمع الذي كان الإسلام ينشئه ، بمنهج الله المتنزل من الملأ الأعلى ، لا بعوامل التغير الأرضية في عالم المادة أو دنيا الإنتاج :

« وإن امرأة خافت من بعلها نشوزاً أو إعراضا ، فلا جناح عليهما أن يصلحا بينهما صلحا.

---

(1) يراجع كتاب : « هذا الدين » . كذلك يراجع « في ظلال القرآن » تفسير سورة « عبس » الجزء الثلاثون .

والصلح خير . وأحضرت الأنفس الشح . وإن تحسنوا وتتقوا فإن الله كان بما تعملون خبيراً . ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء - ولو حرصتم - فلا تميلوا كل الميل ، فتذروها كالمعلقة . وإن تصلحوا وتتقوا فإن الله كان غفوراً رحيماً . وإن يتفرقا يغن الله كلا من سعته . وكان الله واسعاً حكيماً » .

لقد نظم المنهج - من قبل - حالة النشوز من ناحية الزوجة ؛ والإجراءات التي تتخذ للمحافظة على كيان الأسرة (وذلك في أوائل هذا الجزء) فالآن ينظم حالة النشوز والإعراض حين يخشى وقوعها من ناحية الزوج، فتهدد أمن المرأة وكرامتها، وأمن الأسرة كلها كذلك. إن القلوب تتقلب ، وان المشاعر تتغير . والإسلام منهج حياة يعالج كل جزئية فيها، ويتعرض لكل ما يعرض لها ؛ في نطاق مبادئه واتجاهاته ؛ وتصميم المجتمع الذي يرسمه وينشئه وفق هذا التصميم .

فإذا خشيت المرأة أن تصبح مجفوة ؛ وأن تؤدي هذه الجفوة إلى الطلاق - وهو أبغض الحلال إلى الله - أو إلى الإعراض ، الذي يتركها كالمعلقة . لا هي زوجة ولا هي مطلقة ، فليس هنالك حرج عليها ولا على زوجها، أن تتنازل له عن شيء من فرائضها المالية أو فرائضها الحيوية . كأن تترك له جزءاً أو كلا من نفقتها الواجبة عليه . أو أن تترك له قسمتها وليلتها، إن كانت له زوجة أخرى يؤثرها، وكانت هي قد فقدت حيويتها للعشرة الزوجية أو جاذبيتها . . هذا كله إذا رأت هي - بكامل اختيارها وتقديرها لجميع ظروفها - أن ذلك خير لها وأكرم من طلاقها :

« وإن إمرأة خافت من بعلها نشوزاً أو إعراضاً فلا جناح عليهما أن يصلحا بينهما صلحاً » . . هو هذا الصلح الذي أشرنا إليه . .

ثم يعقب على الحكم بأن الصلح إطلاقاً خير من الشقاق والجفوة والنشوز والطلاق :

« والصلح خير » . .

فينسم على القلوب التي دبت فيها الجفوة والجفاف ، نسمة من الندى والإيناس ، والرغبة في إبقاء الصلة الزوجية ، والرابطة العائلية .

إن الإسلام يتعامل مع النفس البشرية بواقعها كله . فهو يحاول - بكل وسائله المؤثرة - أن يرفع هذه النفس إلى أعلى مستوى تهيئها له طبيعتها وفطرتها . . ولكنه في الوقت ذاته لا يتجاهل حدود هذه الطبيعة والفطرة؛ ولا يحاول أن يقسرها على ما ليس في طاقتها ؛ ولا يقول للناس : أضربوا رؤوسكم في الحائط فأنا أريد منكم كذا والسلام ! سواء كنتم تستطيعونه أو

لا تستطيعونه !

إنه لا يهتف للنفس البشرية لتبقى على ضعفها وقصورها ؛ ولا ينشد لها أناشيد التمجيد وهي تتلبط في الوحل ، وتتمرغ في الطين ـ بحجة أن هذا واقع النفس ـ ! ولكنه كذلك لا يعلقها من رقبتها في حبل بالملأ الأعلى ، ويدعها تتأرجح في الهواء ؛ لأن قدميها غير مستقرين على الأرض . بحجة الرفعة والتسامي !

إنه الوسط .. إنه الفطرة . . إنه المثالية الواقعية . أو الواقعية المثالية .. إنه يتعامل مع الإنسان ، بما هو إنسان. والإنسان مخلوق عجيب . هو وحده الذي يضع قدميه على الأرض ؛ وينطلق بروحه إلى السماء . في لحظة واحدة لا تفارق فيها روحه جسده ؛ ولا ينفصل إلى جسد على الأرض وروح في السماء !

وهو هنا — في هذا الحكم — يتعامل مع هذا الانسان . وينص على خصيصة من خصائصه في هذا المجال :

« وأحضرت الأنفس الشح » .

أي أن الشح حاضر دائماً في الأنفس . وهو دائماً قائم فيها . الشح بأنواعه . الشح بالمال . والشح بالمشاعر . وقد تترسب في حياة الزوجين — أو تعرض — أسباب تستثير هذا الشح في نفس الزوج تجاه زوجته . فيكون تنازلها له عن شيء من مؤخر صداقها أو من نفقتها ـ إرضاء لهذا الشح بالمال ، تستبقي معه عقدة النكاح ! وقد يكون تنازلها عن ليلتها ـ إن كانت له زوجة أخرى أثيرة لديه — والاولى لم تعد فيها حيوية أو جاذبية إرضاء لهذا الشح بالمشاعر ، تستبقي معه عقدة النكاح ! والامر على كل حال متروك في هذا للزوجة وتقديرها لما تراه مصلحة لها . . لا يلزمها المنهج الرباني بشيء ؛ ولكنه فقط يجيز لها التصرف ، ويمنحها حرية النظر والتدبر في أمرها وفق ما تراه .

وفي الوقت الذي يتعامل المنهج الإسلامي مع طبيعة الشح هذه ، لا يقف عندها باعتبارها كل جوانب النفس البشرية . بل هو يهتف لها هتافاً آخر ، ويعزف لها نغمة أخرى :

« وإن تحسنوا وتتقوا فإن الله كان بما تعملون خبيراً » .

فالإحسان والتقوى هما مناط الأمر في النهاية . ولن يضيع منهما شيء على صاحبه ، فإن الله خبير بما تعمله كل نفس ؛ خبير ببواعثه وكوامنه .. والهتاف للنفس المؤمنة بالإحسان والتقوى ، والنداء لها باسم الله الخبير بما تعمل ، هتاف مؤثر، ونداء مستجاب .. بل هو وحده الهتاف المؤثر والنداء المستجاب .

ومرة أخرى تجدنا أمام المنهج الفريد ، وهو يواجه واقع النفس البشرية وملابسات الحياة البشرية ، بالواقعية المثالية ، أو المثالية الواقعية ، ويعترف بما هو كامن في تركيبها من ازدواج عجيب فريد :

« ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ـ ولو حرصتم ـ فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة . وإن تصلحوا وتتقوا فإن الله كان غفوراً رحيما . وإن يتفرقا يغن الله كلا من سعته وكان الله واسعا حكيما » .

إن الله الذي فطر النفس البشرية ، يعلم من فطرتها أنها ذات ميول لا تملكها . ومن ثم أعطاها لهذه الميول خطاماً . خطاما لينظم حركتها فقط ، لا ليعدمها ويقتلها !

من هذه الميول أن يميل القلب البشري إلى إحـــدى الزوجات ويؤثرها على الأخريات . فيكون ميله إليها أكثر من الأخرى أو الأخريات . وهذا ميل لا حيلة له فيه ؛ ولا يملك محوه أو قتله .. فماذا ؟ إن الإسلام لا يحاسبه على أمر لا يملكه ؛ ولا يجعل هذا إثماً يعاقبه عليه ؛ فيدعه موزعاً بين ميل لا يملكه وأمر لا يطيقه ! بل إنه يصارح الناس بأنهم لن يستطيعوا أن يعدلوا بين النساء ـ ولو حرصوا ـ لأن الأمر خارج عن إرادتهم.. ولكن هنالك ما هو داخل في إرادتهم . هناك العدل في المعاملة . العدل في القسمة . العدل في النفقة. العدل في الحقوق الزوجية كلها ، حتى الابتسامة في الوجه ، والكلمة الطيبة باللسان .. وهذا ما هم مطالبون به . هذا هو الخطام الذي يقود ذلك الميل . لينظمه لا ليقتله !

« فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة » ..

فهذا هو المنهي عنه . الميل في المعاملة الظاهرة ، والميل الذي يحرم الأخرى حقوقهـــا فلا تكون زوجة ولا تكون مطلقة .. ومعه الهتاف المؤثر العميق في النفوس المؤمنة ؛ والتجاوز عما ليس في طاقة الانسان .

« وإن تصلحوا وتتقوا فإن الله كان غفوراً رحيما » .

ولأن الإسلام يتعامل مع النفس البشرية بجملة ما فيها من مزاج فريد مؤلف من القبضة من الطين والنفخة من روح الله . وبجملة ما فيها من استعدادات وطاقات . وبواقعيتها المثالية، أو مثاليتها الواقعية ، التي تضع قدميها على الأرض ، وترف بروحها إلى السماء ، دون تناقض ودون انفصام ..

لأن الإسلام كذلك .. كان نبي الإسلام ﷺ هو الصورة الكاملة للانسانية حين تبلـــغ أوجها من الكمال ؛ فتنمو فيها جميع الخصائص والطاقات نمواً متوازناً متكاملا في حـــدود

فطرة الإنسان .

وكان هذا الرسول ﷺ وهو يقسم بين نسائه فيما يملك ، ويعدل في هذه القسمة ، لا ينكر أنه يؤثر بعضهن على بعض . وأن هذا خارج عما يملك . فكان يقول : « اللهم هذا قسمي فيما أملك فلا تلمني فيما تملك ولا أملك » يعني القلب (أخرجه أبو داود) ..

فأما حين تجف القلوب ، فلا تطيق هذه الصلة ؛ ولا يبقى في نفوس الزوجين ما تستقيم معه الحياة ؛ فالتفرق إذن خير . لأن الإسلام لا يمسك الأزواج بالسلاسل والحبال ، ولا بالقيود والأغلال ؛ إنما يمسكهم بالمودة والرحمة ؛ أو بالواجب والتجمل . فإذا بلغ الحال أن لا تبلغ هذه الوسائل كلها علاج القلوب المتنافرة ؛ فإنه لا يحكم عليها أن تقيم في سجن من الكراهية والنفرة ؛ أو في رباط ظاهري وانفصام حقيقي !

« وإن يتفرقا يغن الله كلا من سعته . وكان الله واسعا حكيما » .

فالله يعد كلا منهما أن يغنيه من فضله هو ، ومما عنده هو ؛ وهو — سبحانه — يسع عباده ويوسع عليهم بما يشاء في حدود حكمته وعلمه بما يصلح لكل حال .

إن دراسة هذا المنهج ، وهو يعالج مشاعر النفوس ، وكوامن الطباع ، وأوضاع الحياة في واقعيتها الكلية .. تكشف عن عجب لا ينقضي ، من تنكر الناس لهذا المنهج .. هذا المنهج الميسر ، الموضوع للبشر ، الذي يقود خطاهم من السفح الهابط ، في المرتقى الصاعد ، إلى القمة السامقة ؛ وفق فطرتهم واستعداداتهم ؛ ولا يفرض عليهم أمرا من الارتقاع والتسامي ، إلا وله وتر في فطرتهم يوقع عليه ؛ وله استعداد في طبيعتهم يستجيشه ؛ وله جذر في تكوينهم يستنبته . ثم هو يبلغ بهم — بعد هذا كله — إلى ما لا يبلغه بهم منهج آخر .. في واقعية مثالية . أو مثالية واقعية . . هي صورة طبق الأصل من تكوين هذا الكائن الفريد [1] .

***

ولأن هذه الاحكام الخاصة بتنظيم الحياة الزوجية ، قطاع من المنهج الرباني لتنظيم الحياة كلها ؛ ولأن هذا المنهج بجملته قطاع من الناموس الكوني ، الذي أراده الله الكون كله ، فهو يتوافق مع فطرة الله للكون ؛ وفطرة الله للانسان ، الذي يعيش في هذا الكون .. لأن هذه هي الحقيقة العميقة في هذا المنهج الشامل الكبير ، يجيء في سياق السورة بعد الأحكام الخاصة

---

(1) يراجع كتاب : (هذا الدين) وفصل (الواقعية) في كتاب : (خصائص التصور الاسلامي) .

بتنظيم الاسرة ، ما يربطها بالنظام الكوني كله ؛ وسلطان الله في الكون كله ، وملكية الله للكون كله . ووحدة الوصية التي وصى الله بها الناس في كتبه كلها ؛ وثواب الدنيا وثواب الآخرة .. وهي القواعد التي يقوم عليها المنهج كله . قواعد الحق والعدل والتقوى :

« ولله ما في السماوات وما في الأرض . ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإياكم : أن اتقوا الله . وإن تكفروا فإن لله ما في السماوات وما في الأرض وكان الله غنياً حميدا ، ولله ما في السماوات وما في الأرض وكفى بالله وكيلا . إن يشأ يذهبكم — أيها الناس — ويأت بآخرين . وكان الله على ذلك قديرا . من كان يريد ثواب الدنيا فعند الله ثواب الدنيا والآخرة . وكان الله سميعا بصيرا » .

ويكثر في القرآن التعقيب على الأحكام ، وعلى الأوامر والنواهي بأن لله ما في السماوات وما في الأرض ؛ أو بأن لله ملك السماوات والأرض . فالأمران متلازمان في الحقيقة . فالمالك هو صاحب السلطان في ملكه ؛ وهو صاحب حق التشريع لمن يحتويهم هذا الملك . والله وحده هو المالك ، ومن ثم فهو وحده صاحب السلطان الذي يشرع به للناس . فالأمران متلازمان .

كذلك يبرز هنا من وصية الله — سبحانه — لكل من أنزل عليهم كتابا .. الوصية بالتقوى ، وذلك بعد تعيين من له ملكية السماوات والأرض ، ومن له حق الوصية في ملكه:

« ولله ما في السماوات وما في الأرض . ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإياكم أن اتقوا الله » ..

فصاحب السلطان الحقيقي هو الذي يُخشى ويُخاف . وتقوى الله هي الكفيلة بصلاح القلوب ، وحرصها على منهجه في كل جزئياته .

كذلك يبين لمن يكفرون ضآلة شأنهم في ملك الله ؛ وهوان أمرهم عليه سبحانه ؛ وقدرته على الذهاب بهم والمجيء بغيرهم :

« وإن تكفروا فإن لله ما في السماوات وما في الأرض . وكفى بالله وكيلا . إن يشأ يذهبكم — أيها الناس — ويأت بآخرين . وكان الله على ذلك قديرا » ..

فهو — سبحانه — إذ يوصيهم بتقواه ، لا يعنيه في شيء ولا يضره في شيء ألا يسمعوا الوصية ، وأن يكفروا . فإن كفرهم لن ينقص من ملكه شيئاً .. « فإن لله ما في السماوات وما في الأرض » وهو قادر على أن يذهب بهم ويستبدل قوماً غيرهم ، إنما هو يوصيهم بالتقوى لصلاحهم هم ، ولصلاح حالهم .

وبقدر ما يقرر الإسلام كرامة الإنسان على الله ؛ وتكريمه على كل ما في الأرض ، وكل

من في الكون .. بقدر ما يقرر هوانه على الله حين يكفر بـه ، ويعتو ويتجبر ، ويدعي خصائص الألوهية بغير حق .. فهذه كفـاء تلك في التصور الإسلامي ، وفي حقيقة الأمر والواقع كذلك ..

ويختم هذا التعقيب بتوجيه القلوب الطامعة في الدنيا وحدها ، إلى أن فضل الله أوسع .. فعنده ثواب الدنيا والآخرة .. وفي استطاعة الذين يقصرون همهم على الدنيـا ، أن يتطلعوا بأنظارهم وراءها ؛ وأن يأملوا في خير الدنيا وخير الآخرة .

« ومن كان يريد ثواب الدنيا ، فعند الله ثواب الدنيا والآخرة . وكان الله سميعـا بصيرا » . . وإنه ليكون من الحمق ، كما يكون من سقوط الهمة ، أن يملك الإنسان التطلع إلى الدنيا والآخرة معاً ؛ وإلى ثواب الدنيا وثواب الآخرة جميعاً — وهذا مـا يكفله المنهج الإسلامي المتكامل الواقعي المثالي — ثم يكتفي بطلب الدنيا ، ويضع فيها همـه ؛ ويعيش كالحيوان والدواب والهوام ؛ بينما هو يملك أن يعيش كالإنسان ! قدم تدب على الأرض وروح ترف في السماء . وكيان يتحرك وفق قوانين هذه الارض ؛ ويملك في الوقت ذاتـه أن يعيش مع الملأ الأعلى !

وأخيرا فإن هذه التعقيبات المتنوعة — كما تدل على الصلة الوثيقة بين الأحكام الجزئية في شريعة الله والمنهج الكلي للحياة — تدل في الوقت ذاتـه على خطورة شأن الأسرة في حساب الإسلام . حتى ليربطها بهذه الشؤون الكبرى ؛ ويعقب عليها بوصية التقوى الشاملة للأديان جميعاً ؛ وإلا فالله قادر على أن يذهب بالناس ويأتي بغيرهم يتبعون وصيته؛ويقيمون شريعته.. وهو تعقيب خطير . يـدل على أن أمر الأسرة كذلك خطير في حساب الله . وفي منهجه للحيـاة ..

« يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِٱلْقِسْطِ ، شُهَـدَاءَ لِلَّهِ — وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ ، أَوِ ٱلْوَالِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ — إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيراً فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا . فَلَا تَتَّبِعُوا ٱلْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا ، وَإِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً » (١٣٥) .

« يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ، وَٱلْكِتَابِ ٱلَّذِي نَزَّلَ

عَلَى رَسُولِهِ ، وَٱلْكِتَابِ ٱلَّذِي أَنزَلَ مِنْ قَبْلُ . وَمَنْ يَكْفُرْ بِٱللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ ، فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيداً »(١٣٦).

« إِنَّ ٱلَّذِينَ آمَنُوا ، ثُمَّ كَفَرُوا ، ثُمَّ آمَنُوا ، ثُمَّ كَفَرُوا ، ثُمَّ ٱزْدَادُوا كُفْراً ، لَمْ يَكُنِ ٱللهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ ، وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا »(١٣٧).

« بَشِّرِ ٱلْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً (١٣٨) ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ، أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ ٱلْعِزَّةَ ؟ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلهِ جَمِيعاً (١٣٩) وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ ٱللهِ يُكْفَرُ بِهَا ، وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا ، فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ . إِنَّكُمْ إِذاً مِثْلُهُمْ . إِنَّ ٱللهَ جَامِعُ ٱلْمُنَافِقِينَ وَٱلْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعاً (١٤٠) ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ . فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ ٱللهِ قَالُوا : أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ ، وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا : أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُمْ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ؟ فَٱللهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ . وَلَنْ يَجْعَلَ ٱللهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا (١٤١) إِنَّ ٱلْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ ٱللهَ ـ وَهُوَ خَادِعُهُمْ ـ وَإِذَا قَامُوا إِلَى ٱلصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ ٱلنَّاسَ ، وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللهَ إِلَّا قَلِيلًا (١٤٢) مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَا إِلَى هَٰؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَٰؤُلَاءِ ، وَمَنْ يُضْلِلِ ٱللهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا »(١٤٣).

« يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا ٱلْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ . أَتُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا (١٤٤) إِنَّ ٱلْمُنَافِقِينَ فِي ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ ، وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا (١٤٥) إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا ، وَٱعْتَصَمُوا بِٱللَّهِ ، وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ ، فَأُولَـٰئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ، وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا (١٤٦) مَا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ ؟ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا » (١٤٧) .

هذا الدرس حلقة من سلسلة التربية المنهجية ، التي تولتها يد الرعاية الإلهية ، لإخراج الأمة التي قال الله فيها : « كنتم خير أمة أخرجت للناس » .. وهي حلقة من المنهج الثابت المطرد الخطو ، المرسوم الأهداف لمعالجة النفس البشرية بالدواء الذي صنعه صانع هـذه النفس — سبحانه — الخبير بدروبها ومنحنياتها ، البصير بطبيعتها وحقيقتها، العليم بضروراتها وأشواقها، وبمقدراتها وطاقاتها ..

وهذه الحلقة كما ترسم قواعد المنهج واتجاهاته الثابتة ، الموضوعة للناس جميعاً ، في أجيالهم كلها ، لترفعهم من سفوح الجاهلية — حسب مكانهم في الدرج — وتعرج بهم في المرتقى الصاعد، إلى القمة السامقة .. هي كذلك — في الوقت ذاته — ترتسم فيها حال الجماعة المسلمة الأولى ، المخاطبة بهذا القرآن ؛ وتبرز من بين السطور صورة لهذه الجماعة إذ ذاك — كما هي — بكل ما فيها من بشرية . وبكل ما في بشريتها من ضعف وقـوة ؛ ومن رواسب جاهلية ومشاعر فطرية .. وتبرز كذلك طريقة المنهج في علاجها وتقويتها وتثبيتها على الحق الذي تمثله ؛ بكل ما في وقفتها مع الحق من جهد وتضحية .

ويبدأ الدرس بنداء الجماعة المؤمنة إلى النهوض بتكاليف دورها، في إقامة العدل بين الناس على النحو الفريد الذي لم يقم إلا على يد هذه الجماعة — العدل الذي تتعامل فيه الجماعة مع الله مباشرة ؛ متخلصة من كل عاطفة أو هوى أو مصلحة — بما في ذلك ما يسمى مصلحة الجماعة أو الأمة أو الدولة ! — متجردة من كل اعتبار آخر غير تقوى الله ومرضاته .. العدل الذي رأينا

نموذجاً منه في الدرس العملي الذي ألقاه الله – سبحانه – بذاته العلية على النبي ﷺ وعلى الجماعة المسلمة في حادث اليهودي الذي سلف ذكره .

يبدأ الدرس بنداء الذين آمنوا ليقيموا هذا العدل .. بصورته هذه . . ومنزل هذا القرآن يعلم حقيقة المجاهدة الشاقة ، التي تتكلفها إقامة العدل على هذا النحو . وفي النفس البشرية ضعفها المعروف ، وعواطفها تجاه ذاتها وتجاه الأقارب ؛ وتجاه الضعاف من المتقاضين . وتجاه الأقوياء أيضا . تجاه الوالدين والأقربين ، وتجاه الفقير والغني ؛ تجاه المودة وتجاه الشنآن .. ويعلم أن التجرد من هذا كله يحتاج إلى جهاد شاق . جهاد للصعود إلى هذه القمة على سفوح ملساء ! لا تتعلق فيها النفس بشيء إلا بحبل الله .

ثم يدعوهم دعوة ثانية إلى الإيمان بعناصر الإيمان الشامل . بالله وملائكته و كتبه ورسله واليوم الآخر . ولكل عنصر من هذه العناصر قيمته في تكوين العقيدة الإيمانية ؛ وقيمته في تكوين التصور الإسلامي ، المتفوق على جميع التصورات الأخرى ، التي عرفتها البشرية – قبل الإسلام وبعده – وهو ذاته التفوق الذي انبعث منـــه كل تفوق آخر أخلاقي أو اجتماعي أو تنظيمي ، في حياة الجماعة المسلمة الأولى . والذي يحمل عنصر التفوق دائماً لكل جماعة تؤمن به حقاً وتعمل بمقتضياته كاملة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها . حيث تحق كلمة الله – في هذا الدرس نفسه – « ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً » ..

وبعد هذين النداءين يأخذ السياق في حملة منوعة الأساليب على المنافقين – من بقي منهم على حالة النفاق ، ومن أعلن كفره بعد إعلان إسلامه – حملة يصور فيها طبيعة المنافقين ، ويرسم لهم فيها صوراً زرية ، من واقع ما يقومون به في الصف المسلم ؛ ومن واقع مواقفهم المتلونة حسب الظروف . وهم يلقون المسلمين – إذا انتصروا – بالملق والنفاق . ويلقون الذين كفروا – إذا انتصروا كذلك – بدعواهم أنهم سبب انتصارهم ! وهم يقومون للصلاة كسالى يراءون الناس . وهم مذبذبون بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء .

وترد في ثنايا هذه الحملة توجيهات للمؤمنين وتحذيرات . تدل على مدى ما كان لأفاعيـــل المنافقين في الصف المسلم – حينذاك – من آثار ، وعلى مدى ضخامة الجبهة المنافقة وتغلغلها في حياة الجماعة المسلمة ؛ مما استدعى هذه الحملة ، مع مراعاة « الواقع » يومئذ ، وأخذ المسلمين خطوة خطوة في الابتعاد عن المنافقين واجتنابهم . من ذلك أمرهم باجتناب مجالس المنافقين التي يتداولون فيها الكفر بآيات الله والاستهزاء بها ، ولم يأمرهم – حينذاك – بمقاطعة المنافقين البتة . مما يدل على أن جبهة النفاق كانت ضخمة ومتغلغلة بصورة يصعب فيها على المسلمين مقاطعتهم !

كذلك ترد في ثناياها تحذيرات للمسلمين من سمات النفاق ومقدماته ؛ كي لا يقعوا فيها ، وأخصها موالاة الكافرين ، وابتغاء العزة عندهم ، والقوة بهم ! وتأمينهم بأن العزة لله جميعاً ، وبأن الله لن يجعل للكافرين على المؤمنين سبيلا ، وذلك مع رسم الصور البشعة للمنافقين في الدنيا وفي الآخرة . وتقرير أن مكانهم في الدرك الأسفل من النار .

وهذه التوجيهات والتحذيرات — بهذا الأسلوب — تشي بطريقة المنهج في علاج النفوس والاوضاع ؛ وتغيير الواقع في حدود الطاقة والملابسات القائمة كذلك ، حتى ينتهي إلى تغييره نهائياً ؛ وإقامة « واقع » آخر جديد . كما تشي بحالة الجماعة المسلمة حينذاك وموقفها من جبهة الكفر وجبهة النفاق المتعاونتين في حرب الجماعة المسلمة والدين الجديد .

ومن خلال هذه وتلك تتبين طبيعة المعركة التي كان القرآن يخوض بها الجماعة المسلمة ، وطبيعة الاساليب المنهجية في قيادته للمعركة والنفوس .. وهي المعركة الدائمة المتصلة بين الإسلام والجاهلية في كل زمان وكل مكان. وبين الجماعة المسلمة وأعدائها الذين تتغير أشخاصهم ووسائلهم ولكن لا تتغير طبيعتهم ومبادئهم .

ومن خلال هذا كله تبرز حقيقة هذا الكتاب. القرآن .. ودوره في قيادة الأمة المسلمة. ليس بالأمس فقط — فما جاء ليقود جيلا دون جيل . إنما جاء ليقود هذه الأمة ، وليكون مرشدها وهاديها ، في جميع الأجيال والدهور ..

وفي نهاية الدرس تجيء تلك اللفتة العجيبة إلى استغناء الله — سبحانه — عن تعذيب العباد.. فهو لا يطلب منهم إلا أن يؤمنوا ويشكروا . وهو سبحانه غني عن إيمانهم وشكرهم. ولكن ذلك إنما هو لصلاح حالهم ، وارتقاء مستواهم ؛ حتى يتأهلوا لحياة الآخرة ، ومستوى النعيم في الجنة . فإذا هم ارتكسوا وانتكسوا فإنما يؤهلون أنفسهم لمستوى العذاب في الجحيم . حيث يسقط المنافقون إلى أحط الدركات « في الدرك الأسفل من النار » ..

★ ★ ★

« يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله — ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين — إن يكن غنيا أو فقيراً فالله أولى بهما ؛ فلا تتبعوا الهوى أن تعدلو . وإن تلووا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيرا » ..

إنه نداء للذين آمنوا . نداء لهم بصفتهم الجديدة . وهي صفتهم الفريدة . صفتهم التي بها أنشئوا نشأة أخرى ؛ وولدوا ميلاداً آخر . ولدت أرواحهم ، وولدت تصوراتهم ، وولدت

مبادئهم وأهدافهم ؛ وولدت معهم المهمة الجديدة التي تناط بهم ، والأمانة العظيمة التي وكلت إليهم . أمانة القوامة على البشرية ، والحكم بين الناس بالعدل . . ومن ثم كان النداء بهذه الصفة قيمته وكان له معناه : « يا أيها الذين آمنوا . . . » فبسبب من اتصافهم بهذه الصفة ، كان التكليف بهذه الأمانة الكبرى . وبسبب من اتصافهم بهذه الصفة كان التهيؤ والاستعداد للنهوض بهذه الأمانة الكبرى . .

وهي لمسة من لمسات المنهج التربوي الحكيم ؛ تسبق التكليف الشاق الثقيل :

« كونوا قوامين بالقسط ، شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين . إن يكن غنيا أو فقيرا فالله أولى بهما » . .

إنها أمانة القيام بالقسط . . بالقسط على إطلاقه . في كل حال وفي كل مجال . القسط الذي يمنع البغي والظلم — في الأرض — والذي يكفل العدل — بين الناس — والذي يعطي كل ذي حق حقه من المسلمين وغير المسلمين . . ففي هذا الحق يتساوى عند الله المؤمنون وغير المؤمنين — كما رأينا في قصة اليهودي — ويتساوى الأقارب والأباعد . ويتساوى الأصدقاء والأعداء . ويتساوى الأغنياء والفقراء . .

« كونوا قوامين بالقسط ، شهداء لله » . .

حسبة لله . وتعاملا مباشرا معه . لا لحساب أحد من المشهود لهم أو عليهم . ولا لمصلحة فرد أو جماعة أو أمة . ولا تعاملا مع الملابسات المحيطة بأي عنصر من عناصر القضية . ولكن شهادة لله ، وتعاملا مع الله . وتجردا من كل ميل ، ومن كل هوى ، ومن كل مصلحة ، ومن كل اعتبار .

« ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين » . .

وهنا يحاول المنهج تجنيد النفس في وجه ذاتها ، وفي وجه عواطفها ، تجاه ذاتها أولا ، وتجاه الوالدين والأقربين ثانياً . . وهي محاولة شاقة . . أشق كثيراً من نطقها باللسان ، ومن إدراك معناها ومدلولها بالعقل . . إن مزاولتها عملياً شيء آخر غير إدراكها عقلياً . ولا يعرف هذا الذي نقوله إلا من يحاول أن يزاول هذه التجربة واقعياً . . ولكن المنهج يجند النفس المؤمنة لهذه التجربة الشاقة . لأنها لا بد أن توجد . لا بد أن توجد في الأرض هذه القاعدة . ولا بد أن يقيمها ناس من البشر .

ثم هو يجند النفس كذلك في وجه مشاعرها الفطرية أو الاجتماعية ، حين يكون المشهود له أو عليه فقيراً ، تشفق النفس من شهادة الحق ضده ، وتود أن تشهد له معاونة لضعفه . أو

من يكون فقره مدعاة للشهادة ضده بحكم الرواسب النفسية الاجتماعية كما هو الحال في المجتمعات الجاهلية . وحين يكون المشهود له أو عليه غنيا ، تقتضي الأوضاع الاجتماعية مجاملته . أو قد يثير غناه وتبطره النفس ضده فتحاول أن تشهد ضـــده ! وهي مشاعر فطرية أو مقتضيات اجتماعية لها ثقلها حين يواجهها الناس في عالم الواقع .. والمنهج يجند النفس تجاههـــا كذلك كما جندها تجاه حب الذات ، وحب الوالدين والأقربين .

« إن يكن غنياً أو فقيراً فالله أولى بهما » ..

وهي محاولة شاقة .. ولا نفتأ نكرر أنها محاولة شاقة .. وإن الاسلام حين دفـع نفوس المؤمنين – في عالم الواقـع – إلى هذه الذروة، التي تشهد بها تجارب الواقع التي وعاها التاريخ – كان ينشيء معجزة حقيقية في عالم البشرية . معجزة لا تقع إلا في ظل هـــذا المنهج الإلهي العظيم القويم .

« فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا » ..

والهوى صنوف شتى ذكر منها بعضها . حب الذات هوى . وحب الأهـل والأقربين هوى . والعطف على الفقير – في موطن الشهادة والحكم – هوى . ومجاملة الغني هوى . ومضارته هوى . والتعصب للعشيرة والقبيلة والأمة والدولة والوطن – في موضع الشهادة والحكم هوى. وكراهة الأعداء لو كانوا أعـــداء الدين – في موطن الشهادة والحكم – هوى .. وأهواء شتى الصنوف والألوان .. كلها مما ينهى الله الذين آمنوا عن التأثر بها ، والعدول عن الحق والصدق تحت تأثيرها .

وأخيراً يجيء التهديد والإنذار والوعيـــد من تحريف الشهادة ، والإعراض عن هذا التوجيه فيها ..

« وإن تلووا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيرا » . .

ويكفي أن يتذكر المؤمن أن الله خبير بما يعمل ، ليستشعر مـاذا وراء هذا من تهديد خطير ، يرتجف له كيانه .. فقد كان الله يخاطب بهذا القرآن المؤمنين !

حدث أن عبد الله بن رواحة – رضي الله عنه – لما بعثه رسول الله ﷺ يقدر على أهـــل خيبر محصولهم من الثمار والزروع لمقاسمتهم إياها مناصفة ، حسب عهد رسول الله ﷺ بعد فتح خيبر . أن حاول اليهود رشوته ليرفق بهم ! فقال لهم : « والله لقـــد جئتكم من عند أحب الخلق إلي . ولأنتم والله أبغض إلي من أعدادكم من القردة والخنازير . ومـــا يحملني حبي إياه وبغضي لكم ، على أن لا أعدل فيكم » . . فقالوا : بهذا قامت السماوات والأرض !

لقد كان ـ رضي الله عنه ـ قد تخرج في مدرسة الرسول ﷺ على المنهج الرباني المتفرد.. وكان إنسانا من البشر خاض هذه التجربة الشاقة ونجح ؛ وحقق ـ كما حقق الكثيرون غيره في ظل ذلك المنهج ـ تلك المعجزة التي لا تقع إلا في ظل ذلك المنهج !

ولقد مضت القرون تلو القرون بعد تلك الفترة العجيبة ؛ وحفلت المكتبات بكتب الفقه والقانون ؛ وحفلت الحياة بالتنظيمات والتشكيلات القضائية ؛ وضبط الإجراءات والشكليات التنظيمية . وامتلأت الرؤوس بالكلام عن العدالة ؛ وامتلأت الأفواه بالحديث عن إجراءاتها الطويلة . ووجدت نظريات وهيئات وتشكيلات منوعة لضبط هذا كله ..

ولكن التذوق الحقيقي لمعنى العدالة ؛ والتحقق الواقعي لهذا المعنى في ضمائر الناس وفي حياتهم ؛ والوصول إلى هذه الذروة السامقة الوضيئة .. لم يقع إلا في ذلك المنهج .. في تلك الفترة العجيبة في ذروة القمة .. وبعدها على مدار التاريخ في الأرض التي قام فيها الإسلام. وفي القلوب التي عمرت بهذه العقيدة . وفي الجماعات والأفراد التي تخرجت على هذا المنهج الفريد !

وهذه حقيقة ينبغي أن يتنبه اليها الذين يؤخذون بالتشكيلات القضائية التي وجدت ؛ وبالإجراءات القضائية التي استحدثت ؛ وبالأنظمة والأوضاع القضائية التي نمت وتعقدت . فيحسبون أن هذا كله أقمن بتحقيق العدالة وأضمن مما كان في تلك الإجراءات البسيطة في تلك الفترة الفريدة ! في تلك القرون البعيدة ! وأن الأمور اليوم أضبط وأحكم مما كانت على صورتها البسيطة !

هذا وهم تنشئه الأشكال والأحجام في تصورات من لا يدركون حقائق الأشياء والأوضاع. إن المنهج الرباني وحده هو الذي يبلغ بالناس ما بلغ على بساطة الأشكال وبساطة الأوضاع .. وهو وحده الذي يمكن أن يبلغ بالناس هذا المستوى على ما استحدث من الأشكال والأوضاع !

وليس معنى هذا أن نلغي التنظيمات القضائية الجديدة. ولكن معناه أن نعرف أن القيمة ليست للتنظيمات . ولكن للروح التي وراءها . أيا كان شكلها وحجمها وزمانها ومكانها .. والفضل للأفضل بغض النظر عن الزمان والمكان !!

* * *

« يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله ، والكتاب الذي نزل على رسوله ، والكتاب

الذي أنزل من قبل . . ومن يكفر بالله وملائكته و كتبه ورسله واليوم الآخر .. فقد ضل ضلالا بعيدا » ..

إنه النداء الثاني للذين آمنوا . بصفتهم هذه التي تفردهم من الجاهلية حولهم . وتحـــدد وظيفتهم وتـكاليفهم وتصلهم بالمصدر الذي يستمدون منه القوة والعون على هذه التـكاليف !

« يا أيهـا الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله ، والكتاب الذي نزل على رسوله ، والكتاب الذي أنزل من قبل » ..

فهو بيان لعناصر الإيمان التي يجب أن يؤمن بها الذين آمنوا . بيـــان للتصور الإسلامي الاعتقادي :

فهو إيمان بالله ورسوله . يصل قلوب المؤمنين بربهم الذي خلقهم ، وأرسل اليهم من يهديهم اليه ، وهو الرسول ﷺ وإيمان برسالة الرسول وتصديقه في كل ما ينقـــله لهم عن ربهم الذي أرسله .

وهو إيمان بالكتاب الذي نزل على رسوله . يربطهم بالمنهج الذي اختاره الله لحياتهم وبينه لهم في هذا الكتاب ؛ والأخذ بكل ما فيه ، بما أن مصدره واحد ، وطريقه واحد ؛ وليس بعضه بأحق من بعضه بالتلقي والقبول والطاعة والتنفيذ .

وهو إيمان بالكتاب الذي أنزل من قبل . بما أن مصدر الكتب كلها واحـــد هو الله ؛ وأساسها كذلك واحد هو إسلام الوجه لله ؛ وإفراد الله سبحانه بالألوهية — بكل خصائصها — والإقرار بأن منهج الله وحده هو الذي تجب طاعته وتنفيذه في الحياة .. وهـذه الوحدة هي المقتضى الطبيعي البديهي لكون هذه الكتب ـ قبل تحريفها ـ صادرة كلها عن الله . ومنهج الله واحد ، وإرادته بالبشر واحدة ، وسبيله واحد ، تتفرق السبل من حولها وهي مستقيمة اليه واصلة .

والإيمان بالكتاب كله — بوصف أن الكتب كلها كتاب واحد في الحقيقة ـ هو السمة التي تتفرد بها هذه الأمة المسلمة . لأن تصورها لربها الواحد ، ومنهجه الواحد ، وطريقـــه الواحد ، هو التصور الذي يستقيم مع حقيقة الإلوهية . ويستقيم مع وحدة البشرية . ويستقيم مع وحـــدة الحق الذي لا يتعدد .. والذي ليس وراءه إلا الضلال « فماذا بعدد الحق إلا الضلال ؟ » .

وبعد الأمر بالإيمان ، يجيء التهديد على الكفر بعناصر الإيمان ، مع التفصيل فيهـا في موضع البيان قبل العقاب :

« ومن يكفر بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر ، فقد ضل ضلالا بعيداً » ..

وقد ذكر في الأمر الأول الإيمان بالله وكتبه ورسله . ولم يذكر الملائكة . وكتب الله تتضمن ذكر الملائكة وذكر اليوم الآخر ، ومن مقتضى الإيمان بهذه الكتب الإيمان بالملائكة وباليوم الآخر . ولكنه يبرزها هنا ، لأنه موطن الوعيد والتهديد ، الذي يبين فيه كل عنصر على التحديد .

والتعبير بالضلال البعيد غالباً يحمل معنى الإبعاد في الضلال ، الذي لا يرجى معه هدى ، ولا يرتقب بعده مآب !

والذي يكفر بالله الذي تؤمن به الفطرة في أعماقها كحركة ذاتية منها واتجـــاه طبيعي فيها ، ويكفر بملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، استمدادا من كفره بالحقيقة الأولى .. الذي يكفر هذا الكفر تكون فطرته قد بلغت من الفساد والتعطل والخراب ، الحد الذي لا يرجى معه هدى ؛ ولا يرتقب بعده مآب !

* * *

وبعد هذين النداءين للذين آمنوا يأخذ السياق في الحملة على النفاق والمنافقين . ويبدأ بوصف حالة من حالاتهم الواقعة حينذاك ، تمثل موقف بعضهم ، وهو أقرب المواقف إلى الحديث عن الكفر والكفار :

« إن الذين آمنوا ثم كفروا . ثم آمنوا ثم كفروا . ثم ازدادوا كفرا . لم يكن الله ليغفر لهم ، ولا ليهديهم سبيلا » ..

إن الكفر الذي يسبق الإيمان يغفره الإيمان ويمحوه . فالذي لم يشهد النور معذور إذا هو أدلج في الظلام .. فأما الكفر بعد الإيمان . مرة ومرة .. فهو الكبيرة التي لا مغفرة لها ولا معذرة .. إن الكفر حجاب فمتى سقط فقد اتصلت الفطرة بالخالق . واتصل الشارد بالركب . واتصلت النبتة بالنبع . وذاقت الروح تلك الحلاوة التي لا تنسى .. حلاوة الإيمان . . فالذين يرتدون بعد الإيمان مرة ومرة ، إنما يفترون على الفطرة ، عن معرفة . ويلجون في الغواية عن عمد . ويذهبون مختارين إلى التيه الشارد والضلال البعيد ..

فعدل ألا يغفر الله لهم ؛ وعدل ألا يهديهم سبيلا ؛ لأنهم هم الذين أضاعوا السبيل بعـــد

ما عرفوه وسلكوه . وهم الذين اختاروا السيئة والعمى ، بعدما هدوا إلى المثابة والنور ..

* * *

وإذا لم تتجرد النفس لله، لم تتحرر أبداً من ضغط القيم والأوضاع،والضرورات والمصالح، والحرص والشح . ولم ترتفع أبداً على المصالح والمغانم ، والمطامع والمطامح. ولم تستشعر أبداً تلك الطلاقة والكرامة والاستعلاء التي يحسها القلب المملوء بالله ، أمام القيم والأوضاع ، وأمام الأشخاص والأحداث ، وأمام القوى الأرضية والسلطان وأصحاب السلطان ..

ومن هنا تبذر بذرة النفاق .. وما النفاق في حقيقته إلا الضعف عن الإصرار على الحق في مواجهة الباطل . وهذا الضعف هو ثمرة الخوف والطمع ، وتعليقهما بغير الله ؛ وثمرة التقيد بملابسات الأرض ومواضعات الناس ، في عزلة عن منهج الله للحياة .

فهناك مناسبة في السياق بين الحديث عن الإيمان بالله ، والتجرد في القيام بالشهادة له ، وبين الحديث عن النفاق — إلى جانب المناسبة العامة ، التي يكونها موضوع السورة الأصيل ، وهو تربية الجماعة المسلمة بمنهج الإسلام ؛ ومعالجة الرواسب الباقية من الجاهلية ؛ وتعبئة النفوس كذلك ضد الضعف البشري الفطري .. ثم خوض المعركة — بهذه الجماعة — مع المشركين من حواليها ، ومع المنافقين فيها . والسياق متصل في هذا الهدف العام — من مبدأ السورة إلى منتهاها .

وهكذا يستغرق الحديث عن النفاق والمنافقين بقية هذا الدرس ، وهو ختام هذا الجزء.. بعد تلك الصورة التي رسمتها الآية السابقة لطائفة من المنافقين آمنوا ثم كفروا . ثم آمنوا ثم كفروا . ثم ازدادوا كفراً ..

ومن هنا تبدأ الحملة التي سبقت الإشارة إليها على النفاق والمنافقين بشتى أساليبها الجديرة بالدراسة والتأمل ، لمعرفة طبيعة المنهج وهو يزاول العمل على الطبيعة ؛ وفي واقع الحياة والقلوب !

« بشر المنافقين بأن لهم عذابا أليما . الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين . أيبتغون عندهم العزة ؟ فإن العزة لله جميعاً . وقد نزّل عليكم الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره . إنكم إذاً مثلهم . إن الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعاً . الذين يتربصون بكم . فإن كان لكم فتح من الله قالوا : ألم نكن معكم ؟ وإن كان للكافرين نصيب قالوا : ألم نستحوذ عليكم ونمنعكم من

المؤمنين ؟ فالله يحكم بينكم يوم القيامة . ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا . إن المنافقين يخادعون الله — وهو خادعهم — وإذا قاموا إلى الصلاةقاموا كسالى يراءون الناس،ولا يذكرون الله إلا قليلا مذبذبين بين ذلك . لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء . ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا » . .

***

تبدأ الحملة بهذا التهكم الواضح في استعمال كلمة « بشر » مكان كلمة أنذر . وفي جعل العذاب الأليم الذي ينتظر المنافقين بشارة ! ثم ببيان سبب هذا العذاب الأليم ، وهو ولايتهم للكافرين دون المؤمنين ؛ وسوء ظنهم بالله وسوء تصورهم لمصدر العزة والقوة .

« بشر المنافقين بأن لهم عذاباً أليما ، الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين . أيبتغون عندهم العزة ؟ فإن العزة لله جميعاً » . .

والكافرون المذكورون هنا هم — على الأرجح — اليهود ؛ الذين كان المنافقون يأوون إليهم ؛ ويتخنسون عندهم ، ويبيتون معهم للجماعة المسلمة شتى المكائد .

والله — جل جلاله — يسأل في استنكار: لم يتخذون الكافرين أولياء وهم يزعمون الإيمان؟ لم يضعون أنفسهم هذا الموضع، ويتخذون لأنفسهم هذا الموقف ؟ أهم يطلبون العزة والقوة عند الكافرين ؟ لقد استأثر الله — عز وجل — بالعزة ؛ فلا يجدها إلا من يتولاه ؛ ويطلبها عنده ؛ ويرتكن إلى حماه .

وهكذا تكشف اللمسة الأولى عن طبيعة المنافقين ، وصفتهم الأولى ، وهي ولاية الكافرين دون المؤمنين ، كما تكشف عن سوء تصورهم لحقيقة القوى ؛ وعن تجرد الكافرين من العزة والقوة التي يطلبها عندهم أولئك المنافقون . وتقرر أن العزة لله وحده ؛ فهي تطلب عنده وإلا فلا عزة ولا قوة عند الآخرين !

ألا انه لسند واحد للنفس البشرية تجد عنده العزة،فإن ارتكنت اليه استعلت على من دونه. وإلا إنها لعبودية واحدة ترفع النفس البشرية وتحررها .. العبودية لله .. فإن لا تطمئن إليها النفس استعبدت لقيم شتى ، وأشخاص شتى ، واعتبارات شتى ، ومخاوف شتى . ولم يعصمها شيء من العبودية لكل أحد ولكل شيء ولكل اعتبار ..

وإنه إما عبودية لله كلها استعلاء وعزة وانطلاق . وإما عبودية لعباد الله كلها استخذاء وذلة وأغلال . . ولمن شاء أن يختار ..

وما يستعز المؤمن بغير الله وهو مؤمن . وما يطلب العزة والنصرة والقوة عند أعداء الله وهو يؤمن بالله . ومـــا أحوج ناساً ممن يدعون الإسلام ؛ ويتسمون بأسماء المسلمين ، وهم يستعينون بأعدى أعداء الله في الأرض ، أن يتدبروا هذا القرآن .. إن كانت بهم رغبة في أن يكونوا مسلمين .. وإلا فإن الله غني عن العالمين !

ومما يلحق بطلب العزة عند الكفار وولايتهم من دون المؤمنين: الاعتزاز بالآباء والأجداد الذين ماتوا على الكفر ، واعتبار أن بينهم وبين الجيـــل المسلم نسباً وقرابة ! كما يعتز ناس بالفراعنة والأشوريين والفينيقيين والبابليين وعرب الجاهلية اعتزازاً جاهلياً ، وحمية جاهلية ..

روى الإمام أحمد : حدثنا حسين بن محمد ، حدثنا أبو بكر بن عبـــاس . عن حميد الكندي عن عبادة بن نسي ، عن أبي ريحانـة : أن النبي ﷺ قال : « من انتسب إلى تسعة آباء كفار ، يريد بهم عزا وفخرا ، فهو عاشرهم في النار » ..

ذلك أن آصرة التجمع في الإسلام هي العقيدة . وأن الأمة في الاسلام هي المؤمنون بالله منذ فجر التاريخ . في كل أرض ، وفي كل جيل . وليست الأمة مجموعة الأجيال من القدم ، ولا المتجمعين في حيز من الأرض في جيل من الأجيال !

* * *

وأولى مراتب النفاق أن يجلس المؤمن مجلسا يسمع فيه آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها ، فيسكت ويتغاضى .. يسمي ذلك تسامحاً ، أو يسميه دهاء ، أو يسميه سعة صدر وأفق وإيمانا بحرية الرأي !!! وهي هي الهزيمة الداخلية تدب في أوصاله ؛ وهو يموه على نفسه في أول الطريق ، حياء منه أن تأخذه نفسه متلبساً بالضعف والهوان !

إن الحمية لله ، والدين لله ، ولآيات الله ، هي آية الإيمان . وما تفتر هذه الحمية إلا وينهار بعدها كل سد ؛ وينزاح بعدها كل حاجز ، وينجرف الحطام الواهي عند دفعه التيار . وإن الحمية لتكبت في أول الأمر عمداً . ثم تهمد . ثم تخمد . ثم تموت!

فمن سمع الاستهزاء بدينه في مجلس ، فإما أن يدفع ، وإما أن يقاطع المجلس وأهله . فأما التغاضي والسكوت فهو أول مراحل الهزيمة . وهو المعبر بين الإيمان والكفر على قنطرة النفاق !

وقد كان بعض المسلمين في المدينة يجلسون في مجالس كبار المنافقين — ذوي النفوذ — وكان ما يزال لهم ذلك النفوذ . وجاء المنهج القرآني ينبه في النفوس تلك الحقيقة .. حقيقة أن

غشيان هذه المجالس والسكوت على ما يجري فيها ، هو أولى مراحل الهزيمة . وأراد أن يجنبهم إياها .. ولكن الملابسات في ذلك الحين لم تكن تسمح بأن يأمرهم أمراً بمقاطعة مجالس القوم إطلاقاً. فبدأ يأمرهم بمقاطعتها حين يسمعون آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها .. وإلا فهو النفاق .. وهو المصير المفزع ، مصير المنافقين والكافرين :

« و قد نزل عليكم في الكتاب : أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها ، فلا تقعدوا معهم ، حتى يخوضوا في حديث غيره . إنكم اذاً مثلهم . ان الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعاً » .

والذي تحيل اليه الآية هنا مما سبق تنزيله في الكتاب ، هو قوله تعالى في سورة الأنعام ـ وهي مكية ـ «واذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره» ..

والتهديد الذي يرتجف له كيان المؤمن:

« إنكم إذاً مثلهم » ..

والوعيد الذي لا تبقى بعده بقية من تردد :

« إن الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعاً » ..

ولكن قصر النهي على المجالس التي يكفر فيها بآيات الله ويستهزأ بها ، وعدم شموله لكل علاقات المسلمين بهؤلاء المنافقين. يشي — كما أسلفنا — بطبيعة الفترة التي كانت تجتازها الجماعة المسلمة — إذ ذاك — والتي يمكن أن تتكرر في أجيال أخرى وبيئات أخرى — كما تشي بطبيعة المنهج في أخذ الأمر رويداً رويداً؛ومراعاة الرواسب والمشاعر والملابسات والوقائع.. في عالم الواقع .. مع الخطو المطرد الثابت نحو تبديل هذا الواقع !

★★★

ثم يأخذ في بيان سمات المنافقين ، فيرسم لهم صورة زرية منفرة؛وهم يلقون المسلمين بوجه ويلقون الكفار بوجه ؛ ويمسكون العصا من وسطها ، ويتلوون كالديدان والثعابين :

« الذين يتربصون بكم . فإن كان لكم فتح من الله ، قالوا : ألم نكن معكم ؟ وإن كان للكافرين نصيب قالوا : ألم نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين ؟ فالله يحكم بينكم يوم القيامة . ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا » ..

وهي صورة منفرة. تبدأ بتقرير ما يكنه المنافقون للجماعة المسلمة من الشر،وما يتربصون بها من الدوائر . وهم — مع ذلك — يتظاهرون بالمودة للمسلمين حين يكون لهم فتح من الله

ونعمة فيقولون : حينئذ :

« ألم نكن معكم ؟ » ..

ويعنون أنهم كانوا معهم في الموقعة – فقد كانوا يخرجون أحياناً يخذلون ويخلخلون الصفوف : – أو يعنون أنهم كانوا معهم بقلوبهم ! وأنهم ناصروهم وحموا ظهورهم !

« وإن كان للكافرين نصيب قالوا : ألم نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين » ..

يعنون أنهم آزروهم وناصروهم وحموا ظهورهم ؛ وخذّلوا عنهم وخلخلوا الصفوف ! !

وهكذا يتلوون كالديدان والثعابين ؛ في قلوبهم السم . وعلى ألسنتهم الدهان ! ولكنهم بعد ضعاف ؛ صورتهم زرية شائهة تعافها نفوس المؤمنين .. وهذه إحـــدى لمسات المنهج لنفوس المؤمنين .

ولما كانت الخطة التي اتبعها الرسول ﷺ بتوجيه ربه في مسألة المنافقين ، هي الإغضـــاء والإعراض ، وتحذير المؤمنين وتبصيرهم بأمرهم ؛ في الطريق إلى تصفية هذا المعسكر اللعين ! فإنه يكلهم هنا إلى حكم الله في الآخرة ؛ حيث يكشف الستار عنهم ، وينالهم جزاء ما يكيدون للمسلمين :

« فالله يحكم بينكم يوم القيامة » ..

حيث لا مجال للكيد والتآمر والتبييت ؛ ولا مجال لاخفاء مكنونات الصدور .

ويطمئن الذين آمنوا بوعد من الله قاطع ؛ أن هـذا الكيد الخفي الماكر ، وهذا التآمر مع الكافرين ، لن يغير ميزان الامور ؛ ولن يجعل الغلبة والقهر للكافرين على المؤمنين :

« ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا » ..

وفي تفسير هذه الآية وردت رواية أن المقصود بهذا النص يوم القيامة . حيث يحكم الله بين المؤمنين والمنافقين فلا يكون هناك للكافرين على المؤمنين سبيل .

كما وردت رواية أخرى بأن المقصود هو الامر في الدنيا بأن لا يسلط الله الكافرين على المسلمين تسليط استئصال . وإن غلب المسلمون في بعض المعارك وفي بعض الاحايين .

وإطلاق النص في الدنيا والآخرة أقرب ، لأنه ليس فيه تحديد .

والامر بالنسبة للآخرة لا يحتاج إلى بيان أو توكيد .. أما بالنسبة للدنيا ، فإن الظواهر أحيانا قد توحي بغير هذا . ولكنها ظواهر خادعة تحتاج إلى تمعن وتدقيق :

إنه وعد من الله قاطع . وحكم من الله جامع : أنه متى استقرت حقيقة الإيمان في نفوس المؤمنين ؛ وتمثلت في واقع حياتهم منهجاً للحياة ، ونظاماً للحكم ، وتجرداً لله في كل خاطرة

وحركة ، وعبادة لله في الصغيرة والكبيرة .. فلن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا .

وهذه حقيقة لا يحفظ التاريخ الاسلامي كله واقعة واحدة تخالفها !

وأنا أقرر في ثقة بوعد الله لا يخالجها شك ، أن الهزيمة لا تلحق بالمؤمنين ، ولم تلحق بهم في تاريخهم كله ، إلا وهناك ثغرة في حقيقة الايمان . إما في الشعور وإما في العمل — ومن الإيمان أخذ العدة وإعداد القوة في كل حين بنية الجهاد في سبيل الله وتحت هذه الراية وحدها مجردة من كل إضافة ومن كل شائبة — وبقدر هذه الثغرة تكون الهزيمة الوقتية ؛ ثم يعود النصر للمؤمنين — حين يوجدون !

ففي « أحد » مثلا كانت الثغرة في ترك طاعة الرسول ﷺ وفي الطمع في الغنيمة . وفي « حنين » كانت الثغرة في الاعتزاز بالكثرة والإعجاب بها ونسيان السند الأصيل ! ولو ذهبنا نتتبع كل مرة تخلف فيها النصر عن المسلمين في تاريخهم لوجدنا شيئاً من هذا .. نعرفه أو لا نعرفه .. أما وعد الله فهو حق في كل حين .

نعم.إن المحنةقد تكون للابتلاء .. ولكن الابتلاءإنما يجيء لحكمة ، هي استكمال حقيقة الايمان ، ومقتضياته من الاعمال — كما وقع في أحد وقصه الله على المسلمين[1] — فمتى اكتملت تلك الحقيقة بالابتلاء والنجاح فيه ، جاء النصر وتحقق وعد الله عن يقين .

على أنني إنما أعني بالهزيمة معنى أشمل من نتيجة معركة من المعارك . . إنما أعني بالهزيمة هزيمة الروح ، وكلال العزيمة . فالهزيمة في معركة لا تكون هزيمة إلا إذا تركت آثارها في النفوس هموداً وكلالا وقنوطا . فأما إذا بعثت الهمة ، وأذكت الشعلة ، وبصرت بالمزالق ، وكشفت عن طبيعة العقيدة وطبيعة المعركة وطبيعة الطريق .. فهي المقدمة الاكيدة للنصر الاكيد . ولو طال الطريق !

كذلك حين يقرر النص القرآني : أن الله لن يجعل للكافرين على المؤمنين سبيلا . . فإنما يشير إلى أن الروح المؤمنة هي التي تنتصر ؛ والفكرة المؤمنة هي التي تسود . وإنما يدعو الجماعة المسلمة إلى استكمال حقيقة الإيمان في قلوبها تصوراً وشعوراً ؛ وفي حياتها واقعا وعملا . وألا يكون اعتمادها كله على عنوانها . فالنصر ليس للعنوانات . إنما هو للحقيقة التي وراءها . .

وليس بيننا وبين النصر في أي زمان وفي أي مكان ، إلا أن نستكمل حقيقة الإيمان .

---

(١) تراجع غزوة احد في سورة ال عمران في الجزء الرابع من الظلال ص ٤٦ — ص ١٦٨ من الطبعة الرابعة المنقحة .

ونستكمل مقتضيات هذه الحقيقة في حياتنا وواقعنا كذلك .. ومن حقيقة الإيمان أن نأخذ العدة ونستكمل القوة . ومن حقيقة الإيمان ألا نركن إلى الأعداء ، وألا نطلب العزة إلا من الله .

ووعد الله هذا الأكيد ، يتفق تماماً مع حقيقة الإيمان وحقيقة الكفر في هذا الكون..

إن الإيمان صلة بالقوة الكبرى ، التي لا تضعف ولا تفنى.. وإن الكفر انقطاع عن تلك القوة وانعزال عنها .. ولن تملك قوة محدودة مقطوعة منعزلة فانية ، أن تغلب قوة موصولة بمصدر القوة في هذا الكون جميعاً .

غير أنه يجب أن نفرق دائماً بين حقيقة الإيمان ومظهر الإيمان . . إن حقيقة الإيمان قوة حقيقية ثابتة ثبوت النواميس الكونية. ذات أثر في النفس وفيما يصدر عنها من الحركة والعمل. وهي حقيقة ضخمة هائلة كفيلة حين تواجه حقيقة الكفر المنعزلة المبتوتة المحدودة أن تقهرها. ولكن حين يتحول الإيمان إلى مظهر فإن « حقيقة » الكفر تغلبه ، إذا هي صدقت مع طبيعتها وعملت في مجالها .. لأن حقيقة أي شيء أقوى من « مظهر » أي شيء. ولو كانت هي حقيقة الكفر وكان هو مظهر الايمان !

إن قاعدة المعركة لقهر الباطل هي إنشاء الحق . وحين يوجد الحق بكل حقيقته وبكل قوته يتقرر مصير المعركة بينه وبين الباطل . مهما يكن هذا الباطل من الضخامة الظاهرية الخادعة للعيون .. « بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق » ..

« ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا » ..

***

ثم يمضي السياق بعد هذا الوعد القاطع المطمئن للمؤمنين ، المخذل للمنافقين الذين يتولون الكافرين يبتغون عندهم العزة .. يمضي فيرسم صورة زرية أخرى للمنافقين،مصحوبة بالتهوين من شأنهم ، وبوعيد الله لهم .

« إن المنافقين يخادعون الله — وهو خادعهم — وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراءون الناس ، ولا يذكرون الله إلا قليلا . مذبذبين بين ذلك . لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء . ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا » ..

وهذه لمسة أخرى من لمسات المنهج للقلوب المؤمنة . فإن هذه القلوب لا بد أن تشمئز من قوم يخادعون الله. فإن هذه القلوب تعرف أن الله سبحانه ـ لا يخدع ـ وهو يعلم السر وأخفى.

وهي تدرك أن الذي يحاول أن يخدع الله لا بد أن تكون نفسه محتوية على قدر من السوء ومن الجهل ومن الغفلة كبير . ومن ثم تشمئز وتحتقر وتستصغر كذلك هؤلاء الخادعين !

ويقرر عقب هذه اللمسة أنهم يخادعون الله « وهو خادعهم » .. أي مستدرجهم وتاركهم في غيهم ؛ لا يقرعهم بعصية تنبههم ؛ ولا يوقظهم بقارعة تفتح عيونهم .. تاركهم يمضون في طريق الهاوية حتى يسقطوا .. وذلك هو خداع الله — سبحانه — لهم .. فالقوارع والمحن كثيراً ما تكون رحمة من الله ، حين تصيب العباد ، فتردهم سريعاً عن الخطأ ؛ أو تعلمهم ما لم يكونوا يعلمون .. وكثيرا ما تكون العافية والنعمة استدراجاً من الله للمذنبين الغاوين ، لأنهم بلغوا من الاثم والغواية ما يستحقون معه أن يتركوا بلا قارعة ولا نذير ، حتى ينتهوا الى شر مصير .

ثم يستمر السياق يرسم لهم صورا زرية شائنــــة ، لا تثير في قلوب المؤمنين الا الاشمئزاز والاحتقار :

« وإذا قاموا الى الصلاة قاموا كسالى يراءون الناس . ولا يذكرون الله الا قليلا » فهم لا يقومون الى الصلاة بحرارة الشوق الى لقاء الله ، والوقوف بين يديه ، والاتصــــال به ، والاستمـــداد منه .. إنما هم يقومون يراءون النـــاس . ومن ثم يقومون كسالى ، كالذي يؤدي عملاً ثقيلاً ؛ أو يسخر سخرة شاقة ! وكذلك هم لا يذكرون الله إلا قليلاً . فهم لا يتذكرون الله إنما يتذكرون الناس ! وهم لا يتوجهون إلى الله إنما هم يراءون الناس .

وهي صورة كريهة — ولا شك — في حس المؤمنين، تثير في نفوسهم الاحتقار والاشمئزاز، ومن شأن هذا الشعور أن يباعد بينهم وبين المنافقين، وأن يوهن العلائق الشخصية والمصلحية .. وهي مراحل في المنهج التربوي الحكيم ؛ للبت بين المؤمنين والمنافقين !

ويستمر السياق في رسم الصور الزرية المنفرة :

« مذبذبين بين ذلك . لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء . ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا » ..

وموقف الذبذبة ، والأرجحة ، والاهتزاز ، وعدم الاستقرار والثبات في أحد الصفين : الصف المؤمن أو الصف الكافر .. موقف لا يثير إلا الاحتقار والاشمئزاز كذلك في نفوس المؤمنين . كما أنه يوحي بضعف المنافقين الذاتي . هذا الضعف الذي يجعلهم غـــير قادرين على اتخاذ موقف حاسم هنا أو هناك .. ولا على المصارحة برأي وعقيدة وموقف .. مع هؤلاء أو هؤلاء ..

ويعقب على هذه الصور الزرية ، وهذه المواقف المهزوزة ، بأنهم قد حقت عليهم كلمة الله ؛

واستحقوا ألا يعينهم في الهداية ؛ ومن ثم فلن يستطيع أحد أن يهديهم سبيلا . ولا أن يجد لهم طريقا مستقيما .

« ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا » . .

* * *

وإلى هنا يكون السياق قد بلغ من إثارة الاشمئزاز والاحتقار والاستضعاف للمنافقين في نفوس المؤمنين مبلغـــا عظيما . . فيلتفت بالخطاب للمؤمنين محذراً إياهم أن يسلكوا طريق هؤلاء المنافقين . . وطريق المنافقين — كما سبق — هو اتخاذهم الكفار أولياء من دون المؤمنين . ويحذرهم بطش الله ونقمته ، كما يصور لهم مصير المنافقين في الآخرة . وهو مصير مفزع رعيب ؛ مهين كذلك ذليل :

« يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين . أتريدون أن تجعلوا لله عليكم سلطانا مبينا ؟ إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار . ولن تجد لهم نصيرا . إلا الذين تابوا وأصلحوا ، واعتصموا بالله ، وأخلصوا دينهم لله . فأولئك مع المؤمنين . وسوف يؤتي الله المؤمنين أجرا عظيما » . .

إنها العودة إلى نداء الذين آمنوا ، بالصفة التي تفرقهم وتميزهم ممن حولهم . والتي بها يتميز منهجهم وسلوكهم وواقعهم . والتي بها يستجيبون للنداء كذلك ويطيعون التوجيهات .

نداء لهم بهذه الصفة أن يحذروا سلوك طريق المنافقين، ويحذروا أن يتولوا الكفار من دون المؤمنين . . وهو نداء لا بد كانت هناك حاجة اليه في المجتمع المسلم يومـــذاك . حيث كانت الصلات ما تزال قائمة في المجتمع بين بعض المسلمين واليهود في المدينة ؛ وبـــين بعض المسلمين وقرابتهم في قريش — ولو من الناحية النفسية — ونقول « بعض المسلمين » لأن هناك البعض الآخر ؛ الذي فصم كل علاقاته بالمجتمع الجاهلي — حتى مع الآباء والأبناء — وجعل العقيدة وحدها هي آصرة التجمع ووشيجة الرحم ؛ كما علمهم الله .

وذلك البعض هو الذي كانت الحاجة قائمة لتنبيهه إلى أن هذا هو طريق النفاق والمنافقين — بعد تصوير النفاق والمنافقين تلك الصور الزرية المنفرة البغيضة — وتحـــذيره من التعرض لغضب الله وبطشه ونقمته :

« أتريدون أن تجعلوا لله عليكم سلطانا مبينا ؟ » .

ولا يفرَق قلب المؤمن ويرتجف أكثر من فرقه وارتجافه من التعرض لبطش الله ونقمته

ومن ثم جاء التعبير في صورة الاستفهام .. ومجرد التلويح بالاستفهام يكفي في خطاب قلوب المؤمنين !

وطرقة أخرى عالية على هذه القلوب . غير موجهة إليها مباشرة . ولكن عن طريق التلويح .. طرقة تقرر المصير الرعيب المفزع المهين للمنافقين :

« إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار . ولن تجد لهم نصيرا » .

في الدرك الأسفل .. إنه مصير يتفق مع ثقلة الأرض التي تلصقهم بالتراب ، فلا ينطلقون ولا يرتفعون . ثقلة المطامع والرغائب ، والحرص والحذر ، والضعف والخور ! الثقلة التي تهبط بهم إلى موالاة الكافرين ومداراة المؤمنين . والوقوف في الحياة ذلك الموقف المهين : « مذبذبين بين ذلك . لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء » ..

فهم كانوا في الحياة الدنيا يزاولون تهيئة أنفسهم وإعدادها لذلك المصير المهين « في الدرك الأسفل من النار » .. بلا أعوان هنالك ولا أنصار .. وهم كانوا يوالون الكفار في الدنيا ، فأنى ينصرهن الكفار ؟

ثم يفتح لهم — بعد هذا المشهد المفزع — باب النجاة .. باب التوبة لمن أراد النجاة :

« إلا الذين تابوا وأصلحوا ، واعتصموا بالله ، وأخلصوا دينهم لله . فأولئك مع المؤمنين . وسوف يؤتي الله المؤمنين أجرا عظيما » ..

وفي مواضع أخرى كان يكتفي بأن يقول : « إلا الذين تابوا وأصلحوا » .. فالتوبة والاصلاح يتضمنان الاعتصام بالله ، وإخلاص الدين لله . ولكنه هنا ينص على الاعتصام بالله . وإخلاص الدين لله . لأنه يواجه نفوسا تذبذبت ، ونافقت ، وتولت غير الله . فناسب أن ينص عند ذكر التوبة والاصلاح ، على التجرد لله ، والاعتصام به وحده ؛ وخلاص هذه النفوس من تلك المشاعر المذبذبة ، وتلك الأخلاق المخلخلة .. ليكون في الاعتصام بالله وحده قوة وتماسك وفي الإخلاص لله وحده خلوص وتجرد ..

بذلك تخف تلك الثقلة التي تهبط بالمنافقين في الحياة الدنيا الى اللصوق بالأرض ، وتهبط بهم في الحياة الآخرة إلى الدرك الأسفل من النار .

وبذلك يرتفع التائبون منهم إلى مصاف المؤمنين المعتزين بعزة الله وحده . المستعلين بالإيمان . المنطلقين من ثقلة الأرض بقوة الإيمان .. وجزاء المؤمنين — ومن معهم — معروف :

« وسوف يؤتي الله المؤمنين أجرا عظيما » ..

وبهذه اللمسات المنوعة ، يكشف حقيقة المنافقين في المجتمع المسلم ، ويقلل من شأنهم ؛

وينبه المؤمنين إلى مزالق النفاق ، ويحذرهم مصيره . ويفتح باب التوبة للمنافقين ؛ ليحاول من فيه منهم خير، أن يخلص نفسه ، وينضم إلى الصف المسلم في صدق وفي حرارة وفي إخلاص..

***

وأخيراً تجيء تلك اللمسة العجيبة ، الموحية المؤثرة العميقة .. أخيرا بعد ذكر العقاب المفزع ، والأجر العظيم .. لتشعر قلوب البشر أن الله في غنى عن عذاب العباد . فما به — سبحانه — من نقمة ذاتية عليهم يصب عليهم من أجلها العذاب . وما به ـ سبحانه ـ من حاجة لإظهار سلطانه وقوته عن هذا الطريق . وما به — سبحانه — من رغبة ذاتية في عذاب الناس .. إنما تحفل أساطير الوثنية كلها بمثل هذه التصورات .. وإنما هو صلاح العباد بالإيمان والشكر لله .. مع تحبيبهم في الايمان والشكر لله . وهو الذي يشكر صالح العمل ويعلم خبايا النفوس :

« ما يفعل الله بعذابكم — إن شكرتم وآمنتم ؟ — وكان الله شاكرا عليما » ..

نعم ! ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم ؟ إن عذابه لجزاء على الجحود والكفران ؛ وتهديد لعله يقود إلى الشكر والإيمان .. إنها ليست شهوة التعذيب ، ولا رغبة التنكيل؛ ولا التذاذ الآلام ، ولا إظهار البطش والسلطان .. تعالى الله عن ذلك كله علوا كبيرا .. فمتى اتقيتم بالشكر والإيمان ؛ فهنالك الغفران والرضوان . وهناك شكر الله — سبحانه — لعبده . وعلمه — سبحانه — بعبده ..

وشكر الله — سبحانه — للعبد ، يلمس القلب لمسة رفيقة عميقة .. إنه معلوم أن الشكر من الله — سبحانه — معناه الرضى ، ومعناه ما يلازم الرضى من الثواب .. ولكن التعبير بأن الله — سبحانه — شاكر .. تعبير عميق الايحاء !

وإذا كان الخالق المنشيء ، المنعم المتفضل ، الغني عن العالمين .. يشكر لعباده صلاحهم وإيمانهم وشكرهم وامتنانهم .. وهو غني عنهم وعن إيمانهم وعن شكرهم وامتنانهم .. إذا كان الخالق المنشيء ، المنعم المتفضل ، الغني عن العالمين يشكر .. فماذا ينبغي للعباد المخلوقين المحدثين ؛ المغمورين بنعمة الله .. تجاه الخالق الرزاق المنعم المتفضل الكريم ؟ !

ألا إنها اللمسة الرفيقة العميقة التي ينتفض لها القلب ويخجل ويستجيب .

ألا إنها الاشارة المنيرة الى معالم الطريق . الطريق الى الله الواهب المنعم، الشاكر العليم ..

***

وبعد .. فهذا جزء واحد ، من ثلاثين جزءاً ، من هذا القرآن .. يضم جناحه على مثل هذا الحشد العجيب من عمليات البناء والترميم ، والتنظيف والتقويم . وينشيء في عالم النفس ، وفي واقع المجتمع ، وفي نظام الحياة ، ذلك البناء الضخم المنسق العريض . ويعلن مولد الانسان الجديد ؛ الذي لا تعرف له البشرية من قبل ولا من بعد مثيلاً ولا شبيهاً، في مثاليته وواقعيته . وفي نظافته وتطهره ، مع مزاولة نشاطه الانساني في شتى الميادين .. هذا الإنسان الذي التقطه المنهج الرباني من سفح الجاهلية ، ودرج به في المرتقى الصاعد ، إلى القمة السامقة . في يسر وفي رفق وفي لين ..

انتهى الجزء الخامس . ويليه الجزء السادس مبدوءاً بقوله تعـــالى « لا يحب الله الجهر بالسوء من القول »

فهرست